مفاهيم علم التخطيط والبيئة الحضرية (٥)
عند ابن خلدون

الدكتور محمد مكية

ان تخطيط المدن في مفهومه الواسع هو تجسيد للقيم والخصائص الحضارية الانسانية • ولئن كان الناس في الماضي ، كما يقول البروفسور لويس سفورد ، مهما عملوا بمدنهم فقد عبروا عن وحدة بينة تربط حياة المجتمع المتراكمة بشكل متراكب حتى لقد بقيت ملامح المدينة وشكلها معبرة عما كان مرغوبا او مذكورا او محبوبا ، فقد حل اليوم النمط الآلي المتيبس محل التنويع الاجتماعي وعملت صفوف الوحدات المدنية اللامنتهية تلقائيا على توسيع التركيب الفيزيائي للمدينة في الوقت الذى ادت فيه الى تحطيم محتوى حياة المدينة ومعناها(١) • ذلك لان المدينة كيان اجتماعي واقتصادي واداري وسياسي وتجاري وثقافي وروحي ، وسجل تاريخي للانسان يروي لنا قصته وحضارته فهي المسرح العام لعقليته ونشاطاته ، بل ان المدينة في الحقيقة حصيلة لنزعة التجمع الانساني • « وقد ظن دوركايم واعضاء مدرسته انهم اول من فطن الى الخواص الاجتماعية لهذه الظواهر واول من أدخلها في مسائل علم الاجتماع • ولم يدروا انه قد سبقهم الى ذلك ابن خلدون بأكثر من خمسة قرون» •(٢)

فابن خلدون عالج ، في مقدمته ، ما سماه العلامة دور كايم بـ (المورفولوجيا La Morphologie Sociale) فتطرق الى النظم التي يسير عليها المجتمع في انشاء مواطن التجمع كالمدن والقرى والامصار والمساكن ، والطرق التي يتبعها في تصميمها واشكالها ومرافقها ووظائفها ومواقعها بالنسبة الى الجبال والبحار والانهار والبحيرات •(٣)

ويرى ابن خلدون ان ثمة علاقة بين الدولة وعملية التخطيط ، وان مظاهر العمران وازدهارها حضاريا رهن بعمر الدولة ، ومعنى هذا كما يبدو ، هو استمرار قابلية الجهاز التخطيطي ومدى هيمنته ، بما يملك من وسائل الغلبة والاستغلال كما حصل ذلك لبغداد في عهد ازدهارها ايام المأمون وعهد خرابها بعد ذلك •

ويشير ابن خلدون الى ظاهرة اجتماعية لها اثرها في شمول العمران التخطيطي في المدينة •

وذلك ان البدو حين تمسهم الحضارة بالرفاه وحسن الكسب ينزعون الى الاستقرار فينزلون المدن والامصار • وقد يحدث ان يأتي ملك آخر

ودولة ثانية فيتخذ من مدينة سابقة مستقرا له ، دون ان يختط غيرها ، فاعمار المدن ، في الواقع ، عملية مستمرة داينميكية ، ولم يغفل ابن خلدون ذلك واعتبر ان عملية الادامة وتكملة ما قام به الغير امر واقع كما حصل ذلك في بناء سد مارب الذي اتمه ملوك حمير من بعد سبأ بن يشجب ٠٠ وفي هذا بالطبع ، امتداد متصل للتخطيط الحضاري يزيد من حيوية العمل في هذا المجال ، كقوة جديدة دافعة ، تبعث على الاتساع في المعالم العمرانية كما وكيفا ، كما حدث ذلك لمدن (فاس ، وبجايـــه ، وعراق العجم ، والقاهرة)٠(٤) ٠

ورأى آخر له أثره في عمران المدينة ، هو ان توفر الايدي العاملة ، والفعله الماهرين والفنيين المختصين ، كما نسميهم اليوم ، وتكامل الاسباب الهندسية والآلية التى تعاون الطاقة البشرية المحدودة ، في التكامل المعماري، يضاف الى كل ذلك مدى استيعاب الدولة للجهاز التخطيطي ومقدار قوتها في السيطرة والتغلب ، كل هذه الامور لازمة للبناء العمرانى والحضاري في المدينة ٠ ويأتي ابن خلدون بأمثلة لذلك كايوان كسرى ، واهرام مصر ، وشرشال بالمغرب(٥) والجامع الاموي بقرطبة وغير ذلك من الهياكل العظيمة، فهو هنا يؤكد « ان تلك الافعال للاقدمين ، انما كانت بالهندام واجتمـاع الفعلة وكثرة الايدي عليها فبذلك شيدت تلك الهياكل والمصانع ولا تتوهم ما تتوهم العامة ، ان ذلك لعظم اجسام الاقدمين عن اجسامنا في اطرافهـــا واقطارها »٠(٦)

فقوة جهاز التخطيط في الدولة ومقدار امكانياته أمر يتوقف على نسبة قوة الدولة في أصلها ، كما ان الحماية بالاشكال العامة للصرح والابنيـــة المعمارية التى تتألف منها المجموعة التي تكون المدينة لا تتم الا بحســن التنظيم والادارة والاصلاح وليس بفضل اجسام البشر الاسطورية ٠

ويحدثنا ابن خلدون في « فصل فيما تجب مراعاته في اوضاع المدن وما يحدث اذا غفل عن تلك المراعاة » ويرى ان تلك المراعاة هي «دفع المضار بالحماية من طوارقها وجلب المنافع وتسهيل المرافق(٧) ٠ ثــم يمضي في توضيح هذا القول مؤكدا ان الحماية ممـا يصيب المدينة من اضرار أمر يتصل بنواح كثيرة : سياسية وادارية وتجارية واجتماعية وصحية ، وهي تتفاوت تبعا للزمان والمكان بالطبع ٠

ومن المفيد بهذه المناسبة ان نشير الى ان هذه الحماية جاءت نتيجة للصراع بين (البداوة والحضارة) ، هذا الصراع الذي هو ، في الغالب محور نظرية ابن خلدون كما يرى الدكتور على الوردي ٠ فبعــد ان يستعرض الوردي رأى الدكتور طه حسين في تأكيده على ان المحور هو (الدولة) ، ورأى الاستاذ ساطع الحصري فى انه (العصبية) يقول « ففي رأيي ان نظرية ابن خلدون تدور حول موضوع هو اوسع نطاقا واكثر شمولا من موضوع العصبية وموضوع الدولة ٠ انها حسبما أظن تدور حول البداوة

والحضارة وما يقع بينهما من صراع . ويمكن القول ان لها جانبين :احدهما سكوني Static والآخر حركي Dynamic »(٨) .

ويمضي الدكتور الوردي الى القول بان ظهور الدول الكبيرة في العراق ومصر قبل غيرها من مناطق العالم ، وظهور اول حضارتين في تاريخ العالم يرجع الى الصراع بين البداوة والحضارة فيها ، ذلك ان الموجات السامية التي كانت تنبعث من الصحراء والتي تمثلت فيها البداوة هي التي أسست تلك الدول الكبيرة(٩) .

ويشير الدكتور الوردي الى رأي (جومبلوتز) و (أوبنهايمر) بهذا الصدد فيقول : « يعتقد جومبلوتز ان النزاع صفة اصيلة من صفات النوع البشري وهو يحدث دائما بصور شتى (كذا) وبهذا تنشأ الدولة التي هي في نظر جومبلوتز ليست سوى نظام اجتماعي قائم على اساس من الغلبة والاستغلال الاقتصادي .. (كذا) وجاء اوبنهايمر بعد ذلك ليدفع نظرية جومبلوتز خطوة أخرى حيث جعلها اكثر قربا الى النظرية الخلدونية ، ففي رأي اوبنهايمر ان الدولة نشأت من جراء النزاع بين البدو والحضر . وقد حدث هذا عند ظهور الحضارة واكتشاف الزراعة. »(١٠)

قلت في معرض الحديث عن الحماية ، أنها تتفاوت بالقياس الى الزمان والمكان فقد كانت في زمن سابق وامكنة معينة درءا لخطر الغزو والنهب والسلب والتسلط ولذلك كان العقل التخطيطي يتدارس مواطن الحماية وزوايا التمنع الطبيعية ويراعى قبل الاختيار والتصميم « طيب الهواء للسلامة من الامراض فان الهواء اذا كان راكدا خبيثا او مجاورا للمياه الفاسدة او مناقع متعفنة أو مروج خبيثة أسرع اليها العفن من مجاورتها فاسرع المرض للحيوان الكائن فيه لا محاله وهذا مشاهد».(١١)

ولا بد لنا هنا من أن نشير الى ما كتبه الفيلسوف الروماني المشهور (فيروفيوس) في أول نظريات دلفن المعماري حيث اثار ضجة كبرى في عالم نظريات التصاميم بالنسبة لعصر النهضة وحتى الوقت الحاضر اذ كان هذا الفيلسوف يعتبر أول من وضع قواعد اساسية حول مفهوم متطلبات التخطيط للعمارة والمدن وقد تأثر به وكشف عن مؤلفاته بعض العلماء منهم : (البرتي و باليديو) وفي الوقت الذي تشير فيه الدراسات المعمارية والتخطيطية في العالم الى مكانة (فيروفيوس والبرتي وباليديو) لم يتطرق أحد الى التنويه على الاقل بما كتبه علامتنا ابن خلدون في هذا الحقل .لقد اثار فيروفيوس في كتابه ، (الكتب العشرة) مسألة تخطيط المباني وتوزيعها داخل أسوار المدينة ولكن اهتمامه كان على العموم منصبا على قضية (الحماية) والدفاع عن المدينة واتجاهات الرياح وصيانة المدينة من هذه الرياح الناقلة للامراض . وهذا الرأي كما هو واضح نفس الرأي الذي قال به ابن خلدون بهذا الصدد ، بل ان علامتنا يمتاز بكونه عالج الامر وابدى الرأي من وجهة الخصائص الطبيعية والاجتماعية للبلاد العربية وبخاصة شمال افريقيا

الذى عاش احداثه وتقلب في اجوائه دارسا متعمقا فى الدراسة على اساس واقعي مادى ·

وبالاضافة الى كل ذلك يتطرق ابن خلدون ، في ضوء المجتمع العربى الاسلامي ومشاكله السياسية ، الى تأثير الحكم والجهاز الخاص بالدولة والكفاءة على المدينة من أجل الحفاظ على مدلول المدينة المستقرة واستمرارها ويضع في قرارة فكره مفاهيم لمدى التحضر والترف والتوازن في سبيل التكامل فهو يقترب من مفهومنا الحديث بخطوات اكثر اتساعا عما تقدم به الفيلسوف الرومانى ·

ان هذا التوازن الذى انشأه علم التخطيط الحديث للمدن جاء نتيجة نظريات ودراسات أوجبتها طبيعة الثورة الصناعية · ونحن حين نطالع كتاب (مدن المستقبل) لـ (Ebenser Howard) نجد ان آراء الاصلاحيين الاجتماعيين قد انصهرت فيه في امثال هؤلاء البحاثين : توماس سبينسس Thomas Spense وهنرى جورج Henry George وأويسن Owen وفوريسر Fourier وويكفيلد Wakefield ، وقد عالج هذا الكتاب مسألة التضخم الصناعى في المدن وتشويه امتدادها ، وحرمان حقوق الانسان ، مؤكدا ضرورة خلق مدن جديدة تتصف بتوازن بين معالم الطبيعة ومعالم الحياة المدنية وجمهرتها ·

ويسوقنا هذا كله الى القول بالعلاقة المتينة بين علم الاجتماع وعلم التخطيط ، هذه العلاقة التي تناولها ابن خلدون في مقدمته ، والتى اشار اليها (الدكتور سابا شبر) الخبير الاستشاري للتخطيط في الكويت ، في احدى ندوات مؤتمر التخطيط الذى انعقد في القاهرة في ربيع سنة ١٩٦٣ ، وكان لي شرف المساهمة فيه · ولا اكتمكم ، فان عرض الدكتور ساباشبر لموضوع الاجتماع والتخطيط وعلاقة بن خلدون هي التى دفعتني لان أتتبع تلك العلاقة في المقدمة الرائعة للعلامة العربي · ولا شك ان اهتمام البلاد العربية في هذا المجال لعلم التخطيط ، بدأ يظهر مؤخرا ، ولكنه لا يزال متخلفا ، ولو اننا نلمس ان هنالك تحسسا نحو تفهم جديد لمستقبل التخطيط ·

ان علم وفن التخطيط يعتبر تطورا جديدا لعالم المدينة الجديدة ومحاولة في التنسيق ضمن اطار عام لمفهوم اقتصادى واجتماعى وروحي شامل وجاء بهذا المفهوم كرد فعل للاختصاص والقابليات الفردية التى تمت في علوم اختصاصية ومخافة خطر الاختصاص والافراط به على حساب عوامل اخرى فان عملية التخطيط تهدف الى علم تنسيق جديد ، ان ابن خلدون عندما يشير الى مقومات المدينة لا يغفل في تخطيطها الامور الاساسية التى نرددها اليوم بادىء مفهوم جديد ·

أما « جلب المنافع والمرافق للبلد » فيراعى فيه أمورا منها الماء وطيب المراعي والمزرع على أساس أن الزروع هي الاقوات ، فاذا كانت مزارع البلد

بالقرب منها كان ذلك اسهل في اتخاذه وأقرب في تحصيله ، ومن ذلك الشجر للحطب والبناء .(١٢)

وابن خلدون في رأيه هذا يقترب فيه من نظرية تخطيط المدن لايبنزر هوارد Ebenser Haward ، في أوائل القرن العشرين ، بكون المدن حجرات سكنية تحيطها او بمقربة منها الريف الذى يجاورها . وابن خلدون هنا يحقق كفاءة مؤسسة المدينة وواقعية لها ايضا قيم جمالية في التخطيط، ومنافع ضرورية في الاقتصاد ، اننا نشعر بمدى أهمية غرس الاشجار والغابات في اطراف المدينة من وجوه شتى ، صحية ، واقتصادية ، وجمالية. « ولئن كانت القيروان والكوفة مثلين لم تراع فيهما الامور الطبيعية تلك فكانتا أقرب الخراب(١٣) فان لدينا ، اليوم ، في بلادنا العربية ، مدنا هي أمثل بتلك ، ولولا ما اصطنعه العقل البشري من وسائل شتى للاستمرار والاستقرار ، لكانت اكثر خرابا كذلك ، غير ان الخراب هذا مع ذلك ، قد أصاب الاقتصاد القومي ، قبل كل شيء ، واساء الى الثروة الحضارية الانسانية في المدينة .. ولا شك ان المسألة في يومنا هذا قد تغير النظر اليها بعد ان تعقدت الحياة وظهرت حاجات جديدة في حقول متشعبة ، وبعد ان تنوعت وسائل الدفاع والحماية ، وتقدم علم الطب تقدما مطردا ، صار لزاما على جهاز التخطيط ان ينظر الى تلك (الحماية) من زاوية مقابلة ،هي في الحقيقة ، حماية تلك الحماية - ان جاز هذا التعبير - وهذا بالطبع ، يتطلب تشكيلا جديدا لجهاز التخطيط يتفق والمفهوم الحديث ، تتظافر فيه جهود الاختصاص والعلم والفن للحفاظ على ذلك التراث الشعبي والحضارى والانسانى في اطار من الخصائص الاقليمية المترابطة ترابطا عضويا مع الكيان البشرى .

ولابد ان نعترف اننا لسنا وحدنا نفتقر الى مثل ذلك الجهاز وهذا المفهوم الحديث بل ان « الحقيقة هي ان تخطيط القرن العشرين لا يزال مفتقرا الى « تصوير » جديد متعدد الابعاد للمدينة ، لاننا من ناحية لم نبحث ولم نفصل حقيقة قيم وواجبات واغراض المدينة الحديثة عن القيم المزيفة ذات الوجوه المتعددة ، وكما يبدو ، عن العمليات التلقائية التي تؤمل قوة او ربحا لاولئك الذين يروجونها »(١٤).

ويحدثنا ابن خلدون ، بعد ذلك ، عن قلة المدن والامصار بافريقيا والمغرب ، ويرى ان هذه الاقطار كانت للبربر وان الدول التى ملكتهم من الافرنجه والعرب لم يطل أمد ملكهم فيهم حتى ترسخ الحضارة فيها ، ويؤكد ان الصنائع من توابع الحضارة ، والمباني لا تتم الا بها اذ لا بد من الحذق في تعلمها ، غير ان هذه الصنائع بعيدة عن البربر لاعتدادهم بانسابهم ، وعصبيتهم التى تأبي لهم سكنى المدن لانها تذهب بالبسالة وكرم النفس(١٥) .

ان ابن خلدون في تحليله هذا لاسباب قلة المدن في افريقيا يربط بين

القطاع الصناعي في نشوء وازدهار المدينة وبين قطاع التخطيط وهو بعد ذلك اشارة الى العلاقة بين الاتجاه الاجتماعي والتخطيط العام .

وعندما ينتقل الى الحديث عن المباني والمصانع في الملة الاسلامية نجده يقرن العرب بالبربر للاسباب السابقة عينها ، ويضيف الى ذلك « ان الدين الاسلامي أول الامر كان مانعا من المغالاة في البنيان والاسراف فيه في غير قصد»(١٦) .

ولا بد لنا أن نقف عند هذا الرأي ، الذي لم تسنده مبررات ابن خلدون كما ينبغي . فمن الواضح تماما ، ان الدين الاسلامي في أول أمره ، بل في صلب تعاليمه يحارب المغالاة والاسراف في كل شيء ، ان لم نقل انه جاء ثورة على المغالاة والاسراف . فهو دين سمح بعيد عن التكلف والزخرفة في العمل والسلوك . كما انه ليس من السهل ان يكون هذا الدين المبكر الهادف الى الاصلاح والاستقامة عاملا على الانتقال المفاجيء ، من البساطة الى التعقيد الذي يفقد الاصالة ويتجافى والخصائص الطبيعية والاجتماعية والسياسية والاقتصادية والروحية للعرب المسلمين ، ولو كان الاسلام قد فعل خلاف ما فعل لكان قد أبدل طغيانا بطغيان ..!!

ولا يمكن ان ننسى ان الاسلام حد من أثر الصراع بين البداوة والحضارة دفعا للعصبية المقيتة ومنعا للكسب الحرام . كما انه حارب الاستغلال والرق والاكراه في العمل ، أي انه لم يسمح بسرقة جهد الانسان وطاقاته الفعالة للبناء العمراني الذى ألفناه في (الهياكل العظيمة) .!

ويعود ابن خلدون فيقول : « فلما بعد العهد بالدين والتحرج في مثل هذه المقاصد وغلبت طبيعة الملك والترف واستخدم العرب امة الفرس واخذوا عنهم الصنائع والمباني ودعتهم اليها احوال الدعة والترف فحيئذ شيدوا المباني والمصانع »(١٧) .

فابن خلدون يربط هنا وامكنة أخرى بين الخلق الديني ومناقضته للملك والترف وهما قوام العمران . والواقع ان الموضوع ابعد من هذا . فالبناء أصعب من التهديم ، بالطبع ، والتكامل الحضاري الانساني لا يقرره فرد ، او قوم معينون ، أو عقيدة معينة .. بل هو حصيلة تفاعل وتعامل بين دول وحضارات متفاوتة تتزاوج عضويا وموضوعيا لتعطي الشكل الاخير لهذا التكامل .. ما زال هذا العطاء داينميكيا متجاوبا .. فكما ان الافراد يتعاونون لاقامة حضارة ترتبط بزمان ومكان محدودين كذلك الامم تتعاون، رضيت أم لم ترض ، لاقامة حضارة انسانية متكاملة او ستتكامل . فحضارات الامم ، على هذا الاساس ، تلتقي هنا وهناك لتبني وتعمر وتقيم حضارة جديدة متنامية وهذا ما حصل فعلا حين استخدم العرب أمة الفرس التي لقحتها الثقافة اليونانية كذلك صحيح ان العرب انتفعوا من الفرس في فن الزخرفة والتعقيد في العمران ولكنهم جعلوا هذا النفع اساسا عادوا على تخطيطه الى خصائصهم الاصيلة ، ان لم يكونوا قد اغنوه ايحاء وفنا وجمالا

كان موضع التقييم في عالم الحضارة الانسانية .

نعود ثانية الى المسألة التى اثارها ابن خلدون في موضوع منع المغالاة وبعد العهد بالدين ، واثر ذلك في التخطيط العمراني . وقبل ان نبدي رأيا يحسن ان نستمع الى قوله في اسباب التطور العمراني وعوامل الخراب . فهو يرى ان تخطيط المدن والامصار يبدو اول الامر بسيطا في تصميمه ومواد بنائه ثم اذا كثر عدد السكان وعظم عمران المدينة كثرت الآلات وزاد عدد الصناع الى ان تبلغ غايتها(١٨) .

هذا رأي صحيح فالتركيز في استيطان السكان مع زيادة في العدد ، وتوفر الآلات كما وكيفا ، عاملان مهمان في التطور الحضاري .. ولكن هل كان هذان العاملان متوفرين كما ينبغي ، في عهد صدر الاسلام ؟

فالموضوع ، كما هو واضح ، ليس مسألة الاسلام وطبيعة الاسلام في منعه للمغالاة فحسب وانما ثمة اسباب لم تكن جاهزة فى صدر الاسلام هي كما يقول ابن خلدون نفسه ، التركيز في عدد السكان ، وتوفر الصنائع وهو فوق هذا وذاك طبيعة العرب الداخلين في الاسلام .

وفي كل حال فنحن ، اليوم ، ننظر الى رأي ابن خلدون في عبارته الاخيرة هذه ، باعتباره حقيقة نلمسها في هذا الوقت ، مع الاعتراف بتفاوت الزمان .. فها نحن نتفنن في التخطيط نتيجة للضغط الطبيعي بسبب زيادة عدد السكان مع اننا نملك الكفاءة الآلية العاملة ، ومع هذا فاننا نتعثر في هذا السبيل ذلك لان بعض الاختصاصيين يعملون في مجالات اختصاصهم المجردة دون ان يحسبوا للمستقبل حسابه من حيث الزخم المنتظر ، ذلك المستقبل الذى يحرجنا ازاء الاعداد الهائلة من السكان التي تطلب منا نحن الاختصاصيين ، كطرف في المسؤولية ، المزيد من وسائل الاستيطان .

ولعل مؤتمر ايلول الذى عقد في صيف عام ١٩٦٣ ، وكان لي شرف المشاركة فيه ، خير دليل على ادراك العلماء المعنيين في مختلف أمم العالم لهذه الظاهرة .. واذن فالزمن قد اختلف ، في بعض الامور ، عما كان في عهد ابن خلدون ، يوم كان الحفاظ على الاصالة والخصائص واشباع الحاجة أمرا ميسورا وطبيعيا ، الى حد ليس بالقليل ، ولكننا اليوم ، مع اعترافنا بالخطوط العامة التى رسمها ابن خلدون ، مدعوون ، ونحن في هذا الخضم الحضارى الجبار ان نطمئن الى موقع القدم بحيث تحسن التثبت والاستقرار خشية الزلل والانزلاق ، فنضحي بما يلزم الاعتزاز به من تراثنا المجيد في كل الميادين .. وهذا لا يعني ، مطلقا ، العودة الى الماضي والتغني بأمجاده ، بدافع من هوى عابر ، وانما يجب ان نتفهم الماضي ونعتصر منه جليل الخصائص الحضارية الانسانية لنبني الحاضر في ضوئه ، وعلى أسس المتطلبات الجديدة التى يفرضها الزمن الجديد دون تفريط واثم ..

ولا بد ، في هذا الشأن بالذات ، ان نكرر ما قلناه : ان التخطيط

الحديث لا يعني ، ابدا ، فتح الشوارع الواسعة المستقيمة ، او اقامة العمارات الصامتة المبرقعة ، على أسس من الذهنية الغربية المحضة ، أو وفق مفاهيم نظرية ، دون دراية وترو ، او تبعا لمشاهدة معجبة تخدع الابصار وانما الامر أبعد من ذلك بكثير · اذ من قال : ان علماء التخطيط الغربيين راضون عن ذلك التشويه والاجهاض ؟! فهذا البروفسور لويس ممفورد يقول عن الفكرة الضائعة عن المدينة : « ظهرت تدريجيا خلال الجيل الاخير كمية كبيرة من المؤلفات عن المدن ، كان اغلبها تحليلات اقتصادية واجتماعية في مجال محدود ، تبحث في مناحي مساعدة وسطحية عن حياة المدن · تفتقر أغلب هذه الدراسات تماما الى الادراك المعماري الراسخ والنظرة التاريخية »·(١٩) وهو ينصح المصمم في الاخير فيقول : « لو أراد أي من المصمم المعماري أو المخطط ان يؤدي عملا جيدا للمستقبل ، عليه ان يدرك القوى التاريخية التي حملت هذا الفشل الجوهري الى المدينة ، والضغوط المعاصرة التي أدت الى هذه العزلة والنفور »(٢٠) ·

ثم يتحدث ابن خلدون في الفصل الحادي عشر من الباب الرابع حديثا طريفا عن العلاقة بين العمران والعمل واثرهما في رفع الحالة الاقتصادية في المدينة ، وزيادة الدخل الفردي · وهو يرى ان توزيع العمل ، أو الاختصاص ـ في لغتنا اليوم ـ على اساس من التعاون الموضوعي ، أمر لابد منه للتكامل الاقتصادي ، ذلك لان « الواحد من البشر غير مستقل بتحصيل حاجاته من معاشه ، وانهم متعاونون جميعا في عمرانهم على ذلك والحاجة التي تحصل بتعاون طائفة منهم تسد ضرورة الاكثر من عددهم أضعافا»(٢١) وهذا التعاون في العمل ، يؤدي الى زيادة الفائض ، والفائض ، بالطبع ، يحمل أهل البلد على التصدير والمقايضة فتتسع اسباب الكسب ، ويعم الرخاء والرفاه والتأنق في المساكن والملابس وغير ذلك من اسباب الحياة السعيدة فيزداد العمران ويتطور « ومتى زاد العمران زادت الاعمال ثانية »(٢٢) وهكذا ، فهناك تفاعل عضوي بين العمل والعمران او بعبارة أخرى ، بين التقدم الاقتصادي والتطور الحضاري ·

واستنادا الى ما تقدم ، ينتقل ابن خلدون الى القول بأن « ما كان عمرانه من الامصار اكثر واوفر كان حال اهله في الترف ابلغ من حال المصر الذي دونه على وتيرة واحدة في الاصناف »(٢٣) ثم يضرب لذلك مثلا بفاس الواسعة الحال وبجاية ، وتلمسان ، وسبته ، السيئة الاحوال وهذا ما دفع أهل هذه المدن الثلاث الى الانتقال الى مصر ذلك « أن عمران مصر والقاهرة أكثر من عمران هذه الامصار »(٢٤) ·

ثم يربط ابن خلدون بين الرفاه الذي يسود المدينة كنتيجة لكثرة العمران من حيث الكم والكيف وانه يؤدي حتما الى الغلاء في الصنائع والاعمال خاصة ، ويرى ان السبب يرجع الى ثلاثة أمور : « الاول كثرة الحاجة لمكان الترف في المصر بكثرة عمرانه · والثاني اعتزاز أهل الاعمال

بخدمتهم ، وامتهان انفسهم لسهولة المعاش في المدينة بكثرة اقواتها . والثالث كثرة المترفين وكثرة حاجاتهم الى امتهان غيرهم والى استعمال الصناع في مهنهم فيبذلون لاهل الاعمال اكثر من قيمة اعمالهم مزاحمة ومنافسة في الاستئثار بها فيعتز العمال والصناع واهل الحرف وتغلو اعمالهم وتكثر نفقات اهل المصر في ذلك »(٢٥) .

كما أنه يضيف الى ذلك ، أثر المكوس والمغارم السلطانية وتلاعب الجباة لمصالحهم الشخصية . وهذا بالطبع يتحمله المستهلك الذى يشكل الغالبية ، لذلك اختلفت هذه الحال بالقياس لاهل البادية . وهذا التفاوت في الحالة الاقتصادية بين المدينة والبادية اضطر ابن البادية لان يتحرج في النزوح الى المدينة مكتفيا بالضرورات الاساسية في المعاش أما من حاول خلاف ذلك ، فانه جابه مشكلا اقتصاديا وعمرانيا ومعاشيا اذ انه وجد في المدينة ، ان الضرورات تجاوزت حد المعاش ، فما هو كمالي في البادية فانه صار ضرورة في المدينة ، فما أسرع ما يظهر عجزه ويفتضح في استيطانه .(٢٦)

ومن ذلك كله تظهر حقيقة لها اثرها في التخطيط الحضاري ، اذ ان التفنن في اتخاذ المعاقل والحصون ، واختطاط المدن ، وتشييد الامصار متوقف على اليسر ووفرة المال الفائض الذى يستخدم في مجال التخطيط العمراني كما كانت الحال في مصر والشام وعراق العجم والهند والصين ، بخلاف ما كان في قطر افريقية ، وبرقه ، لما خف سكانها وتناقص عمرانها . ولعل اوجز ما يوضح ذلك قول ابن خلدون ، « وكثرة العمران تفيد كثرة الكسب بكثرة الاعمال التي هي سببه »(٢٧) . وهذا ما يوضح لنا ، على الاقل ، فكرة تكوين المدينة من الاساس .

ثم يربط ابن خلدون بين الاعمال والعمران ويرى ان فقدان الاعمال رهن بانتقاص العمران في المدن والامصار « وهو على ما يساوره من كره نظري لانعم الحضارة يبدأ في الصفحات التي يتكلم فيها عن معرفة لصناعات زمانه بالغة في الدقة ما لا يذهب معه الى انه لم يشعر بفتونها »(٢٨) .

وبعد ان يستعرض وجوه المعاش يؤكد ان الفلاحة والصناعة والتجارة وحدة طبيعية للمعاش ويقول :

« .. أما الفلاحة فهي متفوقة عليها كلها بالذات اذ هي بسيطة وطبيعية فطرية لا تحتاج الى نظر ولا علم .. (كذا) .. وأما الصنائع فهي ثانيتها ومتأخرة عنها لانها مركبة وعلمية تصرف فيها الافكار والانظار ولهذا لا توجد غالبا الا في أهل الحضر الذى هو متأخر عن البدو وثان عنه »(٢٩) .

ولكنه ينظر الى التجارة نظرة المريب فهي تحيلات في الحصول على ما بين القيمتين في الشراء والبيع لتحصل فائدة الكسب من تلك الفضلة ، نجد انه يعود فيعدها مقبولة من الوجهة الشرعية . ولا بد ان نؤكد هنا من ان هذه الاعمال هى الاساس في تقويم المدينة قديما وحديثا من الوجهة الاقتصادية

والعمرانية والاجتماعية • وينبغي ان تنظر اليوم الى هذه الاعمال نظـرة تختلف تماما عن نظرة ابن خلدون ، أو عن نظرة معاصريه في الواقع ، فلم تعد الفلاحة فطرية لا تحتاج الى نظر ولا علم ، بل اصبحت موضع رعايـة العلم ونظر المسؤولين في وجوهها ومشاكلها ، ولكننا اليوم ، نعـاني ذات الظروف التي حدثنا عنها ابن خلدون ، ولهذا فنحن نواجه دراسات لا بد منها للنهوض بالمستوى الزراعي ودفعا للهجرة من الريف الى المدينة ، وما يترتب على ذلك من تبعات ثقال تؤثر في الريف والمدينة معا ، اقتصاديا ، واجتماعيا ، وعمرانيا •

اما الصناعة ، وهي الاساس في التركيب العمراني للمدينة فقد رأيناها من اختصاص اهل الحواضر ، اما البدو فكانوا يأنفون مسلكها وهذا من جملة الاسباب التي أدت الى عدم ظهور المدن كما ينبغي ، شمال افريقية• وهذا هو نفس ما يدور في أذهان ابناء القرى في بلدنا •• اذ انهم يترفعون عن امتهان صنعة من الصنائع ويأبون مصاهرة اربابها ، بل ويذهبون اكثر من ذلك فيعدون زراعة الخضروات وفلاحة بساتين النخيل والفواكه عـلى مستوى هذه المهن ، ولذلك نجدهم يقتصرون على زراعة الحنطة والشعير والرز • ولعل هذه النظرة هي التي جعلت سكان القرى في بلدنـا ، في مستوى معاشي واطيء ومن ثم تأخر اجتماعي واقتصادي • وقد انعكس هذا التأثير على المدينة كذلك بل على مرافق البلد بصورة اعم •• ونود بهذه المناسبة ان نلفت النظر الى ان اهمال الريف في بلدنا يحمل على الاعتقاد بضعف جهاز التخطيط حتما •

وفي فصل لاحق يرى ابن خلدون ان الصنائع في النوع الانساني كثيرة لكثرة الاعمال المتداولة في العمران فمنها ما هو ضروري في العمران ، كالفلاحة والبناء والخياطة والتجارة والحياكة ، ومنها ما هـو شـريف بالموضـوع كالتوليد والكتابة والوراقة والغناء والطب(٣٠) • ولابد لنا هنا من الاشارة الى ان ابن خلدون يعني بكلمة (العمران) معنى (الحضارة) في حين اننا نطلقها اليوم على معنى الاسكان(٣١) •

ثم يحدثنا عن هذه الصنائع فيكرر ما سبق ان قاله بشأن الفلاحة وانها مقصورة على البداوة ، واما البناء فهو أول صنائع العمران الحضري وأقدمها وهو أساس تكوين المدينة وهو مقصور على أهل المدينة باعتبار ان وجود البدو متقدم على وجود المدن والامصار واصل لها•(٣٢) ولعل مـن المفيد ان نستمع الى وصفه لحال المدينة الواحدة اذ يقول : « فمنهم من يتخذ القصور والمصانع العظيمة الساحة المشتملة على عدة الدور والبيوت والغرف الكبيرة لكثرة ولده وحشمه وعياله وتابعه ، ويؤسس جدرانهـا بالحجارة ويلحم بينها بالكلس ويعالي عليها بالاصبغة والجص ويبالغ في ذلك بالتنجيد والتنسيق اظهارا للبسطه بالعناية في شأن المأوى ويهيء مع ذلك الاسراب والمطامير لاختزان اقواته ، والاصطبلات لربط مقرباته

اذا كان من اهل الجنود وكثرة التابع والحاشية كالامراء ومن في معناهم . ومنهم من يبني الدويره والبيت لنفسه وسكنه وولده لا يبتغي ما وراء ذلك لقصور حاله عنه واقتصاره على الكن الطبيعي للبشر وبين ذلك مراتب غير منحصرة » .(٣٣)

ثم يمضي ابن خلدون في وصف أحوال البناء الاخرى من حيث تخطيطها ومواد بنائها وأشكالها والامر في كل هذا التفاوت متوقف على المهارة والقصور ، أو على السعة وضيق اليد . ثم يستعرض المشاكل التي تنجم من هذه الجيره المتلاحمة في البناء عندما يزداد العمران وتتسع رقعة المدينة ويزدحم السكان ، وهي في الواقع ذات المشاكل التي نلحظها اليوم في مدننا فيقول : « ان الناس في المدن لكثرة الازدحام والعمران يتشاحون حتى في الفضاء والهواء للاعلى والاسفل ، ومن الانتفاع بظاهر البناء مما يتوقع معه حصول الضرر في الحيطان ، فيمنع جاره من ذلك الا ما كان له فيه حق . ويختلفون أيضا في استحقاق الطرق والمنافذ والمياه الجارية والفضلات المسربة في القنوات وربما يدعي بعضهم حق بعض في حائطه او علوه أو قناته لتضايق الجدار أو يدعي بعضهم على جاره اختلال حائطه خشية سقوطه . ويحتاج الى الحكم عليه بهدمه ودفع ضرره عن جاره عند من يراه . أو يحتاج الىقسمة دار أو عرصة بين شريكين بحيث لا يقع معها فساد في الدار ولا اهمال لمنفعتها وامثال ذلك » .(٣٤)

وابن خلدون في كل هذا يعطينا بعد ذلك صورة تكاد تكون واضحة عن جهاز التخطيط ، بشكله الاوسع ، وانه المسؤول عن تخطيط المدينة من الوجهة الفنية وان قوة هذا الجهاز التخطيطي ومقدار استيعابه لعلم وفن التخطيط تختلف بحسب الزمان والمكان وبالقدر الذي تكون عليه الدولة من القوة والوهن . ولئن كانت الدولة تفتقر الى جهاز خبير فانها تستعين بالخبراء من دولة أخرى كما يحدث اليوم تماما فهو يقول : « ... ويخفي جميع ذلك الا على اهل البصر العارفين بالبناء وأحواله المستدلين عليها بالمعاقد والقمط ومراكز الخشب وميل الحيطان واعتدالها وقسم المساكن على نسبة أوضاعها ومنافعها وتسريب المياه في القنوات مجلوبة ومرفوعة ، بحيث لا تضر بما مرت عليه من البيوت والحيطان وغير ذلك ، فلهم بهذا كله البصر والخبرة التي ليست لغيرهم . وهم مع ذلك يختلفون بالجودة والقصور في الاجيال باعتبار الدول وقوتها . فانا قدمنا ان الصنائع وكمالها انما هو بكمال الحضارة وكثرتها بكثرة الطالب لها فلذلك عندما تكون الدولة بدوية في أول أمرها تفتقر في أمر البناء الى غير قطرها كما وقع للوليد بن عبدالملك حين اجمع على بناء مسجد المدينة والقدس ومسجده بالشام فبعث الى ملك الروم بالقسطنطينية ليرسل من الفعلة المهرة في البناء ، فبعث اليه منهم من حصل له غرضه من تلك المساجد » .(٣٥)

ويشير بعد ذلك الى ان صاحب هذه الصناعة ينبغي له ان يلم بأشياء

من الهندسة بخاصة في بناء (الاجرام العظيمة) وقبل ان نستعرض رأيه في الهندسة بشيء من الاسهاب ، نتابع ما يتحدث به عن صناعة النجارة . فهي ساذجة بسيطة عند اهل البدو ولا تعدو اتخاذ العمد والاوتاد لخيامهم والحدوج لظعائنهم والرماح والقسي والسهام لسلاحهم . اما اهل الحضر فالنجارة عنصر هام في تقويم العمران من حيث اعداد السقوف والابواب والمغاليق والكراسي . وقد تفننوا في تخطيطها وخرطها وتناسب اشكالها . وهذه الصناعة كما يرى ابن خلدون محتاجة الى اصل كبير من الهندسة في جميع اصنافها لان اخراج الصور من القسوة الى الفعل على وجـه الاحكام محتاج الى معرفة التناسب في المقادير اما عموما او خصوصا . وتناسب المقادير لابد فيه من الرجوع الى المهندس .(٣٦) ولذلك يعتبر عمل السفن عملا هندسيا محضا ويشير ابن خلدون الى ان ائمة الهندسة اليونانيين أئمة في هذه الصناعة مثل اوقليدس وابلونيوس وميلاوش وغيرهم .(٣٧)

وبعد ان يتحدث عن صناعة الحياكة والخياطة واثرهـا في الترف الحضاري ينتقل الى صناعة التوليد وهي خاصـة بالنساء وضرورية في العمران للنوع الانساني .

اما صناعة الطب فهي مهمة في المدن والامصار لحفظ الصحة ودفع الامراض . وان وقوع هذه الامراض من اهل الحضر والامصار اكثر لخصب عيشهم وكثرة مآكلهم وتنوع اغذيتهم وخلطها بالتوابل والبقول والفواكه الطرية واليابسة .

يضاف الى ذلك فساد الاهوية لازدحام المدينة بالبيوت والسكان وما ينشأ عن هذا من الابخرة والفضلات بخلاف اهل البدو .(٣٨)

يتحدث ابن خلدون في موضوع الهندسة واثرها في التخطيط فيبحث في الهندسة العامة وهندسة الاشكال الكروية والمخروطات وكذلك المساحة والانعكاسات الضوئية وهو يعتمد في كل ذلك على علماء يونانيين امثال : اوقليدس Euclide وثيودوسيوس Theodose وميلاوس Menelous وفي رأيه ان « هذا العلم هو النظر في المقادير اما المتصلة كالخط والسطح والجسم ، واما المنفصلة كالاعـداد فيمـا يعرض لهـا من العـوارض الذاتية » .(٣٩)

والهندسة كما يقول ابن خلدون تفيد صاحبها اضاءة في عقله واستقامة فكره لان براهينها كلها بينة الانتظام ، ثم يشير الى قيمة علم الهندسة وفضل المختص فيها فيقول : « وقد زعموا انه كان مكتوبا على باب افلاطون : من لم يكن مهندسا فلا يدخلن منزلنا . وكان شيوخنا رحمهم الله يقولون : ممارسة علم الهندسة للفكر بمثابة الصابون للثوب .(٤٠)

ومهما يكن مقدار صحة هـذا الزعم فان الهندسة كانت ذات اثر ملحوظ في التخطيط والتصميم وفائدتهـا تظهـر في الصنائع العملية التي موادها الاجسام مثل النجارة والبنـاء ، وكيف تصنع التماثيل الغريبـة

والهياكل النادرة وكيف يتحيل على جر الاثقال ونقل الهياكل ٠ «٤١»
وأخيرا يتحدث ابن خلدون عن علم (المناظر) كما يسميه هو أو ما نسميه الآن (الضوء) وهـو الآن من فروع الطبيعـة لا من فـروع الهندسة ٠«٤٢»

ويقول ابن خلدون بهذا الصدد « وهو علم يتبين به أسباب الغلط في الادراك البصري بمعرفة كيفية وقوعها بناء على ادراك البصر يكون بمخروط شعاعي رأسه يقطعه الباصر وقاعدته المرئي ثم يقع الغلط كثيرا من رؤية القريب كبيرا والبعيد صغيرا ، وكذا رؤية الاشباح الصغيرة تحت الماء ووراء الاجسام الشفافة كبيرة ورؤية النقط النازلة من المطر خطا مستقيما والشعلة دائرة وامثال ذلك ٠ فيتبين من هذا العلم أسباب ذلك وكيفياته بالبراهين الهندسية ٠ »«٤٣» ويحدثنا ابن خلدون في فصلين متتابعين مشيرا الى ان أهل المدن والامصار لم يكونوا ينتفعون من العقار والضياع انتفاعا ماديا ، وانما « القصد باقتناء الملك من العقار والضياع انما هو خشية على من يترك خلفه من الذرية الضعفاء ليكون مرباهم به ورزقهم فيه »«٤٣» هذا صحيح الى حد كبير حتى في وقتنا الحاضر ، وهو لاشك يشكل جزءا أساسا في التكوين العمراني والحضاري باعتباره الفكرة الاولى ، تقريبا ، التي تمخض عنها العقل البشري خلال أسلوب حياته المتطورة فهو الحافز لهذا التكوين واساس له ، غير ان ثمة أسبابا حددت من اتساع العقار وحاولت دون تطويره في ازمنة وامكنة معينة ٠٠٠ فاغلب المترفين ممن يطمح في زيادة العقار للتمويل ، أو في تعقيد العقار وتحسينه وتضحيته للسكن ، كانوا يخشون سطوة الحاكمين من الامراء والولاة الذين يغتصبون العقار ، اذا راق في اعينهم ، من اصحابه بأساليب ملتوية قد تكون حياة أصحابها ، في بعض الاحيان ، ثمنا للتمنع ٠٠

وابن خلدون يعالج هذا الامر معالجة اجتماعية وسيكولوجية واقعية فيقول : « ان الحضرى اذا عظم تحـوله (كذا) وأصـبح أغنى أهل المصر ورمقته العيون بذلك وانفسحت احواله في الترف والعوائد ، زاحم عليها الامراء وغصوا به ٠ وما في طباع البشر من العدوان ، تمتد اعينهم الى تملك ما بيده وينافسونه فيه٠٠ حتى يحصلوه ٠٠ فلابد حينئذ لصاحب المال والثروة الشهيرة في العمران من حامية تذود عنه ٠٠٠ وان لم يكن له ذلك اصبح نهبا بوجوه التحيلات وأسباب الحكام ٠ »«٤٤»

ولكن هذا الاتجاه من قبل المسؤولين عن الحكم مقرون بزمن له حدوده القديمة ، يوم كانت الدولة تكوينا غير متكامل ، ويوم كانت العلاقة بين الفرد والدولة فطرية غير معقدة لا تنتظمها حقوق مشروعة متقابلة ٠ الا اننا نجد ان هذا المفهوم قد تغير تماما عندما تركز كيان الدولة وتبلور مدلول السلطة وباتت المسؤولية أساسا للحكم والتشريع والتقنين ، وبرز حـق الانسان في التملك والعمـل والاختيار ، ضمن حقـوق المجتمع العامة ،

وفي اطار تشكيل الدولة العام ، ومن هذا المبدأ تصاعد النمو الحضاري . وعلى ذاك الاساس وجدنا ابن خلدون ، في فصل آخر ، يؤكد ان العمران البشري لابد لـه من سياسة ينتظم بها امره ، مشيرا الى تكوين الجهـاز التخطيطي بمفهومه الايجابي العام ، وبمدلولنا الحديث . ويرى ان الحكم اما ان يكون دينيا أو سياسيا وهو يميل الى الحكم الاول لانه يقضي بالحكمة والعدل ومراعاة المنافع في الدنيا والآخرة . اما السياسة المدنية كما ارادها افلاطون في (جمهوريته) والفارابي في (مدينته الفاضلة) فلا يميل اليها ابن خلدون ، كما يبدو من قوله ، لانها بعيدة الوقوع .(٤٥)

وابن خلدون هنا يذكرنا برأيه في كون الدين قوة للملك وأساســا للعدل والى هذا يشير (النيسابوري) كذلك فيقول : « قال (يشير الى انوشروان) وان قوام الملك انما هو بالدين فاذا ضعف الدين ضعف الملك (كـذا) فان العدل هو سبب عمارة المملـكة ، والجور سبب الخراب والبوار »(٤٦) غير اننا نجد في آراء ابن خلدون ما يناقض هذا الرأي فيما يتصل بالنمو العمراني ، في بعض الوجوه عندما حدثنا عن البعد عن الدين وأسباب الترف وأثر كل ذلك في النمو الحضاري .

وفي الختام قد يكون من التكرار ان أؤكد أهمية التفكير في تشكيل الجهاز التخطيطي في بلدنا والنظر الى مفهومه نظر دراية وخبرة واسعة والبعد عن الجمود والسلبية .

(*) ان اول من أشار الى علاقة بن خلدون في علم التخطيط من المهندسين هو الدكتور سابا شير في لجنة التخطيط لمؤتمر المهندسين العرب الثامن المنعقد في القاهرة عام ١٩٦٣ .

(١) « مستقبل المدينة » بقلم البروفسور لويس ممفورد محاضرات نشرت في مجلة Arch- Record

(٢) الدكتور علي عبد الواحد وافي ، مقدمة ابن خلدون (طبعة لجنة البيان العربي) ص ٨٢٩ .

(٣) المصدر السابق ص ٨٢٩ .

(٤) مقدمة ابن خلدون (طبعة لجنة البيان العربي) ص ٨٣٠ ــ ٨٣١ .

(٥) المصدر السابق ص ٨٣٣ .

(٦) المصدر السابق ص ٤٩٧ .

(٧) المصدر السابق ص ٨٣٧ .

(٨) الدكتور علي الوردي . منطق ابن خلدون ، في ضوء حضارته وشخصيته (طبعة ١٩٦٢) ص ٢٩٥ .

(٩) المصدر السابق ص ٢٧٩ .

(١٠) المصدر السابق ص ٢٧٨ .

(١١) مقدمة ابن خلدون (طبعة لجنة البيان العربي) ص ٨٣٧ .

(١٢) المصدر السابق ص ٨٣٨ ــ ٨٣٩ .

(١٣) المصدر السابق ص ٨٣٩ .

(١٤) « مستقبل المدينة » بقلم البروفسور لويس ممفورد .

(١٥) مقدمة ابن خلدون ، (طبعة لجنة البيان العربي) ص ٨٥٥ ــ ٨٥٦ .

(١٦) المصدر السابق ص ٨٥٧ ·
(١٧) المصدر السابق ص ٨٥٧ ·
(١٨) المصدر السابق ص ٨٥٨ ·
(١٩) « مستقبل المدينة » ·
(٢٠) المصدر نفسه ص ٥٢ ·
(٢١) مقدمة ابن خلدون (طبعة لجنة البيان العربي) ص ٨٥٩ ·
(٢٢) المصدر نفسه ص ٨٦٠ ·
(٢٣) المصدر نفسه ص ٨٦٠ ·
(٢٤) المصدر نفسه ص ٨٦٢ ·
(٢٥) المصدر السابق ص ٨٦٤ ·
(٢٦) المصدر السابق ص ٨٦٦ ـ ٨٦٧ ·
(٢٧) المصدر السابق ص ٨٦٨ ·
(٢٨) ابن خلدون « فلسفته الاجتماعية » غاستون بوتول ، ترجمة عادل زعيتر طبعة ١٩٥٥ دار احياء الكتب العربية ·
(٢٩) مقدمة ابن خلدون (طبعة لجنة البيان العربي) ص ٨٩٩ ·
(٣٠) مقدمة ابن خلدون (طبعة لجنة البيان العربي) ص ٩٣١ ·
(٣١) ابن خلدون « فلسفته الاجتماعية » غاستون بوتول · ترجمة عادل زعيتر طبعة سنة ١٩٥٥ ص ١٢٢ ·
(٣٢) المصدر نفسه ص ٤١٤ ·
(٣٣) المصدر السابق ص ٩٣٣ ·
(٣٤) المصدر السابق ص ٩٣٦ ·
(٣٥) المصدر السابق ص ٩٣٦ ·
(٣٦) المصدر السابق ٩٣٨ ·
(٣٧) المصدر السابق ص ٩٣٩ ·
(٣٨) المصدر السابق ص ٩٤٧ ـ ٩٤٨ ·
(٣٩) المصدر السابق ص ١٠٩٧ ·
(٤٠) المصدر السابق ص ١٠٩٨ ·
(٤١) المصدر السابق ص ١٠٩٩ ·
(٤٢) المصدر السابق هامش عبدالواحد وافي ص ١٠٩٩ ·
(٤٣) المصدر السابق ص ١٠٩٩ ـ ١١٠٠ ·
(٤٣) المصدر السابق ص ١٠٩٩ ـ ١١٠٠ ·
(٤٤) المصدر السابق ص ٨٧١ ·
(٤٥) المصدر السابق ص ٧١١ ·
(٤٦) السعادة والاسعاد في السيرة الانسانية · تأليف ابي الحسن ابن أبي ذر (محمد بن يوسف العامري النيسابوري) Wiesbaden 1958 ص ٢٠٧ ·

● ●

يقظة الفكر العربي المعاصر

(١)

ميلاد اليقظة

أنور الجندي

حقيقة لا مراء فيها ، تعطيها كل الدلائل ، ذلك ان العالم العربي قد دخل منذ سنوات قليلة في مرحلة جديدة من مراحل حياته ، وبالتالي ثقافته وفكره ، وانهى مرحلة طويلة امتدت قرنا وبعض قرن . ويمكن ان يطلق على هذه المرحلة المنتهية : مرحلة (البحث عن الشخصية) .

بدأت هذه المرحلة قبل ان تصل طلائع الاستعمار الغربي للوطن العربي عن ايمان اكيد من الاعماق ، بان وسيلة اليقظة والحياة والتجديد مستمدة اساسا من منابع فكرنا العربي الاسلامي المتجدد الثر القادر دائما على دفعنا الى البعث واليقظة والنهضة .

ومن هنا جاءت هذه اليقظة قبل الحملة الفرنسية بسنوات طوال بالدعوة الى صقل المنابع ، وكشف الزيف عنها ، واطلاقها من عقال التقليد واعطائها حقها من التجدد والتطور بالاجتهاد والاقتباس والاحياء للتراث . فلقد كان مفكرنا العربي الاسلامي دائما فكرا مفتوحا قادرا على الاخذ والعطاء ، له طابعه وملامحه ومقوماته الاساسية الايجابية التقدمية القادرة على تقبل تيارات الحضارة واعطائها والاخذ منها . وامتصاص خير ما فيها ، وهو فكر منطلق لم يتوقف خلال حياته الطويلة الا بقدر ما اضطرته الاحداث ، حتى اذا خلع نفسه منها عاد كرة اخرى على تهججه وقدرته وكفايته .

ولقد كانت أزمته قبل هذه اليقظة انه استسلم لسلطان عسكري قام خلال ثلاثمائة عام بين مراحل القوة والضعف ، بدأ هذا السلطان ١٥١٧م تقريبا بسيطرة العثمانيين على العالم العربي كله ، وانتهى ١٩١٨م تقريبا بهزيمة العثمانيين في الحرب العالمية الاولى وفي خلال هذه الفترة ضعف الفكر العربي الاسلامي ، وكاد أن يفقد مقوماته ومفاهيمه في ظل جمود لا حد له . ولم يبق من مصادر اليقظة الا الازهر والقرويين والزيتونة وبعض معاهد مكة والمدينة والنجف ودمشق وبغداد تشعل سراجا ضئيلا وتحافظ عليه ان ينطفىء (وهذه المرحلة جديرة بفصل خاص) فقد بدأ

العثمانيون أقوياء اشداء في مجال الحرب والقتال والحكم ، وقد أقاموا دولة ضخمة آوى اليها الفكر العربي الاسلامي وانتعش ثمة ، غير ان دورة التاريخ للعرب والمسلمين كانت قد أوفت على الف عام ، وكانت عوامل الضعف قد دبت في اجهزة الدولة ، وكان الانحراف الواضح عن مفاهيم الفكر الاسلامي العربي قد بدا واضحا ، بدا في صورة الانفصال بين الفكر والحياة ، وبين النظريات والتطبيق ، وكان هذا عاملا هاما من عوامل التخلف والانهيار ، فقد كان الفكر العربي الاسلامي المتجدد ، قادرا دائما على أن يجدد المجتمع ، ويرده عن الضعف ، ما فهمت قيمه على اساسها : عقل وقلب ، دين ودنيا ، مادة وروح ، واجتهاد في مواضع النظر الجديد، وقدرة على الحركة ، وايمان بالحياة والعمل ، واتصال بتطورها ، وتجديد للاسلحة وحفاظ على الثغور ، وكل هذا قد أصيب بالاضطراب في الفترة الاخيرة من هذه المرحلة ، فقد طغت القوة العسكرية العثمانية على القوة الفكرية العربية ، ثم استسلم الفكر لنفوذ السلطان فاغلق باب الاجتهاد ، وافتى العلماء للولاة الطغاة بما مكن لنفوذهم ،بينما لجأ هؤلاء الامراء والولاة الى حياة الترف والجمود والانفصال عن حياة المجتمع الانساني ، واغلقوا أبوابهم عن النهضات التي كانت تتجدد في الغرب .

غير ان هذه الفترة الطويلة لم تكن لتمر دون صوت يرتفع هنا او هناك يدعو الى اليقظة ، وابرز هذه الاصوات صوت محمد بن عبدالوهاب في الجزيرة العربية ، هذا الصوت الذى دعا الى المنابع الاولى للفكر الاسلامي العربي وتنقية هذا الفكر من زيوف التقليد والاضافات التى لم تكن أساسا من أصول هذا الفكر ، وفي مصر ظهرت قوة حضارية جديدة كان يمكن ان تحمل لواء الحضارة للعالم العربي لولا انها لم تعتمد اساسا على مقومات شعبية ، بل لعلها قد قضت على النفوذ الشعبي الذى تمثل في مقاومة نفوذ المماليك وسلطان الحملة الفرنسية ، وقد اسرعت هذه القوة التي قادها محمد علي الى ضرب قوة اخرى في العالم العربي كان من الخير الالتقاء بها لمقاومة النفوذ العثماني نفسه ، غير ان النفوذ الغربي الذى كان حفيا بان يقضي على كل قوة جديدة في المنطقة تمهيدا لتقسيمها والسيطرة عليها قد استطاع ضرب القوتين فازال منهما جميعا ، ولو أتيح لقوة الفكر المتجدد المنبعثة من الجزيرة العربية ان تلتقي بقوة الحضارة المنبعثة في مصر ان يلتقيا لبدأت اليقظة مبكرة ولحالت دون الاحتلال الغربي للمنطقة ، ولقد كانت الحملة الفرنسية التى قدمت القاهرة في الاعوام الاخيرة من القرن الثامن عشر علامة على ان انطلاقة الغرب الاستعمارية في مواجهة العالم العربي مواجهة مباشرة قد بدأت في تنفيذ مخططها الذي رسمته منذ انهت الحروب الصليبية بهزيمتها ، هذا المخطط الذي بدا في القرن الخامس عشر وامتد في القرن السادس عشر وما بعده الى

تطويق العالم الاسلامي باكتشاف طريق راس الرجاء الصالح والدوران حول افريقيا والوصول الى أطراف اسيا ٠

ويمكن أن يقال ان القرن التاسع عشر قد حفل بالحركة الى حد لا مثيل له وفيه ركز الاستعمار دعائمه ووضع يده على مصر والسودان والجزائر والجزيرة العربية ، وهو في نفس الوقت القرن الذى بدأت فيه شعلة اليقظة تعلو وترتفع ، هذه اليقظة التى بدأت فكرية من أجل تصفية فترة التخلف ، وتمثلت في حركة رفاعه الطهطاوي الباكرة في الثلاثينات من أجل الترجمة والاتصال بالفكر الغربي على قاعدة أساسية من الفكر العربي الاسلامي ٠ وقد امتدت هذه الحركة متمثلة في على مبارك ومحمود سامي البارودي ، حتى ظهر جمال الدين الافغاني في القاهرة ١٨٧١ فملأ الدنيا وشغل الناس ٠ واسس الحزب الوطني الاول وحركة مصر الفتاة ٠

واذا كان رفاعه الطهطاوي قد اتيح له وهو الازهري العربي المصري ان يتجه الى باريس وان يكون نافذة عربية للحضارة الغربية الجديدة فان هناك من اتجه الى باريس ايضا في نفس تلك السنوات من المغرب ، وقد كتب هؤلاء المغاربة انطاعاتهم ايضا ازاء الحضارة الجديدة ومن هنا كان لابد ان تراجع هذه الكتابات مع كتابات رفاعه التي سجلها في رحلته ٠

* * *

ولابد لكي نفهم (صورة العصر) في هذه الفترة ان نقول بأن الامة العربية كانت جزءا من الدولة العثمانية التى كانت تحكم في تركيا وتضم في قارة اسيا : الجزيرة العربية والشام بأجزائه والعراق وفي قارة افريقيا: مصر والسودان وليبيا وتونس والجزائر ٠

اما اليمن والمغرب فانهما لم يكونا تابعين للامبراطورية العثمانية ، اما في العالم الاسلامي فقد كانت بريطانيا قد اخذت في السيطرة على الهند عن طريق شركة الهند الشرقية ، التى تحولت في الستينات من القرن التاسع عشر الى احتلال بريطاني ، وكذلك فعلت هولندا في السيطرة على جزر الهند الشرقية ٠

ثم دخل العالم العربي في دور السيطرة والنفوذ الغربي بتوسع الامتيازات في الدولة العثمانية التى استطاعت بريطانيا وفرنسا ان تفرضها عن طريق السفراء والقناصل في الشام ومصر والعراق ، وعن طريق هذه الامتيازات توسع نطاق بعثات المرسلين والمبشرين القادمين من فرنسا وبريطانيا وامريكا ، وقد اخذوا في انشاء مدارسهم وجامعاتهم وتبع هذا ذلك الاثر الواضح في التربية التعليم والصحافة ، وقد بدأ هذا العمل الضخم في جزيرة مالطه ثم امتد الى بيروت والقاهرة ٠

وفي نفس الوقت اخذت فرنسا تسيطر على ما يواجهها عبر البحر الابيض المتوسط من افريقيا ، وكانت « الجزائر » نقطة الارتكاز التي

توسعت منها الى المغرب وتونس ، واذا كان القرن التاسع عشر قد حفل بالاحداث فقد كان أعظم تركيز للاحداث في المنطقة العربية .

ففي مصر استطاع النفوذ الاجنبي بالاتفاق مع الدولة العثمانية ان يقضي على القوة الجديدة الممثلة في الحركة التى قادها محمد على والتى توسعت الى الجزيرة العربية والشام والتى ايدتها فرنسا اولا ثم تخلت عنها وتضامنت مع الدول الغربية على مقاومتها في نفارين عندما تجمعت دول الغرب على سحق اسطول مصر العربي .

وكانت حركة محمد علي قد قضت على قوة الحركة الوهابية في الجزيرة العربية وبذلك خلت المنطقة في منتصف القرن التاسع عشر من كل حركة فكرية وحضارية ، وفي ظل حكم اسماعيل فيمصر تسلط الاستعمار وسيطر بقناة السويس والديون ، ومهد للاستعمار البريطاني الذي احتل مصر في عام ١٨٨٢ ومنه أمتد الى السودان .

وكانت حركات الصهيونية العالمية قد بدأت خطوها متخفيـــة وراء دعوة الماسونية ثم برزت بروتوكلات صهيون محددة اهداف خطة السيطرة على العالم العربي واحتلال فلسطين .

وما انتهى القرن حتى كانت الجزائر وتونس في قبضة فرنسا ومصر والسودان في قبضة بريطانيا وبقيت الشام والحجاز وليبيا تحت سيطرة الدولة العثمانية .

* * *

ولكن العالم العربي لم يستسلم فقد قاوم على جميع المستويات .

(١) بدأت الحركة السنوسية في الشمال الافريقي وامتدت الىافريقيا جميعا وحملت لواء الدعوة الى بناء الانسان العربي المسلم في مواجهـــة الاحداث ومقاومة الغزو ، وكان محمدعلى السنوسي جزائري الاصل وقد هزته احداث الاحتلال ودفعته الى العمل الكبير الذى كان له اثره الضخم

(٢) ظهرت المقاومة في تركيا والمطالبة بالاصلاح والدعوة الىالدستور فصدر الدستور ١٨٧٧ ثم سحب مرة أخرى .

(٣) ظهرت الحركة المهدية في السودان ١٨٧٠ لمقاومةالنفوذ الاجنبي وظهر من الدعاة والمجددين كثيرون : في اليمن والعراق .

وقد كانت الدعوات والحركات في هذه المرحلة ذات طابع ديني ، وهى مرحلة سابقة لمرحلة الحركات السياسية الصرفة التى بدأت في أواخر القرن التاسع عشر .

* * *

ثم بزغ نجم (جمال‌الدين الافغاني) الذى طوف بايران والهنـــد وتركيا واستقر في مصر (١٨٧١-١٨٧٩) حيث القى بذور الدعوة الى

مقاومة النفوذ الاجنبي والدستور والتحرر من التقليد والوحدة الاسلامية وظهرت اثار دعوته في مختلف الحركات الثائرة في العالم الاسلامي ومنها حركة ايران في المطالبة بالدستور ، والثورة العرابية في مصر .

وقد كانت دعوته علامة على اليقظة في مجال التحرية والحرية في مجال الكتابة والصحافة والكلمة ، ويعتبر (المفكر) جمال الدين الافغاني مقدمة لليقظة الفكرية التى انبعثت بعد موته فى صورة حركات التجديد والاجتهاد السلفية المستنيرة ، فهو الذى أوقد المشاعر ، وكانت الكلمة عنده عنوان القوة الروحية والفكرية .

وقد حمل لواء المقاومة التى بثها جمال الدين عن طريق الصحافة : ابراهيم اللقاني ، وعبدالله نديم ومحمد عبده ولفترة قليلة اديب اسحق وسليم عنجوري اللذان تحولا بعد ذهاب جمال الدين وبدأت المقاومة للنفوذ الاجنبي في مجلس النواب وكان ابرز قادتها عبدالسلام المويلحي ، ثم كانت الثورة العرابية احدي ثمار هذه اليقظة .

* * *

وهكذا كان القرن التاسع عشر حافلا برجال كثيرين دعوا الى التنوير واليقظة ، وقاوموا النفوذ الاجنبي والاستبداد ، قاوم عمر مكرم أبرز شخصية في اوائل القرن الحملة الفرنسية واستبداد محمدعلى ، ودعا رفاعة الطهطاوي الى الحرية وتعليم المرأة ، ونقل نصوصا من الدستور الفرنسي ، واضطهد من اجل ذلك ونفاه عباس الاول الى السودان ، ثم عاد فباشر عمله في ترجمة الآثار العلمية الرفيعة من الآداب الاوربية ، ولم يشترك في مرحلة الترجمة الفاسدة التى قام بها بعض المهاجرين الشاميين من بعد ، ويذكر في هذا المجال (الجبرتي) الذي سجل على محمدعلى اخطائه ، واستبداده ، ويذكر ايضا (حسن العطار) شيخ الازهر المجدد المتحرر الذى دعا الى دراسة الفكر الغربي ، والحضارة الغربية ، ونقل الصالح منهما ، وقد كان الازهر بؤرة اليقظة والثورة ، ومنه صدرت كلمة «الحرية» اول مرة ، و لاينسى دورة عام ١٧٩٥ حين دعا الشيخ الدرديري الامراء المماليك الى توقيع وثيقة حقوق الانسان العربية برفع يدهم عن الشعب ، وعدم فرض الضرائب الا بموافقة ممثلى الاهالى او الاستيلاء على اقوات الشعب .

ومن الازهر انبعثت المقاومة الجبارة للحملة الفرنسية ، في حملة الالف يوم الضخمة التي اضطرت الفرنسيين الى تصفية حملتهم على مصر ، ولقد كان الفكر العربي الاسلامي اساسا هو مصدر هذه الاتجاه الى التجديد والدعوة الى الحرية والنقل من الحضارة الغربية ، ولما انتهت الحملة الفرنسية قاوم الفكر العربي الاسلامي النفوذ الاجنبي الذى اختفى وراء الامتيازات الاجنبية التى اعطتها الدول العثمانية للقناصل الاجانب وكذلك

في الجزائر كان الفكر العربي الاسلامي من وراء المقاومة الحربية التي قادها الامير عبدالقادر سبعة عشر عاما ، كان ايمانه بالحرية التي تبعثها هذه القيم هو المصدر الاساسي للمقاومة ٠

واذا كان عمر مكرم من أبرز عوامل المقاومة للاستبداد والنفوذ الاجنبي في الثلاثينات فان جمال الدين الافغاني كان مثلا عاليا على هذه المقاومة في الثمانينات ٠ وقد ظل ارتباط النهضة الفكرية بالحركة الوطنية قائما ، واستطاع جمال الدين عن طريق الندوة والكلمة والقلم ان يوقظ النفوس وان يكون مدرسة وجيلا لم يصدق منه الا القليل ، وكان ذلك مقدمة للكفاح الثقافي والديني الذى حمل لواءه محمد عبده في مصر وكثير من تلاميذ جمال الدين في العالم العربي والذي امتد من بعد الى المغرب حتى أوفى على غايته في اوائل القرن العشرين ٠



كارثة العصر والانطباعية في الفن الحديث

بقلم

ديبداس شاترجي

ترجمة

محي الدين اسماعيل

يقول أوسكار وايلد : « ما زالت القديسة هيلانة في فجرها ابدا ، منذ أن شهدها أبناء فيرونا لاول مرة ٠٠ وان الحوريات الراقصات اللواتي أطلقهن كورو بين اشجار الحور الفضية في فرنسا ما زلن في غسقهن منذ ذلك الحين ٠

فالتمثال يتركز في لحظة واحدة من الكمال ، والصورة المصبوغة بالزيت على لوحة الكانفاه ليس فيها من العنصر الروحي القابل للنمو أو التطور شيء » ٠

ويستطرد وايلد فيقول : « ان الحركة ، وهي معضلة الفنون المرئية ، لا يمكن أن تتحقق الا في الادب ، وفي الادب وحده ٠٠ فالادب هو الذى يتيح للجسد انطلاقه السريع ، ويطلق الروح من قلقها ٠٠ »

هينا يدرك وايلد ادراكا غريزيا ذلك الصدع الخطير الذي تحتويه الفنون البلاستيكية ، وبذلك يكون وايلد قد سبق انشتاين ، ذلك لان هذه الفنون ما هي الا امتدادات في المكان ، وليس لها أي امتداد في الزمان ، فالبعد الرابع لم يدخل قط في حساب الفنانين الذين لا تتعرض لوحاتهم وتماثيلهم لسوى اللحظات واللحظات فحسب ٠٠٠ وليس شيئا هناك وراء هاتيك اللحظات ٠ وعبثا تتمنى أن تغير القديسة هيلانة من وقفتها تلك أقل تغيير ! وان رقصة حوريات كورو ما هي الا توزيق (أرابيسك) متجمد ! ولن يلتفت داود الذى صاغه أنجلو ، ليمسح عن جسده العرق ، بعد الرياضة العنيفة التى مارسها وفرغ منها توا !

ان التقييدات المفروضة فرضا على واسطة معينة من وسائط الفنون هي التى تفرض ، بطبيعتها ، العوائق الخطيرة على الفنانين ٠ وهكذا ، فقد مرت بالرسام قرون متطاولة ريثما فقه معنى حيلة ايحاء العمق في لوحة الكانفاه ذات البعدين ٠ أما تراجع المطوح ، وأما التقليص الامامي ، فان عمرهما لا يزيد أبدا على اربعة قرون ٠٠ وان جميع الصور ، حتى القرن الخامس عشر ، لا تنظر الا بشكل مسطح ٠ اذ أن الفنانين ما كانوا ليعلموا ما الذى ينبغي عليهم أن يفعلوه بالاشياء غير المسطحة ٠٠٠ أي الاجسام ٠

وعندما وضع الحل لهذه المعضلة ، بقيت هناك معضلة أخرى ، ينبغي أن تواجه ، هي معضلة السيطرة على البعد الرابع وتكييفه بنجاح • ومع استثنائنا المحتمل لبكاسو فان أحدا من الرسامين لم تسيطر على ذهنه سيطرة واعية فكرة الزمان • فمعظم الفنانين يقنعون بما هو كائن وبايحائه للآخرين والقلة القليلة منهم تعمل على ايحاء ما كان أو ما قد يكون •• حتى ليبدو أن الماضي والمستقبل هما بعدان يقعان خارج الفلك الذي يدور فيه هؤلاء الفنانون •

ومع ذلك ، فان هناك بعض الفنانين قد استطاعوا التعبير عن قوة ايحائية كبرى للماضي ، في حدود القيم الفراغية المحضة • فالتجاعيد على وجه رجل طاعن في السن ، في صورة من صور رامبرانت ، انما تقص علينا قصة حياة كاملة • أو لم يقل باتر عن موناليزا بـ « أنها أعرق من تلك الصخور التي تحبسها عنا » ؟

على أن الواقع ـ وهو نسق محض لا غير ••• انه « موديل » لا غير •• ـ فلا يمكن التعبير عنه تعبيرا وافيا في الرسم أو النحت • ومع ذلك ففي مقدورنا ان نشير الى امكانية تلخيص ملاحظات الفنانين •

فعندما يرسم بوسان منظرا من المناظر ، فان ذلك لا يمكن ان يتم بعدد يسير من ضربات الفرشاة ، بل هو عمل يتطلب انهماكا وتدقيقا هائلين وتفصيلات عديدة • واذا ما عرفنا بان المنظر ، أيا كان ، هو أبدا في تحول مستمر بين لحظة وأخرى ، ألفينا أنفسنا مرغمين على أن نستنتج بأن ما نراه على لوحة الكانفاه لبوسان ، لم يكن مكانا معينا ، في لحظة معينة، بل هو ما ينبغي ان يبدو للعيان في جميع اللحظات •

ان بوسان يقدم الينا بذلك صورة مثالية لما رآه خلال بضعة شهور ، ان لم نقل خلال بضعة سنين !

ههنا ، مرة أخرى ، يختلف الانطباعيون عن غيرهم • فمـا ان حلت نهاية القرن التاسع عشر ، حتى أشربت أرواح هؤلاء الفنانين بروح العلم المتسائل عن كل شيء ، والذي لا يقر شيئا من الاشياء بصورة نهائيـة مطلقة ••• بدأ هؤلاء الفنانون يرون ان الواقع لم يكن سوى أضغاث أحلام، وان بلوغه باطل من الاباطيل ، لذا فقد عكف ليوناردو دافنشي على رسم لوحته الخالدة موناليزا ، وكان وهو عاكف على رسمها يفكر في ابراز تلك الـ « موناليزا » الواقعية ، ووضعها على سطح الكانفاه ، طوال ثمانيـة أعوام •

على أن ليوناردو دافنشي كان قد نسي ، بأن المرء انما يتغير تغيرا كبيرا خلال ثمانية من الاعوام ، وما أولى المرأة بأن تتغير خلال هذه الاعوام !

فأية موناليزا هذه التي نراها على لوحة الكانفاه ؟ هل هي تلك التي كانت لحظة أن شرع دافنشي برسمها ، أم هي التي كانت يوم ان نفض

يديه من جلستها الخالدة آخر مرة ؟!

ان الانطباعيين منطقيون ·· منطقيون لاقصى حد · انهم يأخـــذون بالرأي الذي يذهب الى ان كل ما نتأمله ان هي الا انطباعاتنا عن الاشياء ، وليست هي الاشياء بذاتها · اذن ، فلتلتقط انطباعك عن شخص ما أو منظر ما ، ولتسرع لتسكبه على لوحة الكانفاه بأقصى ما تستطيع من سرعة · ذلك لان التريث سيفقدك حدة الرؤيا ، اذ أن التريث سيدفع بك الى الاعتماد على الذاكـرة الخؤون التي قـد تستبيح لـك مـن التحويرات مـا لا ينبغي ان يستباح !

ويمكننا تطوير هذه الحجة فنقول : ان الانطباعية تقدم لنا نظرة جد سطحية عن الاشياء · ولكن مهما يكن من شيء فانها ـ أي الانطباعيـة ـ تؤلف مذهبا سليما ، عندما نعمد الى التمييز بين الظواهر والواقع ·

ويذهب الانطباعيون الى انه ليست هناك من هوة تفصل ما بين الظاهر والواقع · فالظاهر هو الواقع ، وأنه لا يجدينا أن نكون تحليليين سمجين غلاظ الوجدان · فالحق عميق كعمق الجمال ·

ومع أن هنـاك بعض اللمسات الانطباعيـة في أعمـال « ويسلر » و « كونستابل » و « ترنر » الا ان الانطباعية من حيث هي مذهب متكامل ، لم تولد الا في غضون القرن التاسع عشر في فرنسا ، وانه لمن العسير حقا أن تحدد التواريخ · بيد أننا نخطيء لو أننا ذهبنا الى أن « مدرسة باربزون » للرسم والتي تزعمها « كورو » هي التي اطلقت هذه الثورة ، فان هـؤلاء جميعا قد حاولوا الغاء فن المتاحف ، وعملوا الى جعل فن الرسم « فنا في الهواء الطلق » ـ بقدر ما يستطيعون ـ ·

وان سياسة العودة الى الطبيعة ، والتي قام بها فنانو « باربزون » كانت ذات مشاكل ومعضلات عسيرة الحل وكثيرة جدا ، على أن محاسنها لم تكن تدرك في حينها ، وذلك لسبب واحد ، هو ان هؤلاء الفنانين لم يكونوا قد تعلموا بعد حقيقة معنى « تكنيك » القذف بأنفسهم في أحضان الطبيعـة بصورة كاملة · فالمشهد بنظرهم هو « حالة من حالات الواقع » · وعليك أن تنتظر تلك اللحظة الدقيقة التي تتمكن خلالها ان تقع رؤياك ـ كما هي ـ على اللوحة · ولقد قال « كورو » في كلمة مأثورة له : « أنا لا أبحث ، ولكن أستلقي وأنظر » وهي ، في الحق ، كلمة تفصح عن تلك الروح التي تشيع في آثار فناني « مدرسة باربزون » ·

وهناك رائدان آخران من رواد الانطباعية ، هما « كوربيه » و « مانيت » فلوحة الاول وهي تلك اللوحة المتألقة وعنوانها « فتيات على شاطيء السين » قد أقنعت انطباعيي المستقبل على أن هناك أمورا كثيرة يمكن ان نتعلمها في الهواء الطلق · أما لوحة « مانيت » الشهيرة « غداء على العشب » فكانت بمثابة صواة أخرى من الصوى على الطريق · فان ما هو أهم من الاشخاص

في هذه اللوحة الخالدة ، هو ذلك الجو الشفيف الذى يرين على الاشخاص أنفسهم ".

ولم تكن تلك التجارب التى قام بها « كوربيه » و « مانيت » ناجحة كل النجاح ، ذلك لان « تكنيك » الاستوديوهات قد اختلط مع « تكنيك » الهواء الطلق .

على أن الانطباعية ، بمعناها الاصيل ، فقد ولدت بمجيء « كلود مونيه» الذى حرر فن الرسم من أجواء الاستوديو الخانقة . ففي رسوم « مونيه » تجد « النور » لا « التألق » ... ذلك هو طوفان ملمع ينسكب دوتما وناء على جميع الموجودات المرئية ... ليست هناك حزمة ضوئية متلصصة تشق طريقها خلال الظلمة المسبلة أستارها هناك .

ولكي يكون بوسع « مونيه» ان يعيد الاثر الكامل لمشـرق الشمس الملتمع ، فقد عمد الى وضع نظرية جديدة في الالوان ، وأقلع عن استخدام الالوان المزيجة ، فلقد استخدم في لوحاته ألوان الطيف الشمسى وحدها ، وهي الالوان السبعة في قوس قزح .

واذ حاول الانطباعيون القبض على ناصية تراقص الالوان ، اكتشفوا أمرا خطيرا آخر ؛ فقد ألفوا ان الظلال ليست سوداء اللون ، بل هي ألوان « مغمورة » . وان تحليل « روجير فراى » لقطعة « بازيل » التى عنوانهـا « لقاء الاسرة » يمكن ان يقدم لك فكرة عما نقول :

« ان هناك لوحة في لكسمبورغ ، تظهر لنا أسرة جالسة في شرفـة الحديقة ، في أمسية من أماسي الصيف . لاحظ هنا الاضواء البنفسجيـة الملقاة على حفافي الشخوص والهابطة من تلك السماء الزرقاء ، من وراء اللون الكهرماني لاشعة الشمس المباشرة ، وتلك البرتقالات الذهبية التى كونهـا انعكاس النور على حصى الممرات .. هنا ـ وفي الجوهر ـ مستوى جديد من الالوان تستطيع الحركة الانطباعية استغلاله » .

ولقد مشى « مونيه » شوطا كبيرا في تجاربه البصرية ، اذ كان مولعا الى أقصى حد في هذه التجارب . وان « فسيفساء الالوان » قد أصبح عنده الغاية والهدف . ولم يعد لديه أى تصميم شكلي او تركيب .

ثم نعود مرة أخرى الى ملاحظة « فراى » عـلى اللوحـات الجداريـة « لوحات الجدار » التى وضعها « مونيه » في « أورانجيرى » بباريس ؛ اذ يقول :

« فعندما تتابع العين يد الرسام ، تتنقل هناك من الصباح الى المساء ، وأخيرا الى المغرب ، وبذلك تتأثر بالخيالات غير المحدودة ، شأننا في ذلـك كشأننا ازاء أي منظر طبيعي حقيقي ، نستطيع ان نصوب فيه النظر أنى شئنا » .

ولقد أصلح هذا الخطأ الذى وقع فيه « مونيه » اصلاحا جزئيا كل من

« بيسارو » و « سسلي » اللذين لم يبتعدا عن رسومهما كثيرا ، بالرغم من أن آثارهما لم تكن آثارا ذاتية محضة • اذ مما لا ريب فيه ، ان كل فنان انما يفسر الطبيعة بحسب ما تمليه عليه شخصيته •• وبذلك يستشعر الالتحام برسومه • وهذا ما نعتقده عند «مونيه» •

وبظهور « ديغاس » و « سيزان » ظهر تطور ممتع آخر ، اذ ان الانطباعية ، في أول الامر ، لم تأخذ شكل مغامرات في نظرية الالوان ، ذلك لان الانطباعية نظرة غير عادية للاشياء •• نظرة الى راقصات الباليه في مكان ما على خشبة المسرح ••• نظرة الى اولئك الذين يتسكعون عبر رؤيا الفنان ••• نظرة الى الممثلات من خلال ثقوب الباب ، وهن يستحممن في أحواض الاستحمام •

ان « ديغاس » لم يكن مولعا بالجمال قط ، بل انه مولع بالحياة من حيث هي مشهد متحول • وان عينيه العجيبتين قد تمكنتا من رؤية هذا المشهد • أما يداه فقد استطاعتا الاحتفاظ بالانطباعات التي كان قد شهدها •

ومع ان « رينوار » قد حافظ على نظرية الالوان عند الانطباعيين ، وهي تلك النظرية المغامرة ، غير ان « سيزان » قد وضع حدا للاستزادة من هاتيك المغامرات • وكان الوقت قد ازف لان تتغلغل الانطباعية في الاتجاه العام لفن الرسم الاوربي ، اذ أعلن « سيزان » عن رغبته في أن تكون الانطباعية « حركة وطيدة ذات وشائج وارتباطات » ، كما هو الشأن في فن الاساتيذ القدامى •

ففي رسوم « سيزان » ، كما في رسوم عامة الانطباعيين الآخرين ، تكون الالوان هي مفتاح القضية ، ومع ذلك فان هناك فارقا جوهريا ، ذلك أن « سيزان » لا يرغب اطلاقا في أن يحيط عالمه بالاف من أقواس قزح • فهو لا يؤمن أبدا بعالم الجنيات •• فالتلال الجرداء ، والاشجار العارية ، والاكواخ المتواضعة في قرى مقاطعة « بروفانس » هي كل مادته •• ولكن أية كشوف باهرة هنا ، وأي اتحاد في الرؤيا ، بل أية وحدة في الهدف ؟

لقد كان شعار « سيزان » هو : « ليتني أدرك » • وان فنه كان ادراكا ، أي انه كان يضع على لوحة الكانفاه ، ما كان يبحث عنه ، وما قد وجده • وان تكريس جهود « سيزان » لفنه واصراره الذي لم يتراجع عنه ، وعدم اكتراثه بتحقيق النجاح ، كل ذلك كان درسا ايجابيا لاولئك الذين يظنون أن الفن ما هو الا تزجية أوقات الفراغ عند أناس أصابهم المس •

ومن العسير جدا ان نحدد مدى النجاح الذي استطاع ان يحققه من اجل « بلوغ الواقع » من وراء تلك الظواهر •

ومهما يكن من شيء فانه هو وحده من بين جميع مواكب الانطباعيين ، قد بلغ مسعاه •

بيد ان هناك فئة من النقاد ترى ان الانطباعية قد اندثرت ، وان المذاهب

الاخرى قد استطاعت ان تجهز عليها . وهذه الفئة محقة ، ولكنها محقة جزئيا في هذا القول . فالفن في القرن العشرين قد تحول تحولا جذريا ، بحيث لا يسعنا ، بعد اليوم ، ان نتوقع بقاء القيم العتيقة او حتى تطورها . فالتكعيبية تتعامل مع الابعاد الباطنية للاشياء ، ومع تركيبها الاساسي . واما السريالية فقد أضاعت نفسها في عالم الفرويدية واللاوعي .

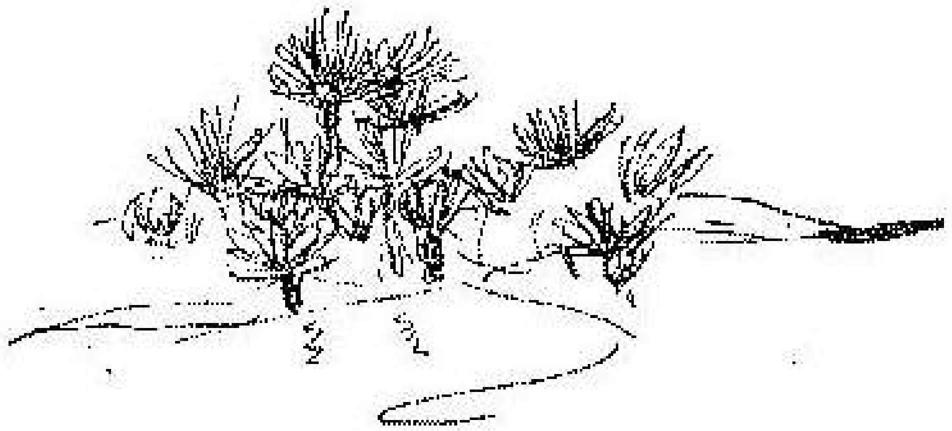
هذا وان الطبيعة قد « طبعت » ، فغدا الفن ، بعد هذا فنا بربريا وحشيا قاسي الملامح غير قابل للتوفيق .

فما نساء « بيكاسو » الا هياكل عظمية نخرة تستلقى على شــاطىء أوقيانوس أزرق ، و « ايزولد » التى رسمها « سلفادور دالى » تجر عربتها انى ذهبت ، وان حبيبها « تريستان » رجل شائه مسلوخ من جلده !

وهكذا فالفن لا مناص من أن يكون بهذا الشكل في عصر قصمت ظهره الكوارث والفواجع . فلا جرم ان تطفو على السطح هذه المرارة . فان أعظم قطعة رائعة في العصر الحديث هي قطعة « غرنيكا » (هي اللوحة الشهيرة لبيكاسو عن الحرب الاهلية الاسبانية .م. !)

كل ذلك حق ، لا مراء فيه ، ولكني أحس بأن هذه « البشاعة » المتناهية في الفن لا يمكن ان تستمر الى الابد . فان هناك بشائر تشير الى اضرام نار الثورة على هذه الفوضى والعماء . ولعل العودة الى « الجمال » قريبة وشيكة الوقوع . فان رقة الازاهير الناعمة في رسوم « ماتيس » على الجدران ، وجمال الالوان في السحب القاصفة في رسوم « الفلامنيك » والرقة الملحوظة في نقوش « السيراميك » الاخيرة لبيكاسو . كل هاتيك انما تشير بوضوح الى بزوغ الفجر الجديد . ولكن عندما يبزغ نور ذلك الفجر ، فان الدروس التى القاها الانطباعيون سوف لن تهمل أو تلقى في طوايا النسيان . بل ان الفن سيتسلق الذرا على أجنحة قوس قزح مرة أخرى ويرتفع .

« القاهرة »



النبي العربي الكريم

الياس قنصل

كيف نظمت القصيدة :

قرأت لأحد الكتاب مقالة ، فاذا هي التحامل الكافر على الامة العربية ، والتلميح الفاجر الى جمودها لتمسكها بالقرآن الكريم ٠

وكررت الى التاريخ ، مرة جديدة ، أراجع سيرة النبي الهاشمي ، فاذا بي ، مرة جديدة ، أمام دنيا من الاخلاق السامية والمواقف الجبارة ، خططت للعالمين صراط الحق والهدى والعدالة الاجتماعية الصحيحة التي يبحث عنها الناس ويسفكون ، بين الفترة والفترة ، لتركيزها ، دماءهم ٠

واستعرضت اعمال الذين يدعون انهم يريدون ان يقودوا العالم الى رياض السلام والطمأنينة ، فلم أجد الا اظافرهم تمزق المقدسات الانسانية والا الكذب والخداع فيما يبدون وفيما يكتمون ٠ فخف استغرابي لتحامل الكاتب وتضليله : هو مندوبهم ، هو المدافع عن منكراتهم ٠

ورأيتني اتقدم الى الرد عليه بسلسلة من المقالات كشفت نياته ، وفضحت ترهاته ، وجعلته من القوم الخاسرين ٠

ثم أندفع الى جلاء الشعور الذي ساورني ، وأنا أمعن في استقصاء البطولات التي ظهرت في أمتي ــ وفرعها في السماء ــ فكانت قصيدتي هذه٠

أنا لم أطالع في سيرة الرسول ، حياة نبي دعا الناس الى عبادةالواحد القهار ، فحسب ، وانما طالعت فيها ــ الى ذلك ــ استعراضا لوقائع العزة والكرامة ، وصورا عما تستطيع امتنا ان تأتيه من الفعال ، لو عمدت الى الاخلاق العربية ، فجعلت منها النور الذي يهديها سواء السبيل ٠

ان التراث الذي تركه لنا اسلامنا لم نقدر على تبديده ــ مع تبذيرنا المؤسف ــ فهو من العظمة والجلال بحيث لا تنفد طرائفه ٠

فهل نظل على هذا النهج سائرين ، أم تكون لنا عودة الى ارتشاف جرعات العزيمة والاقدام من مناهلنا القومية ، فنضيف الى سجل الشرف العربي القديم صفحات جديدة من الشرف العربي الحديث ؟

ما ذا تهم طوارق الحدثان ... خلق الجهاد لكل ذي وجدان
الحق شرعك ، فامض فيه مؤملا ... ما آب غير البطل بالخذلان
عميت نفوس الناس من أهوائها ... فأعد جمال النور للعميان
لا فرق بين ملفق بضلاله ... وملفق بنواجع الاكفان
كم صرخة خنقت أضاليل النهى ... وقضت على الاوهام والطغيان
ظن الذين توعدتهم ، انها ... ضرب من الوسواس والهذيان
فتجمعوا لنزالها ، وقلوبهم ... بالشر نابضة ، وبالاضغان
فاذا بهم ، وبما اعدوا من أذى ... ورق يواجه ثورة البركان

* ** *

ان كنت بين المعجبين بصفحه ... وشى زخارفها بنو اليونان
فبأي تقدير تقابل نهضة ... محقت رسيس الشرك والكفران ؟
من عبسة البيداء سال غمامها ... فروى بعذب العدل كل مكان
يحبو الحياة لمن أباها ، عنوة ... ولمن أراد ، برأفة وحنان
هي نهضة فتحت وجودا لم تكن ... حسناته ، في لوحة الحسبان

* ** *

اني ذكرتك يا محمد ، مصغياً ... لحديث عم ناصح حيران
يغريك بالذهب الوفير ، وكم عنت ... « للفلس » من مهج ومن اذهان
ان كنت تبغي ان تكون مسودا ... جاءت اليك سيادة الاقران
ومحا جوابك ، والوقار غلافه ، ... ريبا أثارت عاصف النكران :
ما المال ، حين تقيسه برسالة ... علوية ؟ ما المجد ؟ ما القمران ؟
مثل من الخلق الجليل تركته ... درسا لكل مناضل متفان

* ** *

اني ذكرتك يا محمد ، والعدى ... يتألبون تألب الذؤبان
ضربت على أبصارهم وقلوبهم ... ليل الفساد أصابع الشيطان
ويقض تالد جهلهم وغرورهم ... صوت يفتح مغلق الآذان
فيلاحقونك بالتراب وبالحصى ... وبكل وغد حانق شنآن
وتظل تدعو ، لا تني لك همة ... حتى يتم النصر للديان
فرأيت معجزة العزيمة والرجا : ... دنيا .. تذل لقوة الايمان

* ** *

اني ذكرتك يا محمد ، مسدياً ... نعم الخطاب الى ذوي السلطان

تملي على التيجان وحيك ، ناصحا / بالرشد والاصغاء والاذعان
لم يسمعوا قبل انتبارك لهجة / الا وفيها حطة العبدان
اين السلاح ؟ واين اين جيوشه ؟ / خوض الوغى وقف على الفرسان
واستكبروا مستهزئين بدعوة / لا تحتمي بمهند وسنان
ويدور دولاب الزمان ، مهيئا / عبر الدهور ! ويلتقي الجيشان :
جيش يحارب للسماء ، وآخر / كثرت ذخائره لشيء فان
فتهل من افق الكفاح خوارق / ليست خوارق غارة وطعان :
كسرى يمرغ بالمذلة راسه / واذل منه عواهل الرومان
والحاكمون المعجبون بظلمهم / في كل ناحية ، بلا أعوان
والنصر في كف العروبة راية / بالعدل خافقة وبالعرفان

* ** *

اني ذكرتك يا محمد ، ناشراً / روح الاخوة في بني الانسان
يعلو « بلال » العبد اشرف قبة / ليذيع منها اشرف الالحان
حق المراتب ان يقدر أهلها / لا فرق في الاجناس والالوان
والحكم للاعمال : فاسع بغيرة / ترجح بفضلك كفة الميزان

* ** *

اني ذكرتك يا رسول ، مقابلا / اسراك : أسرى الشك والعصيان
لم يظفروا بك مثلما رغبوا ، ولو / ظفروا لجد الحقد بالغليان
وظفرت انت ، فلم تشأ تجريحهم / أو رميهم بمعرة وهوان
ما كان صفحك صفح واه خائف / بل كان صفح القادر المحسان
بعث الرميم عجيبة ، ما مثلها / الا نبالة ذلك الغفران

* ** *

ما ذا اعدد من مناقب ، كلها / شرف ، أعد النجم في امكاني ؟
من ذا يضم بكفه بحرا له / أفق تزيغ لبعده العينان ؟
كانت حياتك : كل ثانية لها / تاريخ مجد طائل نوراني

* ** *

عالجت بالحسنى ، ومذ شمخ العدى / بمحالهم ، عالجت بالمران
ما كل نفس بالحقيقة تهتدي / بعض النفوس تقاد بالارسان
يجني الطبيب اذا رثى لمريضه / كم جر زور العطف من خسران
واذا بنيت على أساس عاطل / ظهر البناء مزعزع الاركان
كانت قلوب الكافرين مخابئا / للجهل والشهوات والعدوان
فهدمتها وامنت من عثراتها / ضاع الرجاء بعابد الاوثان

وبنيت أعظم دولة نشرت على ... قاصي الوجود صلاحها ، والداني
ان غاب بعض روائها ، فلأننا ... نحن المصادر – لا الزمان الجاني
لم نمتثل لك بالفعال ، ولم نلذ ... بهداك يوم تحامل القرحان
فتخاذلت أخلاقنا ، وأصابنا ... ما لا يقاس بمعضل السرطان
يا للعروبة ! هل تفوز بقائد ... يدعو ، فتسمع نخبة الفتيان ؟
فيقد اوصال القيود حسامه ... ويسل روح العابث الخوان
ويعيد للوطن العزيز كرامة ... كادت تكون قسيمة النسيان ؟

* ** *

هي نهضة ، لولا كريم وجودها ... ظل الخلود يعاب بالنقصان
في ظلمها ، ظلم لكل عقيدة ... بالصدق سامية وبالاحسان
ان كان منا غامطون ، فكلهم ... من غمرة الاغراض في بحران
عاداتهم هذي ، وليس بنافع ... ان تستعين بحجة وبيان
جفت محابرهم بنقي جهادنا ... وعلى جوانبه النجيع القاني
من حمأة الاوهام فكرتهم ، فلا ... تعجب لما فيها من الزيغان
من كان في جحر الافاعي ناشئا ... غلبت عليه طبائع الثعبان
نظروا الى الاسلام اعمق نظرة ... وتدارسوه تدارس الامعان
فرأوه يدعو للاباء ، مهددا ... بالنار كل مذبذب وجبان
ويشل اسباب الخنوع ، مزلزلا ... ما فيه من اس ومن جدران
فتخوفوا إصغاءنا لمسلامة ... وملامسه تحريك شعب وان
ما يهدمون ، وليس في لهواتهم ... الا لهيب الافك والبهتان ؟
ما يهدمون بغيهم وبحمقهم ... أتؤثر الهمسات بالصوان ؟
ما يهدمون وقد كسا آراءهم ... داء السياسة أخبث الادران ؟
ما يهدمون ، وللجحيم جهودهم ... ما يهدمون ولطف ربك بان ؟

* ** *

يا من يثير حماستي بكماله ... عذرا اذا شاهدت ضعف بياني
هي باقة ، تهدى اليك ، زهورها ... من خير ما يزهو به بستاني
فاذا اعد الحاسدون أظافرا ... عانيت كامن حقدها ، واعاني
فليغنموا صبري ، فاني مغمض ... عن شرهم وصغارهم اجفاني
وليسمعوا فصل الخطاب ، فليس في ... سري سوى ما جال في اعلاني
ما ابعد الايذاء والتلفيق عن ... حر كريم من بني غسان
تأبى عداء الاقربين عروبتي ... ويعف عن لغو الكلام لساني

ابن سينا والعلق الطبي

الدكتور فيصل دبدوب .

زرت أحد الاصدقاء ممن يعنون بالتراث العربي ، وتشعب بنا الحديث، وكان مسك ختامه الطب العربي ، فذكر لي بانه شاهد ذات مرة أحد مشاهير الاطباء في طب العيون ببغداد قد علق علقة لمريضة مصابة بآفة في عينها ، فاخذ منه العجب مأخذه وأدهشه هذا المنظر وبهره ، ذلك لان استعمال العلق في نظره قد بطل واصبح من مخلفات الطب القديم ، ورجاني أن اسلط اضواء الطب الحديث على استطبابات العلق الطبي Hirudo عند العرب قديما ، وان ارجع الى تراثنا الضخم في المادة الطبية فادرسه دراسة علمية مستفيضة لاستخلص منه واستنبط ما ينطبق والطب الحديث ، ولا شير كذلك الى ما أسداه الطب العربى الى الطب الحديث من سبق علمي وابتكار طبي ، فوعدته وافترقنا .

مضى على هذا الحديث فترة من الزمن ولم يخطر لي على بال أن اكتب في هذا الموضوع الى ان حدث ما دعاني أن أحرر مقالة عن « السكتة القلبية» فرجعت الى المصادر المختلفة أبحث واستقصي ، فجرني البحث والاستقصاء الى مادة « الهيرودين »Hirudine ذات الاثر الفعال في علاج الخثرة الدموية المسببة للسكتة والتي تستحصل من العلق . هنا تذكرت وعدي لذلك الصديق وعدت أنقب وابحث عن كل ما له صلة بالعلق من وجهة النظر العلمية قديما وحديثا فكان هذا المقال الذى اقدمه للقاريء الكريم لاريه الى أي درجة من الاصالة والسبق ، والابتكار والعمق قد وصل الطب العربي الذى هو مفخرة من مفاخرنا وكنز من كنوز اجدادنا .

ان وصف العلق والتطرق الى تشريحه لما يستلزمه البحث العلمي ، لذا سأتناول ذلك واسرده بشكل يجمع بين الوضوح والايجاز لئلا يدخل الملل الى نفس القاريء من التطويل أو يخل الاقتضاب بالاشراف والوضوح .

يعيش العلق الطبي ايها القاريء عادة في البرك والمستنقعات ومجاري المياه البطيئة ، ويتطفل على الحيوانات الفقارية سواء منها التي تعيش في الماء كالاسماك والضفادع او التي تزور الماء من وقت الى اخر مثل الجاموس والخيول والانسان . اما نسب العلق الطبي فيرجع الى قبيلة الحلقيات أي (شعبة الديدان الحلقية) Phylumanneli

ان هذا الحيوان دودي الشكل ومفلطح قليلا بحيث يبدو انه احدى الديدان المفلطحة ولكنه يتميز بان جسمه مقسم الى حلقات متتابعة شأن كل الحيوانات الحلقية ، وهو ذو ظهر محدب قليلا ، ويتراوح طوله بين (٦-١٠سم) ولكن له قدرة عظيمة على الانقباض والامتداد ، وله ممصان (محجمان) احدهما قمعي الشكل ويقع في مقدمة الجسم والآخر طبقي ويقع في مؤخرة الجسم ٠

ان جسم العلقة مقسم الى عدد من الحلقات يبلغ نحو (١٠٥) وهذه الحلقات لا تقابل تقسيم الجسم من الداخل الى عقل حيث تقابل الحلقة الداخلية - في الجزء الاكبر من الجسم - خمس حلقات خارجية ، ويبلغ مجموع العقل (٣٣) عقلة ، ويوجد للعقلة زوج من العيون على السطح الظهرى لكل عقلة من العقلات الخمس الاولى ٠

ان لون العلقة الطبية اخضر داكن (زيتي) وتوجد على ظهرها بقع سوداء غير منتظمة الشكل ، وفي فمها ثلاثة فكوك هلالية الشكل ذات أسنان دقيقة عديدة ، وبمساعدة عضلات خاصة تجرح هذه الفكوك الجسم الذى تتطفل عليه لتمتص دمه ، ويلي الفم بلعوم عضلي يقوم برشف الدم ، وفي البلعوم خلايا عديدة تفرز مادة لعابية تمنع تخثر الدم هي مادة الهيرودين Hirudine - وسنتكلم عنها بشيء من الاسهاب في آخر بحثنا هـذا - اما ما يلي البلعوم فحوصلة كبيرة الحجم تمتد الى قرب نهاية الجسم ،ولهذه الحوصلة (Crop) أحد عشر زوجا من الجيوب الجانبية التي يختزن فيها الدم لمدة طويلة قد تصل الى سنة كاملة ٠ وتمتص العلقة النشيطة من (١٠-١٥غ) من الدم ، كما يسيل بعد سقوطها مثل هذه المقادير أو اكثر ٠

هذه لمحات عن جسم العلقة وبعض صفاتها اكتفى بها لا تطرق بعدها الى استطباب العلق الطبي في الطب العربي فأقول بانه استعمل في جميع الحالات المرضية التى أشير بها الى تطبيق الحجامة أو الفصد فوصفوه في علاج كثرة الدم أو ما يسمى في الوقت الحاضر (فرط التوتر الشرياني أو ارتفاع ضغط الدم (Hypertension) وفي عرق النسا (Sciatica) أو الاستعداد له والنقرس (Gout) وأوجاع المفاصل وأورام المفاصل الدموية والرمد الحاد المزمن ، والمحتبس عنهن دم حيضهن ، وذوات الجنب الآلمة ٠)

ومن موانع استعمال العلق الطبي في الطب العربي أو ما يسمى في الوقت الحاضر (مضادات الاستطباب) الحمل والطمث (أي الحيض أو العادة الشهرية) وسقوط الهمة ، والحميات ، ويقولون في كتبهم المعتمدة انه اذا اضطر الطبيب الى الفصد في الحمى فيجب أن يقلل ولا يكثر ، وعلى الطبيب تحاشى الفصد لصغار السن والاشياخ (أي الذين هم في أرذل

العمر) ما أمكن وفي الابدان القصيفة وكذلك في الصغر من قلـة الدم (Anemia)

وينصحون بعدم مفارقة النبض في حالة تعليق العلق ويقولون بان النبض اذا صغر وصار الى ضعف وجب اسقاطه (اى اسـقاط العلـق وازالته) .

هذا وان لابن سينا وصايا ونصائح أوصى بها واشار بان يعمـل الطبيب أو الفاصد بموجبها حين أرسال العلق أي تعليقه على المكان المراد استخراج الدم منه ، فقد جاء في قانونه (قانون ابن سينا) (بان جذب العلق للدم أغور من جذب الحجامة ، ويجب أن يصاد قبل الاستعمال بيوم ويقيا بالاكياب حتى يخرج ما في بطونها ان امكن ذلك ، ثم يصب لها شيء يسير من الدم من حمل أو غيره ليتغذى به قبل الارسال (اي التعليـق) ثم تؤخذ وتنظف لزوجتها وقذارتها بمثل اسفنجة ويغسل موضع ارسالها ببورق ويحمر بالدلك ثم ترسل العلقة عند ارادة استعمالها في ماء عذب فتنظف ثم ترسل ، ومما ينشطها للتعلق مسح الموضع بطين الرأس أو بدم فاذا امتلأت وأريد اسقاطها ذر عليها شيء من ملح او رماد او بورق (Borax) او حراقة خرق كتان او اسفنجة محرقة او صوفة محرقة ، **والصواب بعد سقوطها أن يمتص بالمحجمة فيؤخذ من دم الموضع شيء يفارق معه ضرر أثرها ولسعها فان لم** يحتبس الدم ذر عليه عفص محرق او نورة أو رماد أو خزف مسحوق جدا او غير ذلك من حابسات الدم) .

لنقـف قليلا عند الجملـة السابقة فماذا يلـوح لنـا وماذا يظهر ؟ انه يلوح ويظهـر بان ابن سينا كان قد هـدف الى مقصد بعيد فهو اذ يقول (والصواب بعد سقوطها - يعني العلقة - أن يمتص بالمحجمة فيؤخذ من دم الموضع شيء يفارق معه أثر ضررها ولسعها فان لم يحتبس الدم ذر عليه عفص محرق ..) فكأنه قد علم بـوافر تجاربـه ودقيـق ملاحظاته بان الدم يستمر سيلانه بعد سقوط العلقة ، وان مص الـدم بالمحجمة من الموضع يوقف الدم .. والطب الحديث أيد ما ذهب اليـه طبيبنا العربي (الشيخ الرئيس) من أن الدم يستمر بالنزف بعد سقوط العلقة ذلك لوجود مادة (الهيرودين) أي (العلقين) في الدم ، تلك المادة التي تلقيها العلقة في دم الجسم الذي تتطفل عليه ، تفرزها من لعابهـا وتلقيها في الدورة الدموية ، ومن هنا جاءت الفائدة من تعليق العلـق في الامراض الناشئة عن خثرة دموية .

قلنا بأن لعاب العلقة يحتوي على مادة الهيرودين ولعابها يفرز عادة من خلايا غدية توجد في بلعومها وهناك ما بين (٠٠٣و٠-٠٠٥و٠ غرام) من مادة الهيرودين في الغدد اللعابية للعلقة الواحدة ، ومن الثابت علميا أن الدم الذي يسيل بعد سقوط العلق لا يتخثر ولو أضيف اليه المصـل

الفزيولوجي او كلور الكالسيوم Calcium Chloride ، وتزداد القدرة المضادة للتخثر في هذا الدم في اليوم الثاني ولا تزول قبل مرور بضعة أيام ، ان هذا الامر ليدعونا الى الاعجاب بابن سينا واكباره ذلك لما اوصى به من وضع المحجمة مكان ارسال العلقة بعد اسقاطها .

لقد اكتشفت مادة الهيرودين اي العلقين (نسبة للعلق) في لعاب العلق الطبي عام (١٨٨٤م) من قبل العالم الالماني (هاي كرافت (Hay Craft

ان حبوب (هيروديناز (Hirudinase) الحاوية على مادة الهيرودين مع مقدار من اليود وليمونات الصودا صنعتها بعض معامل الادوية بشكل ملبسات تعطى في حالة تخثر الدم وقد حل مكانها أدوية اخرى أحدث منها لعلاج التخثر (راجع بحثنا قصة الموت الفجائي في مجلة الاقلام العدد الثالث السنة الثانية) .

هذا وان بعض الدوائيين يرجحون استعمال العلق على اعطاء الهيروديناز في حالات تخثر الدم ، فلا داعي اذن لصديقي ان يعجب من ارسال احد مشاهير اطباء العيون ببغداد العلق لمرضاه عند الاقتضاء ذلك اذا قرأ هذا المقال ورأى كيف أن الشيخ الرئيس (ابن سينا) قد سبق الطب الحديث بألف سنة بوصفه للعلق كعلاج لحالات مرضية عينية واخرى لا صلة لها بأمراض العيون .

هذا ولابد لي ان اذكر الامراض التي ما زال الطب الحديث يشير الى استعمال العلق لعلاجها فاقول بان التهاب الكلية الحاد من بين هذه الامراض وكذلك احتقان الدماغ ونزفه واحتقان العين والرمد الحاد وداء الزرقاء Glucoma ، ولا يوصي الطب الحديث باستعمال العلق في داء الناعور Hemophilia وقصور الكبد وفقر الدم Anemia والوهن العام والشيخوخة والنزوف المرضية ، كالنزف المعوي في الحمى التيفية Typhoid وما اشبه .

وبعد — فانك ايها القارىء الكريم — مدعو لتشاركنا بالافتخار والاعتزاز بتراثنا الطبي العربي الزاخر بكنوز علمية وحقائق طبية يؤيدها الطب الحديث والتي لا تحتاج الا لمن يكشف عنها الغطاء باخراجها من طواميرها وعرضها للعالم باسلوب يتمشى والطرق العلمية .

ان سبق الطب العربي في اتخاذ العلق واسطة علاجية ناجعة يؤيدها الطب الحديث وتدعمها التجارب لما يدعو الى الفخر والتباهي أمام الامم قاطبة والى شحذ الهمم من أجل احياء كنوز الاجداد بتسليط اضواء العلم الحديث عليها وغربلتها واخراجها للعالم بثوب جديد .

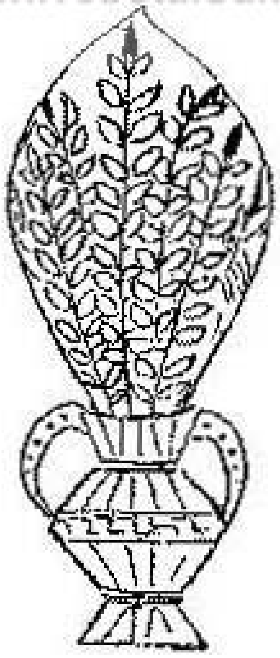
مراجع البحث :

أ ـ المراجع العربية :

١ ـ القانون لابن سينا طبعة روما
٢ ـ العمدة في الجراحة لابن القف طبعة حيدر اباد الدكن
٣ ـ الرازي أبحاثه وكشوفه الطبية (تأليفنا وهو تحت الطبع)
٤ ـ الطب المختار لمحمد المهتدى (مخطوط) .
٥ ـ علم الادوية لعزت مريدن استاذ في كلية طب دمشق
٦ ـ علم الحيوان العام (تأليف نخبة من جامعتي القاهرة وعين شمس . الناشر مكتبة الانجلو المصرية عام ١٩٥٨)

ب ـ المراجع الاجنبية :

1. American Illustrated Medical Dictionary (Dorland).
2. Encyclopaedia Britanica (Volume 13).



دراسة ومسح اجتماعي لمنطقة تل محمد

شاهزنان شكرجي

يتضمن هذا التقرير دراسة (٧٣٠) عائلة في منطقة (تل محمد) للتعرف على الاوضاع الاجتماعية ومعرفة مدى حاجة المنطقة للمدارس وللمؤسسات العناية الصحية والثقافية بالام والطفل • (وقد اجريت هذه الدراسة عام ٩٦١-٩٦٢ بالاستعانة بالمركز الاجتماعي والباحثات الاجتماعيات) ، واضيفت اليها أرقام جديدة لعام ٩٦٣-٩٦٤ عن نشاط المركز الاجتماعي في المنطقة) •

وصف المنطقة :

منطقة تل محمد هي مشروع اسكان يتكون من ١٥٠٠ دار قامت بتشييدها وزارة الشؤون الاجتماعية عام ١٩٤٥ للذين يقل دخلهم الشهري عن ١٥ دينارا من فراشي الوزارة وزراميها وغيرهم ، وقد وزعت الوجبة الاولى البالغة ٥٠٠ دار في سنة ١٩٥٠ والوجبة الثانية البالغة الف دار سنة ٩٥٤-٩٥٥ وقد أصبحت هذه الدور الان ملكا لساكنيها • وتكون هذه الدور على ثلاثة انواع :ـ النوع الاول يتكون كل دار من ثلاث غرف مع المرافق الاخرى وايجاره الشهري ١٫٥٠٠ دينار ، أما النوع الثاني فيتكون من غرفتين مع المشتملات وايجاره الشهري دينار واحد شهريا وكل دار تحتوي على سطح وحمام وساحة (حوش) فيها درج يؤدي الى السطح •

تقع منطقة (تل محمد) الى الجنوب الشرقي من مدينة بغداد فيمدخل بغداد الجديدة وعلى بعد خمسة اميال من مركز مدينة بغداد • وتمر بهما سيارات مصلحة نقل الركاب وقد صممت الدور لتشكل ما يقرب من دائرة يقع على احد جوانبها المركز الاجتماعي وبالقرب منه الحمام الشعبي وبالجانب الاخر تقع حوانيت المنطقة وقد تركت فسحة كبيرة بالقرب من المركز الاجتماعي لجعلها حديقة او متنزها عاما • الا ان الاهالي (وبعد مضي عشر سنوات على مشروع اسكان المنطقة دون استغلال هذه الارض) قاموا بانشاء جامع عليها •

وتتفرع شوارع المنطقة كلها من ساحة المركز الاجتماعي وتلتقي

بالشارع العام الذى يمر ببغداد الجديدة ويفصل المنطقة عن السدة القديمة ما يسمى (بالشطيط) وكان يشكل ايام الشتاء خطرا على المنطقة وقد غرقت هذه المنطقة كلها بفيضان عام ٩٥٤ • وكانت صرائف (العاصمة) المكتضة بالسكان تمتد من منطقة الجسر والشطيط وتحيط بالمركز الاجتماعي من جهة (العاصمة) قديما وتمتد حتى نهاية سدة الوزيرية (قبل مشروع قناة الجيش ونقل اهالى (العاصمة) الى مدينة الثورة •

المركز الاجتماعي في (تل محمد) :ـ

تحيط بيوت المنطقة بالمركز الاجتماعي وتقع امامه ساحة كبيرة تتفرع منها شوارع كثيرة تتصل بنهايتها الاخرى بالشارع الرئيسى المؤدى الى بغداد الجديدة ـ بعقوبة •• والمار بهذا الشارع بنفس الاتجاه يشاهد على يساره بناءا كبيرا يتميز عن باقي الابنية ببرجه العالي • وقد ساهم في بناء هذا المركز خبراء النقطة الرابعة وبديء العمل به عام ١٩٥٠ والحق به حمام شعبي خصص صباحا للرجال ومساء للنساء والاجرة فيه خمسة فلوس لكل شخص ويستحم فيه سنويا حوالى ٨٢٠٠ شخص •

يتكون بناء المركز من قاعة كبيرة يدخل اليها رأسا ويقع بنهايتها المسرح وعلى جانبي المسرح غرفتان صغيرتان تستعملان لاطفال الروضة وتطلان على الحديقة الخلفية وتستعمل القاعة يوميا لاطفال الروضة يجلسون فيها على هيئة مجاميع صغيرة حسب الاعمار • وتستعمل هذه القاعة فيما عدا ذلك للحفلات الترفيهية والسينمائية لرواد المركز ولاهالى المنطقة • ويستفاد منها في الحفلات العامة والاجتماعات وقد سجل في قسم الروضة منذ عام ٩٥٧ حتى سنة ٩٦٤ حوالى ١٣٥٠ طفلا تتراوح اعمارهم بين السنة الثالثة والسادسة يسجل فيه كل عام ما يقارب ١٥٠ طفلا بين سن الثالثة والسادسة من هذا يتبين مدى فائدة هذا القسم حيث يحافظ على عدد كبير من الاطفال سنويا وينقذهم من خطر الشوارع •

وقد صممت بناية المركز حسب الفعاليات المختلفة التي يؤديها • فيقع على يمين المدخل قسم خاص للعناية الصحية العامة والخاصة بالام والطفل وسجل فيه منذ افتتاحه حتى سنة ٩٦٣ (٥٢٠٩) عائلة من سكنة المنطقة ومما يجاورها • وقد زارت بيوتهم الباحثات الاجتماعيات في المركز وعملت سجلات خاصة لكل عائلة • وكان هذا القسم (بالتعاون مع مؤسسات رعاية الامومة والطفولة بوزارة الصحة يقوم بتوزيع الحليب المجفف الحاصلين عليه من اليونسيف على اطفال المنطقة الرضع واطفال روضة المركز كل صباح • وقد قدم هذا القسم خدمات لما يقرب من (٥٢٠٩) عائلة بما فيها ٢٦٣٧ حامل كما قام بتوزيع الحليب من اليونسيف على ١٣٣٧ طفل و ٤٠٣٣ رضيعا (وقد انقطع حليب اليونسيف المجفف عن المركز عام ٩٦٣ـ٩٦٤

وبذلك أوقفت عمليات التوزيع) .

وعلى يسار المدخل تقع غرفة الادارة والمكتبة وقسم الخياطة والتطريز والصناعات اليدوية . وعدد المتسببات الى هذا القسم سنويا يزيد على ٤٠٠ امرأة وفتاة .

ووراء هذا القسم يقع قسم مكافحة الامية وتعليم البالغين الذين جاوزوا سن التعليم وقد استفاد من هذا القسم منذ عام ١٩٥٧ حتى عام ١٩٦٣ (١٨٠٠) امرأة ويوجد في المركز ساحة خارجية كبيرة تستعمل للالعاب والنشاطات المختلفة ولمختلف فعاليات المركز .

مما سبق ذكره يلاحظ ان المركز فعال جدا وقد لعب دورا كبيرا في تطوير المنطقة اجتماعيا وثقافيا وتقوم بادارته باحثة اجتماعية يساعدها في عملها باحثتان اجتماعيتان يقمن بزيارة الدور ومقابلة العوائل في المركز وارشادهم صحيا واجتماعيا قدر المستطاع ويستغل المركز الاجتماعي مساء بتقديم مختلف الخدمات لرجال المنطقة وشبابها كالالعاب الرياضية والترفيهية ومشاهدة الافلام السينمائية والتمثيلية الشعبية كما يستغل صباحا لتقديم الخدمات المختلفة لنساء المنطقة وبناتها واطفالها . ووجود قسم التدريس المهني والخياطة يشجع الاهالي على ارسال نسائهم وبناتهم حيث ان التعصب ضد المدرسة موجود عند الاغلبية ويعتبر ذهاب البنت الى المدرسة (عيبا) بينما ذهابها لتعلم الخياطة وتدبير المنزل أمر مرغوب فيه وقد بلغ عدد اللواتي تعلمن الخياطة والتطريز وتدبير المنزل من اهالي المنطقة منذ سنة ٩٥٧ حتى سنة ١٩٦٣ (١٤٠٠) ووزارة الشؤون ملزمة بتوفير ما يحتاجه القسم من أدوات ومدربين ومكائن خياطة وغير ذلك .

اما القسم الطبي فالعيادة فيه تقوم بتقديم الاسعافات البسيطة لاهالي المنطقة وهذا القسم مزود بممرضة ومولدة تقوم بعملية التوليد والعناية بالحوامل والرضع مجانا . مما يقوي أواصر الصلة بين الاهالي والمركز نفسه .

وقد ظهر لي نتيجة الدراسة والمسح الذى اجريناه في هذه المنطقة انهم بأمس الحاجة الى طبيبة ومولدة لتوفير الاحتياجات المطلوبة للعناية بالأم والطفل قبل الولادة وبعدها ونشر الوعي والثقافة الصحية الوقائية .

طريقة البحث : Methods of the Survey

لقد استعنت بطالبات الصف المنتهي في قسم الخدمة الاجتماعية في اثناء الدروس العلمية التطبيقية والتي تأخذ لمدة يومين في الاسبوع في توزيع الاسئلة questioneres وتتعلق هذه الاسئلة بما يأتي :

١ ـ معلومات عامة عن العائلة :ـ كمعرفة عدد افرادها ، واعمار الاولاد وجنسهم ، الموطن الاصلي للعائلة اسباب ووقت الهجرة ... الخ .

٢ ـ معلومات عن الوضع الاقتصادي للعائلة :ـ كدخل العائلة ـ مهنة رب العائلة ـ عدد العاملين والعاطلين فيها ـ نوعية الدار المسكونة .... الخ .

٣ ـ الناحية الثقافية للعائلة :ـ كمعرفة عدد المتعلمين وغير المتعلمين في في العائلة ـ عدد الاطفال الناجحين الى المدرسة وعدد الاطفال المحرومين من ذلك واعمارهم مع معرفة اسباب الحرمان .

٤ ـ الوضع الصحي :ـ بالنسبة للام والطفل ـ وعدد الولادات بالنسبة لكل أم ـ وعدد الوفيات بالنسبة للاطفال ـ معرفة اسباب الوفاة وعمر الطفل في اثناء الوفاة ـ معرفة نسبة الخسارة في الاطفال الناتج عن الاسقاط والاجهاض او الوفاة اثناء الولادة وحصلنا من هذه الاسئلة على معلومات وافية حول عدد الاطفال المحرومين من الدراسة واسباب هذا الحرمان ومدى حاجة المنطقة للمدارس . وكذلك حاجة المنطقة للخدمات الصحية في حقلي الامومة والطفولة . ـ ونتائج هذا البحث موجودة في نهاية هذا التقرير .

اهداف البحث :ـ

لقد ساعد وجود المركز الاجتماعي في هذه المنطقة بهذا البحث واتخذ مقرا لنا . نبدأ منه بزيارة الدور وسؤال العوائل الاسئلة التى يتطلبها البحث وملء استماراته . وقد قمنا اولا بزيارة الدور المختلفة الموجودة في المنطقة للتعرف على اهلها وعلى احوال المنطقة وكسب ثقة ساكنيها . وقد لمسنا من هذه الزيارات المتعددة التى استغرقت سنة دراسية كاملة ـ حاجة الاهالي الماسة لوجود رياض اطفال تحمي اطفالهم من خطر الشوارع وبالاضافة الى احتياجاتهم الصحية والثقافية فى حقلى الامومة والطفولة . ونتيجة لزيارات الدور هذه حصلنا على معلومات وارقام تفيدنا في القاء الضوء على كل من الوضع الصحي والاقتصادى والثقافي في هذه المنطقة كما تفيد هذه الارقام في ناحية التخطيط العام للاحتياجات العامة لهذه المنطقة والمناطق المشابهة لها .

النتـائج

تتلخص نتائج هذا البحث ـ والذي شمل ٧٣٠ عائلة تسكن ٦٢٤ دارا في منطقة تل محمد بالجداول الآتية :ـ

الجدول الاول

(يدور حول معرفة معيل العائلة)

رب العائلة	عدد العوائل
الاب	٦٦٠
الابن الاكبر	٥٤
الأم	٩
الخال	٥
العم	٢
المجموع	٧٣٠

الجدول الثاني

(يبين عدد الاطفال الموجودين في ٧٣٠ عائلة حسب الجنس والاعمار)

العمر بالسنين	عدد الاولاد الذكور
ما دون سن ٣	٣٣١
٣ـ٦ سنة	٢٠١
فوق ٦ سنوات	٣٥٤
المجموع	٨٨٦

العمر بالسنين	عدد البنات
دون ٣ سنوات	٣٤٢
٣ـ٦ سنة	٢٤٩
فوق ٦ سنوات	٥٠٥
المجموع	١٠٩٦

الجدول الثالث
(يبين عدد الاطفال الموجودين في كل عائلة)

عدد العوائل	عدد الاطفال
١٩	٠
٧٦	١
١١٥	٢
١٣٢	٣
١٢٧	٤
١١٦	٥
٥١	٦
٥٠	٧
٢٤	٨
١٢	٩
٧	١٠
١	١١
٧٣٠ المجموع	

الجدول الرابع
(يشير الى محل الولادة ـ نوعها ـ والمشرفين عليها)

١ ـ محل الولادة	عدد الامهات (الوالدات)
المستشفى	١٦٨
البيت	٣٦٨٣
المجموع	٣٨٥١

٢ ـ نوع الولادة	عـــدد الامهات
طبيعية	٣٦٠٥
صعبة	٢٢٣
غير طبيعية	٢٣
المجموع	٣٨٥١

٣ – المشرفون على الولادة	عدد الامهات (الوالدات)
طبيب	٦٤
مولدة مدربة	١٦٢
مولدة غير مدربه (جدة)	٣٤٦٣
نفسها (بدون أحد)	١٦٢
المجموع	٣٨٥١

وجدنا ان عدد الامهات الحاملات في المنطقة اثناء عملية المسح يبلغ(١٤٦)

الجدول الخامس
(يبين ارقام الولادات والوفيات بالنسبة للاطفال في ٧٣٠ عائلة)

عدد الاطفال المولودين احياء يبلغ	٣٦٨٥
عدد الاطفال المتوفين يبلغ	٣٢١
عدد الاطفال المفقودين قبل الولادة يبلغ	٤٣٨

(بينهم ٣٠٦ حالة اسقاط – ١٦ اجهاض – ١٦٦ حالة ولادة ميتة)

عدد الاطفال المتوفين بالنسبة للاعمار المختلفة

العمـــــر	عدد الاطفال
٠ــ١	٥١٦
١ــ٥ سنة	٣٠١
٥ فما فوق	١٠٤
المجموع	٩٢١

الجدول السادس
(يبين اسباب الوفاة بالنسبة للاطفال)

سبب الوفـــــاة	عدد الاطفال المتوفين
اسهال	٢١٩
مضاعفات الحصبة	١٣٢
الامراض الصدرية	١٠٢
السعال الديكي	٤٩
التهاب الامعاء	٤٣

سوء التغذية	٦٤
السكزاز	٢١
التسمم	٢٥
الجدري	١٣
الخناق	١٢
ملاريا	١٢
نكاف	١٢
أبو صفار	٨
حرق	١٣
حوادث السقوط	٨
غرق	٥
ذات السحايا	٨
حمى روماتيزم	٤
دعس	٧
اسباب مختلفة ومجهولة	١٥٥
المجموع	٩٢١

الجدول السابع

(يبين عدد الذاهبين وغير الذاهبين للمدرسة من ابناء المنطقة)

يبلغ عدد الاطفال (children) الذاهبين للمدرسة في المنطقة	٧٧٦
يبلغ عدد الاطفال المحرومين من المدرسة في المنطقة	١٩٨٨
يبلغ عدد البنين المحرومين من المدرسة في المنطقة	٨٩٢
يبلغ عدد البنات المحرومات من المدرسة في المنطقة	١٠٩٦

الجدول الثامن

(يبين الاسباب المختلفة لحرمان ابناء المنطقة من الدراسة)

السبب	العدد
عدم بلوغ سن الدراسة	٦٧٦
عدم وجود روضة	٤٥٦
عدم وجود مدارس كافية	٢٣٠
التعصب بالنسبة للبنات	١٥٠
الفقر	٦٥

اشتغال الاحداث	٢٠٠
عدم وجود دفاتر نفوس	٤١
وجود عاهـــة	١٨
الاشتغال مع الوالد	١٤٠
اسباب متفرقة	١٢
المجمـوع	١٩٨٨

خلاصة البحث

يمكنني تلخيص البحث بالامور الآتية :ـ

١ ـ لقد اظهرت العوائل المتأخرة اجتماعيا واقتصاديا رغبتها في تحسين احوالها .

٢ ـ يتعرض الكثير من الاطفال للاسقاط والموت قبل الولادة وفي اثنائها كنتيجة حتمية لوجود الجهل ولانعدام الارشاد والعناية الصحية العامة بالام الحامل (الجدول الخامس) .

٣ ـ تجري معظم الولادات من قبل مولدات جاهلات (جدات) بسبب عدم وجود المولدات الفنيات ومن حسن الحظ ان اكثر الولادات طبيعيـة وسهلة . (الجدول الرابع) .

٤ ـ ان عددا كبيرا من الاطفال يموتون دون سن الخامسة واغلب هـذا العدد يكون قبل نهاية السنة الاولى .

٥ ـ عدد البنات في المنطقة اكثر من عدد الذكور فيها . (الجدول الثاني) .

٦ ـ أكثر الامراض القاتلة التى تصيب الاطفال دون سن الخامسة هي أمراض الجهاز الهضمي (خاصة الاسهال) وأمراض الجهاز التنفسي وهذا يعزى الى انخفاض مقاومة الطفل لاصابته بسوء التغذية ولسوء الاوضاع السكنية وقلة النظافة التي تساعد على انتشار العـدوى ولعدم الشعور بالمسؤولية تجاه الطفل والمحافظة على صحته وحياته . هذا كله بالاضافة الى وجود عامل الجهل . (الجدول السادس) .

٧ ـ من بين ٧٣٠ عائلة احصيت وجدنا ان عائلة واحدة فقط لديها ١١ ولدا و ٧ عوائل لديهم ١٠ اولاد و ١٢ عائلة لديها ٩ اولاد بينمـــا الاكثرية الساحقة من مجموع ٧٣٠عائلة يكون معدل ما لديها يتراوح بين ٢ـ٥ اطفال . (الجدول الثالث) .

٨ ـ ان عددا كبيرا من ابناء المنطقة محرومون من الدراسة بسبب عوامل كثيرة اهمها عدم وجود المدارس الكافية في المنطقة . (الجدول السابع والجدول الثامن) .

فاليري تارسيس

مؤلف

قصة : الجناح ٧(*)

احمد مصطفى الخطيب



ان الضجة التي أثارتها محاكمة الكاتبين الروسيين اندريه سنيافسكي وبولي دانيال مؤخرا في موسكو لم تبدأ بعد .. ولعلها زادت حدة بمغادرة فاليري تارسيس ارض وطنه ولجوئه الى انكلترا في الايام الاخيرة .. فمن هو تارسيس؟ وما قصته ؟..

سنحاول الاجابة عن ذلك هنا بشيء من الايجاز .

أ : م

فاليري تارسيس :

ولد فاليري تارسيس في كيف عام ١٩٠٦ ، ودرس في مدارسها حتى أكمل دراسته الثانوية ، ثم انتقل منها الى جامعة روستوف (Rostov on Don) حيث تخرج فيها سنة ١٩٢٩ .

(*) الجناح في اللغة : الجانب ، ويقال جناح الفندق او جناح المستشفى ، أي جانب منه ويقابل ذلك (Ward) في الانكليزية كما نرى .

وفي خلال الاعوام الثمانية التي أعقبت ذلك ، عمل تارسيس محررا في دار النشر الحكومية (Khudozbestvnnaya) الادبية في موسكو ، وألف كتابا عن مشاهير الادباء الاجانب المعاصرين ، ونشر قصتين قصيرتين في مجلة (نوفي مير) اي الحياة الجديدة ، اضافة الى طائفة من المقالات قام بترجمتها الى اللغات الروسية ..

وقد حال نشوب الحرب دون انجازه لقصة كان قد شرع في كتابتها.. ثم ما لبث ان التحق بخطوط القتال الامامية كمراسل صحفي حربي برتبة رئيس ... وفي ستالينغراد قاتل ببسالة فاصيب بجروح خطيرة نقل في اثرها الى المستشفى ، حيث رقد فيه عاما كاملا تحت المعالجة الطبية حتى شفي تماما ..

وفي أثناء ذلك قابل تارسيس لاول مرة أولغا الكسنيس (بنت شقيق الجنرال الكسنيس قائد القوة الجوية الذي أعدمه ستالين رميا بالرصاص عام ١٩٣٧) ، فاحب كل منهما الآخر ، ثم تزوجا وانجبا بنتا ..

يأس :

نشأ تارسيس وترعرع في وسط ثوري يدين بالآراء الجديدة التي كانت قد انتشرت في روسيا وقتئذ ... فقد كان ابوه (الذي اختفى في ظروف غامضة في الاربعينات ايام ستالين) من قدامى الثوريين الاحرار ، ولعب دورا بارزا في انتفاضة سنة ١٩٠٥ ، كما كان ايضا غير واحد من اقاربه اعضاء في الحركة الثورية ...

وقد التحق تارسيس بالحزب الشيوعي منذ فجر شبابه ، ولكنه أصبح منذ الثلاثينات من منتقدي النظام ومن المتذمرين من النهج الذي سار عليه الحاكمون في ادارة شؤون البلاد ... فمع انه كان قد بدأ تأليف القصص منذ اكثر من عشرين عاما ، الا انه كان موقنا كذلك بأن نشر مايكتبه في روسية يعد من رابع المستحيلات .. وقد استمرت الحال على هذا المنوال حتى بعد حلول عهد « الذوبان » ايضا ..

واخيرا .. في عام ١٩٦٠ بلغت به الحالة النفسية الى درجة اليأس ، واقتنع تارسيس بانه لا يستطيع اسماع صوته اطلاقا بغير مساعدة الخارج ... فقطع صلته بالحزب ، وباتحاد الكتاب السوفييت ، ثم بعث بمسودات قصصه الى خارج البلاد ...

فقصته (الزجاجة الزرقاء) التي يصف فيها تارسيس الظروف الحرجة التي كانت تكتنف حياة الادباء والمثقفين ابان حكم خروشيف قد تم نشرها في لندن في اكتوبر سنة ١٩٦٢ ، ثم اعقب ذلك ظهور كتب أخرى له في عدد من الاقطار الغربية .

محنــــة :

ظهرت الطبعة الانكليزية لـ (الزجاجة الزرقاء) تحت اسم مستعار وهو (ايفان فاليرى) وذلك مراعاة لمصلحة الكاتب ولكن خـلافا لرغبته ، ومع ذلك ففي شهر اغستوس من ١٩٦٢ ، أي بعد مرور شهرين فقط على صدور الكتاب ، ألقي القبض على المؤلف ـ الذي لم ينكر ارساله لمسوداته الى انكلترا ـ ، فزج في احدى المصحات العقلية في موسكو ...

وفي شهر شباط عام ١٩٦٣ تسرب هذا النبأ الى الخارج ، فأثار ذلك ثائرة الرأي العالمي ، وشنت الحملات الصـحفية العنيفة ضـد الاساليب القاسية التي يلجأ اليها في معاملة المثقفين والكتاب في روسية .

ولعل هذا كان هو الدافع الاول الذي حمل الحكومة الروسية عـلى اطلاق سراح الكاتب في سنة ١٩٦٣ ...

الايمــــان :

خرج تارسيس من المصحة العقلية ، مرفوع الرأس ، صلب العود ، قوى الايمان ، لم تضعضع عزيمته المحن القاسية التى ألمت به ، ولم تنل الاحداث المحزنة التي عاناها من معنوياته العالية ، أو من حدة ذكائه الوقاد ، كما ولم تؤثر كذلك أي تأثير يذكر في مجرى حياته الذي كان قد اختطـه لنفسه مهما كانت النتيجة ، ومهما كان الثمن ..

وقبيل انهيار حكم خروشيف بزمن قصير ، اسـتطاع تارسيس ان يهرب الى الخارج قصته (الجناح ٧) وهي وصف رائع لتجاربه المرة التي عاشها عندما كان نزيلا في مستشفى الامراض العقلية بجانب مائة وخمسين (مريضا) كلهم من العقلاء خلا واحدا منهم ..

اسلوب لم يتغير :

ان اتخاذ مستشفيات الامراض العقلية والملاجيء ، سجونا سياسية في مكافحة الخصوم والمعارضين في روسية ليس بالشيء الجديد المستحـدث ، بل هو اسلوب مألوف يرجع تأريخه الى اوائل القرن التاسع عشر ، أي منذ ان عاني الكاتب الروسي شادايف محنة من هذا النـوع في عهد القيصـر الروسي نيقولاس الاول ...

وقد كانت هذه الحقيقة معروفة منـذ وقت لدى الغـرب ، ابان حكم خروشيف سواء اعتبر ذلك استمرارا لنهج قديم ، ام انتعاشا واحياء لذلك النهج من جديد .

فـ (يسيينين ــ فولبين) الابن غير الشرعي للشاعر الروسي سرجي يسيينين الذي نشر كتاب له في الولايات المتحدة ، قد اعتاد الناس ان يروه داخلا أو خارجا من احد هذه المستشفيات العقلية بين حين وآخر .. ويعتقد

كذلك ان الكاتب ناريتسا الذي هرب قصة اضطهاده الى الخارج قد قضى نحبه أخيرا في احدى المصحات العقلية في لينينغراد من سوء المعاملة التي لقيها ٠٠ وكان معتقلا هناك منذ عام ١٩٦١ ٠

الجناح ٧ :

ان قصة (الجناح ٧) صورة رائعة ، أخاذة يرسمها احد الضحايا لنفسه ، ويسكب فيها ضوءا على حياة اناس آخرين شاطروه نفس المصير ، وقاسموه ذات المحن ٠٠ كما انها تكشف ايضا عن رد فعل روحي عنيف تجاه الطغيان ، وعن مقاومة نفسية لا تقهر ضد أساليب الشدة والاكراه ٠٠

انها ليست قصة محزنة في جملتها ، بل هي محزنـة ومضـحكة في وقت واحد ٠

درب شاق :

لاجرم انه ليس ثمة من ينكر ان عهد المجازر الدموية الرهيبة التي كانت تجري من وقت لآخر لـ (تصفية) المثقفين ، واعلام الفكر والادب أيام ستالين قد ولى واختفى من روسية اليوم ، كما ان المعاملة الخالية من الرأفة والشفقة التي كان يعامل بها النـازلون من هـؤلاء في السجون ومستشفيات الامراض العقلية قد تحسنت بعض الشيء في عهد خروشيف ، ولربما في عهد كوسيجين ايضا ولكن مع ذلك فان الدرب امام الكتاب الذين يريدون التعبير عن آرائهم بحرية ومن غير خوف أو وجل ، ما فتيء طويلا شاقا ، كما دلت على ذلك الاحداث الاخيرة فاما القصة (الجناح ٧) ذاتها ، فلها حديث آخر ٠



يا أم من عرفوا الحياة

مظهر اطيمش

يـا قلب حي العابقـات رجـاه   واستوح منهـا ما يفيض بهـاء
لتصوغ من بهـج الحياة ولطفها   للوالهـين قصيـدة عصمـاء
تلج العقول الحائرات نفوسهـا   فتسير لا خورا ولا استخـذاء
وتكون للنشء الذين تضمهـم   هذي المعاهـد مشعلا وضـاء
فرعاية الابنـاء خير رعايـة   لو مثلت تستنهض الابنـاء

*

يا قلب حي الناشرات معارفـنا   في الرافدين الدافقـات علاء
الملهبـات قلوبنـا ونفوسـنا   للمجد عزما في الحيـاة مضاء
والمنجبات الى البلاد ولادنـا   ستكون للوطن الحبيـب وقـاء
من عهد من ذهبوا ضحية ذهنهم   كانت تضم النخبة الاكفـاء
الواصلين صباحهـم بمسائهـم   حبا لافئدة لنـا ـ ووفـاء
ويمارسون من الجهاد أمـره   وأمره • ما يبذلـون فـداء
لا غنم عندهـم سوى ان يبصروا   أبناءهـم بجهادهـم سعداء
ويواكبون من الحضارة ركبهـا   ببلادهـم لتعانـق الجـوزاء
اولئكم رسـل الثقافـة بيننـا   وهم الشـموع تحرقا وسناء
يا أم من عرفوا الحياة وغيروا   وجـه الحياة كمـا أردت بناء

*

لولاك ما عرف الوجود عباقـرا   من أهلـه وتبـين النبغـاء
ولما وعى كنـه الحضارة فاقتفى   آثارهـا وتبـوأ العليـاء
كلا ولم يسلك طرائقهـا التي   بسلوكها طابت وطاب نمـاء

رجل الكبرياء

للكاتبة الافريقية

شيليا براون ساندري

ترجمة

عبدالله نيازي

كان « سولومون » بستانيا يحب تربة وطنه افريقيا حبا جما ، وكان يعمل اجيرا في حديقة السيد «بترسن» باخلاص وشغف كما لو كانت الحديقة امه واباه ، والازهار التي تنبت فيها اولاده ، حاصرا جل اهتمامه فيما ينبغي له ان يعمل دون ان يأبه بمرور الوقت او الزمن .

ولقد حدث في امسية سبت ما ، وفي وقت لم يكن احد يتوقع وجوده هناك في مثل تلك الساعة وفي مثل ذلك اليوم بالذات ، وبينما كان منحنيا يحزم شيئا من ثمار الطماطم الى جانب السور ، ان سمع صوتا خافتا لا يكاد يسمع يتناهى اليه من الحديقة المجاورة ، فمزق عالمه وكاد يودي به الى الدمار .

فلقد تأكد لديه ، ان فتاته ، او بالاحرى من كانت بمثابة قلبه وروحه ، والسبب الوحيد الذي يجعله يخفي الدراهم القليلة التي يملكها داخل عارضة خشبية في غرفته ــ ان فتاته تلك لم تكن له وحده .

وما كاد ينتصب بقامته ويراه الرجال الذين كانوا عبر السور ويعلمون انه قد سمع اصواتهم حتى لاذوا بالفرار . ذلك ان «سولومون» كان رجلا شريفا جدا وذا كرامة حقيقية ولا يجرؤ كائن من كان ان يفتئت عليه او يغتابه كان رزينا صادئا لا يحركه الضحك الافريقي السهل ، ولكنه حين كان يدفع اليه فانه يضحك طويلا وبعمق ، ونادرا ما كان يشارك أصدقـاءه النكات والقصص البذيئة التي كانوا يتداولونها وهم يفترشون الارض بالقرب من مخزن محطة القطار ، أما اذا فعل وجلس يحدثهم فان حكاياته تكون دائما احسن ما يروى ، كما لو انها اسد يتخذ وضعا معينا ويعبث بقطيطـات ضعيفة .

ولكنه في تلك اللحظة كان يقف خائرا تتوهج عيناه بشواظ الحقد والغضب على اولئك الذين ولوا الادبار .. لقد صرخوا وفروا مذعورين دون ان يمكنوه من معرفة الرجل الذي تسبب في تحطيم سعادته .

ولقد ظل «سولومون» جامدا وحيدا يهزه الغضب بعنف وتطن فى اذنيه دماء مئات المقاتلين من اجداده قبائل «الزولو» ٠

« سأقتلها ؟ » ٠٠ كان ذلك اول خاطر يرد الى ذهنه ، ولكنه كان يعلم تماما انه غير قادر ابدا ٠ على قتل الشمس ، والقمر ، والنجوم التي تتكون منها حياته ٠ «أفاكون؟» ولكنه يعلم حق العلم ان لا مجال للكذب، خاصة وان هناك اشياء صغيرة اورثت فيه الحيرة والشك من قبل ٠٠ هناك العقد مثلا !٠٠ لقد اقسمت له ان اباها منحه اياها ٠ اجل ، لقد كانت تبسم وهي تقول ان أختها الصغرى تزوجت من رجل دفع الى ابيها صداقا ضخما فقدم لها ذلك العقد البراق ، ولقد صدق قصتها تلك كما يفعل الرجل عادة حين يريد ان يوهم نفسه ان الواقع كذلك ٠

وتناول « سولومون » الاداة التي تستعمل في اقتطاع قصب السكر وأهوى بها بعنف على سيقان الاعشاب الطويلة المغروسة على جانبي الساقية التى كانت تخترق الحديقة ٠ ولقد ظل برهة طويلة يقطع بسكينة سيقان النباتات الصلبة كما لو كانت بيوتا للعناكب ٠ وحين شعر بالسائل اللزج ينساب على ظهره وساقيه انتصب ثانية وراح يحملق في قعر الماء ٠٠ كان رجلا طويلا متين العظام ذا جلد اسود لماع يصلح ان يكون انموذجا حيا لقبائل « الزولو » ٠ وكانت شحمتا اذنيه واسعتين ومفلطحتين بتأثير الخرز المستديرة ــ كنصف دولار ــ التي كانت تضغط عليهما ٠ ودونما وعي منه انتزع احدى هذه الخرز ثم قال بتصميم قاطع : « سأستشير العراف ؟ » وما كاد ينتهي الى هذه النتيجة الحازمة حتى شعر انه يتحرر من حبل قوي كان يلتف حول عنقه ، فانحنى « سولومون » بثبات وراح يحزم بتؤدة ثمار الطماطم الطرية ٠

ولقد اكدت زيارته للعراف خيبة الامل المريرة التي كان يخشى ان يواجهها ، ذلك أن الرجل العجوز رمى احجار الودع في التراب وراح يحملق فيها بفضول غريب ليستنطقها الغيب ٠ وكانت عيناه تومضان ببريق أسود أخاذ شبيه بالبريق الذي يتألق في عيني افعى « المامبا » التي كان يبدو أنه يرتدي وجهها ٠ وهمس بخفوت وهو يجمع أحجار الودع « هناك مخالب ضبع تتحفز للانقضاض على عجل أثير لديك ؟ » ٠

واشرأب « سولومون » متلهفا لسماع بقية الحديث ٠ ولكن الرجل العجوز لم يلق باحجار الودع ثانية وانما راح يحدج « سولومون » بتلك النظرات الغريبة التي كانت تشع بهما عيناه ، واضاف :

« عد الى البيت وابق فيه اليوم كله دون أن تأكل أو تشرب أو تنام ـ فاذا عادت طيور « المانيا » لتستقر في أماكنها فانك ستعلم حينذاك مايتوجب عليك عمله ٠ »

وكان هذا كل ما قاله له ٠

ولقد عاد « سولومون » مخذولا مجروح الكرامة الى البيت ، في صباح ذلك السبت الهادىء الجميل ، يجرر ساقيه ببطء ويحملهما على متابعة المشي حملا . وما كاد يصل حتى قعد القرفصاء في ساحة الكوخ مسندا ظهره الى درفة الباب الخشبية .. وقد كان باستطاعته ان يرى ، وهو في مكانه ذاك لا يبرحه ، جانبا من دار مخدومه وحديقتها عبر الطريق الذي كان يخترق الوادي ويؤدي الى التل الذي يقع بعيدا عنه فيجعله يلوح بوضوح . وأمامه مباشرة كان الدرب يتلوى متعرجا باتجاه باب الدار الامامي ثم ينحرف مجتازا جانبا منها حتى يبلغ باب المطبخ حيث يتشعب من هناك الى الاحياء الشعبية . وفي الجانب الايسر بالقرب منه كان يرى الطريق الذي يمتد بمحاذاة التل ويؤدي الى محطة القطار ... اجل ، لقد كان مكانا صالحا للاسترخاء والاستسلام الى الاحلام ورؤية كل ما يجري في الوادي دونما حاجة الى الانتقال من مكان الى آخر .

ولقد كانت هناك امرأة تسير في الطريق ، تحمل طفلها في شال تشده الى ظهرها . فكان يريح جانبا من رأسه الصغير على كتفي أمه ويرمق « سولومون » بعينيه السوداوين بوداعة . فلوح له بأصابعه ملاطفا فتلوى الطفل بفرح وسرور . فما كان من المرأة الا ان ادارت رأسها نحو «سولومون» لتعبر له ، دون ان تبتسم ، عن مشاعرها وامتنانها لمحاولته مداعبة طفلها ، كان يعرف تلك المرأة جيدا ، يعرفها من هيئتها ومن الشائعات الكثيرة التي كانت تحوم حولها . وكان يعرف كذلك انها عاجزة عن تسمية أب معين لطفلها هذا .. غير انها بالرغم من ذلك . وبسبب كونها كانت تسير باحتشام دونما تغنج ومنصرفة بعاطفتها الى طفلها . كانت تبدو في تلك اللحظة كما لو أن شيئا من الفضيلة التي لم تكن تملكها ، يكسو هيئتها ويظهر عليها واضحا .

« لو انني تزوجتها واولدتها طفلا ، فان من المحتمل جدا ألا تلجأ الى الرذيلة . اجل ـ اما اذا فعلت ذلك ؟ فمعنى ذلك انني كنت سأتحطم .. »

وتململ « سولومون » قلقا ثم حك ساقه باصابع قدمه الاخرى العارية .

« لابد للرجل من امرأة تؤنس وحدته . وبدونها يضحى اشبه ما يكون بهذه الشجرة العقيم التي تنتصب وحيدة في ساحة الدار . اجل ، قد يكون الفيء الذي تنشره رائقا يستظل به المتعب . ولكنها تبقى عقيما لا تملك ثمارا تمنحها ما دامت وحيدة هكذا وليس بالقرب منها فحل . فهي اذن ، تصف شجرة ، كالرجل تماما ، فانه يبقى شخصا ناقص التكوين بدونها » .

ورفع نظره الى الشجرة التي تنتصب وحيدة في ساحة الدار وجعل يتملاها بحزن .

« ساقول للسيد بترسن ان الواجب يحتم علينا ان نغرس فحل احد الاشجار هنا في الساحة • انه رجل ابيض لا يمت الى هذه الارض بصلة • لذلك فهو لا يدرك مدى عمق العذاب الذي تقاسينه • اجل ، سأطلب منه ذلك أيتها الشجرة الجميلة • »

« لو انني تزوجتها ! •• اذن لعدت بها الى قريتي كرال حيث لا أحد يحاول استمالتها أو يحاول اغواءها بحلية زائفة ؟ • »

ولكنه كان يعلم انه غير قادر على العيش في « كرال » فان اباه لايملك قطيعا يكفي لاعالة ثلاثة أشخاص في أرض صلعاء كانت مرعى في وقت ما ، كما انه لا يوجد هناك عمل آخر يستطيع الانسان ان يسد به رمقه • ولكن ، ما جدوى التفكير في ذلك ، فهي ليست من ذلك الجنس من النساء اللواتي يجلسن قانعات بالقرب من الباب في كوخ طيني ويهيئن الطعام • اجل ، ليست هي التي تفعل ذلك ولها مثل هذين الردفين المستديرين ، والجلد الاسود الناعم ، والعينين الضاحكتين الغزلتين •• ليست امرأة المدينة هذه • »

ولقد ظل هناك جالسا لدى الباب حتى بدأت الشمس ترتفع في السماء البرتزية ، وأخذت اشعتها الدافئة تتألق على حيطان المنازل ورفوفها القرميدية • وبالرغم من انه كان يتوه في تخيلاته الكثيرة ويفكر بعدة اشياء الا انه كان يجد نفسه في النهاية يعود ليفكر في فتاته دون غيرها ، وبالانوثة التي تتفجر منها ، وحين يصل الى الاسلوب العفن الذي لجأت اليه في خيانته يشعر بالغضب يجتاحه ويهزه هزا عنيفا كما لو ان هناك افعى تتحفز للانقضاض عليه •

وفي منتصف الساعة العاشرة رأى « سولومون » السيد « بترسن » يخرج من الدار برفقة زوجته ويستقلا سيارتهما ثم يغلقان بابها بمرح ظاهر ويتجهان الى الكنيسة •• وجعل « سولومون » يراقب الغبار الذي أثارته السيارة يعود ليستقر في الارض ببطء • ثم فجأة اخذ يفكر بالرجال البيض • اولئك الذين يحسنون صنع السيارات ، ويتقنون اشياء كثيرة ، أولئك الذين هم ماهرون في كل شيء ، ومشغولون أبدا ، ولكنهم ، مع ذلك ، يعجزون ، اذا ما سئلوا في أمره ، عن ايجاد حل لمعضلته •

فقد كان هناك مثلا ، السيد « جبسن » المستأجر السابق للدار قبل السيد « بترسن » والذي كان متزوجا من فتاة جميلة شقراء • فان الذي حدث بعد فترة وجيزة من انتقالهم الى الدار ، ان المرأة هذه ، الرشيقة ، الجميلة ، لم تكن وحدها في الدار في كثير من الاماسي • كلا ، ابدا ، لم تكن بمفردها ، فقد زارها مرة رجل طويل قوي الجسم يضحك باستمرار • وحدث ان رجع السيد « جبسن » في احد الايام الى البيت مبكرا فوجد امرأته الجميلة الشقراء تلك برفقة ذلك الرجل الطويل الغريب • وماكاد

الرجل يغادر الدار حتى علا فيها الضجيج والصياح وقهقهات تلك المرأة • ومنذ ذلك الحين ، لم تعد ذات الشعر الاصفر تتحرج من الخروج مع آخرين في أصائل الايام • كما لم يعد « جبسن » قادرا على منعهما • اجل ، انه لم يمنعهما ، ولم يحاول كذلك ان يضرب تلك المرأة • وانما ظل يلازم الدار بمفرده وقدح الويسكي الممزوج بالصودا يستقر الى جانب ذراعه ، وشيئا فشيئا كان « جبسن » يتهدم تدريجيا حتى انه لم يعد انسانا وانما شيء اقل من شخص ، واحيانا كانت تشاهد ، في بعض لحظات اليأس المريرة ، بضع قطرات من الدمع تلمع في عينيه • وكان في أحيان اخرى يهوم والالم الفظ يعتصره عصرا ثم يسقط على الارض ، وفي أحيان قليلة يصرخ في الخدم وفي « سولومون » ولكنهم ما كانوا يأبهون لصراخه ، ذلك لان التصرفات التي كان يقوم بها لم تكن لتختلف عن تصرفات الاطفال •

كان شيئا اقل من رجل ، لكونه لم يكن يملك شيئا من كرامة الانسان وشرفه •

وشعر « سولومون » بما يشبه الزهو يملأ جوانحه ، وفكر : ان الرجل الذي يضطر الى الزحف لكي يتمكن من مغادرة كوخه الطيني ويحتفظ بكرامته وشرفه ، افضل الف مرة من ذلك الذي يجتاز باب داره بقامته التي تبلغ عشرة اقدام دونما عناء وليس له شيء منهما •

« سوف لا أكون كجبسن • كلا ، لا يمكن ان أكون مثله » •

وكانت الشمس قد توسطت كبد السماء فزحف « سولومون » الى الوراء قليلا ليستظل في الفيء القليل الذي كان ما يزال يظلل جانبا من واجهة كوخه • وكان يشعر بوخز الحر وحرقة الظمأ • ولكنه ظل يقاوم الرغبة الملحة التي تمور في اعماقه التزاما منه بما اوصاه به العراف •

« لقد كان عليه ان يسمي لي الضبع •• ولكن لا ، فلربما هو نفسه لا يعرف عنه شيئا ، ومن المحتمل كذلك ان يكون قد فقد قابليته على السحر ؟ ولكن ، لا • فقد أغاظته امرأة ما في العام الماضي فماتت في اثناء ما كانت تلد • وتقول عليه رجل آخر بسوء ولكنه لم يلبث ان فجع بابنه حيث ذهب ليسبح بغباء في أمواج البحر الصاخبة بالقرب من « دوربان » فالتهمه قرش وقضى عليه • اجل ، انه عراف ، وليس لي الا ان انتظر • »

ولقد ظل بمفرده ينتظر حتى بدأت الشمس تنزلق رويدا رويدا وتميل الى الهبوط ، وفجأة وجد ان هناك ظلا طويلا رفيعا ذا نهاية تشبه المدية تعكسه الشمس من خلال السقف ويكاد يلمس قدميه • فراح « سولومون » يحملق فيه برعب • ان الحقيقة تتجسد امامه ببساطة متناهية •

« اذن ، فتلك هي العلامة • الظل يشبه مدية تنغرز في قلب عدوي •• الضبع الذي يحاول العبث في الظلام • »

ودخل الدار وتناول المدية التي يقتطع فيهــا الاخشاب • والمسن الذي كان يحتفظ به ثم عاد الى مكــانه الاول وجلس بالقــرب من الباب يشحذ مديته التي لم تكن بحاجة الى شحذ ، ببطء وبتساوق رتيب • وقد أظلمت عيناه فلم يعد يبصر شيئا أمــامه ، كرجــل أسلم كيانه كله لحلم لذيذ لا يرضى ان يتخلى عنه ، او كانسان مات فيه الحس فلــم يعد يشعر بشيء •

وحيث انه كان بامكانه ان يرى ، وهو في مكانه ذاك ، كل من يسير في اسفل الطريق وفوقه ، فقد كان باستطاعة جميع المستطرقين والسابلة ان يروه في أثناء غدوهم ورواحهم • وسـرعان ما ســرى همس في الوادي اشبه ما يكون بريح تجتاح حقلا من القمح يردد ان « سولومون » يشــحذ مديته •

وماكاد الليل يخيم بعض الشيء ، وينشر غلائله السود ، حتى كان هناك رجل يتعثر في خطاه ، ويتلمس طريقــه في الظــلام ، يقترب من « سولومون » ثم يقف أمامه • ولقد ظل الرجل واقفا طوال دقيقة كــاملة دون ان يشعر به ، وحين استرجع وعيه وعاد الى الارض التي يحيا عليها ، اطرق يحملق بذهول ثم تمتم : « جواناه •• صديقي » •

وجلس « جواناه » القرفصاء بحرية تامة الى جانب « ســولومون » وكان ما يزال يشحذ مديته برتابة •

« سولومون •• انني اعرف ما يدور داخل رأسك » •

ولكنه لم يرد عليه بحرف ، كانا صديقين منذ ايام الطفولة في« كرال» وظلا كذلك حتى غادرها « سولومون » الى المدينة طلبا للرزق • وحــين لحق به « جواناه » استطاع « سولومون » ان يلحقه بعمل ثــابت طيب • فعمل بستانيا في احدى الحدائق ، ولكن « جواناه » لم يبق في عمله هذا طويلا فتخلى عنه ، كما أنه لم يقو على البقاء طويلا في أي عمل آخر يعــد ناجحا وذا أجر ثابت من الاعمال التي تهيأت له •• كان مولعا باحتســاء البيرة المحلية وبالنساء ، ولا يبقى في العمل الا بالقدر الذي يوفر فيه شيئا من الدراهم يمكنه من الحياة بكسل لفترة وجيزة ، ثم يعــاود البحث من جديد عن عمل تافه مؤقت باجور زهيدة ، وعاد يقول :

« أنا لا أشير عليك بوجوب التريث وعدم تنفيذ العمل الذي صممت على القيام به يا سولومون • انا أعرف انك ستقتل رجــلا ، وبهذا ســوف لا يكون بامكانه مغازلة فتاتك ثانية • كلا ، ولكن سوف لن يكون بامكانك انت ايضا ان تفعل ذلك ، فان الشرطة ستضع الحبل في عنقك » •

وظل « سولومون » جامدا لا يصدر منه ما يدل انه كان يصغي اليه واستمر « جواناه » يهمس بالحاح :

« وليس من الصواب ان يموت رجل يا سولومون ! »

وفجأة شعر « سولومون » ان قلبه يدق بعنف في اثناء ما كان يشحذ مديته • ثم جعل يتأمل مدى الصدق الذي ينطوي عليه القول هذا وبشاعة الحقيقة التي تكمن في تضاعيفه • فقد كان يعلم ان هذا ما حدث لرجل اعدم شنقا لاصراره على الدفاع عن شرفه فمات الرجل في قذارة وسخرية العمل الذي قام به •

وكان الظلام يحلولك شيئا فشيئا • وبدت اسراب طيور « المانيا » في مرأى الافق البعيد عن الوادي تحوم وتهبط بتناسق محكم جميل • وعاد الهمس الذي يشبه الصفير يطوف حول اذنيه :

« تأمل يا صديقي ، انك اذا قتلت رجلا وقتلت فانك لا تفعل سوى ان تدع فتاتك تذهب الى رجل آخر •• رجل لا تعرف حتى من يكون • انها سوف لا تبقى وحيدة لمدة طويلة •• وهذا هو الطريق الطبيعي للمرأة • »

وحيث انه لم يرد الى ذهـــن « سولومون » من قبل ان موت عدوه يؤدي الى موته هو ايضا فلم يكن يرعبه التفكير فيه • اما الان ـ وللمرة الاولى ـ فقد تمثل امامه العبث الذي ينطوي عليه عمله • ومن خلال عينيه الضيقتين راح يتابع طيور « المانيا » باهتمام شديد •

« هل هناك طريق آخر ؟ »

قال هذا وهو مستغرق في مراقبة طيور « المانيا » التي كانت تحوم وتهبط فلم يلحظ ارتعاشة يدي صاحبه الخفيفة والطريقة الخفية التي لق فيها شفتيه قبل ان يرد عليه :

« اجل ، لقد فكرت طويلا وانا انظر اليك جالسا هنا طوال اليوم •• والذي اريد ان اقوله هو ان •• »

وتوقف لدى رؤيته « سولومون » ينتصب جامدا ويتابع بلهفة طيـور « المانيا » التي بدأت تحط على أحد الاشجار باشارة خفية من الطير الذي في المقدمة مخلفة السماء خالية • فصدرت من « سولومون » تنهدة عالية ورمى بمديته الى الارض • وللمرة الاولى جعل يولي الرجل الآخر انتباهه الكامل ، وقال له :

« اخبرني ، ما الذي كنت تفعله ؟ »

« كنت أقول للرجل الآخر اذا كنت تريد هذه المرأة فلك ان تـذهب اليها ، فقد تخليت عنها ولم تعد بي حاجة اليها •• اجل ، كنت ابتسم اليه واقول : لقد مللتها وانتهيت منها وباستطاعتك ان تأخذها •• وحينذاك فقط ستستحوذ على الرجل الدهشة وتعبث به الحيرة ويردد مع نفسه : لماذا يتخلى عنها بمثل هذه السهولة ؟ فاذا كان قد ملها فربما لانها حقيقة لاتساوي شيئا •• واذا كان الامر كذلك ، فان التقاط ما يعافه الآخرون يعد انتقاصا من كرامة الرجل • اجل ، انه سيفكر بهـذا وهـو يحملق فيها بحيرة شديدة • وحينذاك سيتلاشى السحر الذي كان يخال اليه انـه يسيل منها

وتتلاشى كذلك فرحته بها ٠٠ »

وعاد « سولومون » ينظر الى الشجرة التي استقرت عليها طيور « الدنيا » ٠ وظل برهة طويلة ينظر عبر الوادي ، ثم نهض وهو يقول :

« سأعمل الشيء ذاته ٠٠ »

« ولكن هل تعلم أين تجده ؟ »

« سأنتظر بالقرب من كوخها ٠ »

ولم يشأ « سولومون » أن يجعل صديقه يحدس انه يجهل خصمه فلم يستفسر منه عنه ٠ فرمقه « جوانان » بنظرة وحزر ما يدور في ذهنه وقال :

« أظنه سيكون خائفا ويأخذ حذره فلا يأتي ٠٠ دعني أخبره بذلك ٠ خاصة وان الوقع سيكون أشد عليه حين يجد انك لم تول الامر اهتمامك ، فلم تأبه حتى باخباره بنفسك وانما اكتفيت بان ارسلت له من يبلغه بذلك ٠ »

« سأنتظر الليلة حتى الفجر ، فاذا لم يأت فلك ان تقوم بذلك » ٠

« كما تحب !٠٠ »

وكان الطريق الى كوخها بعيدا بعض الشيء ، فالتقط « سولومون » مديته وراح يدلف بصمت في ليل أفريقيا العذب الذي كان ينشر غلائله السود على الطبيعة السمحاء ٠ وقبل أن يصل كوخها بقليل كان الالق الذي تشعه زهور « الأضاليا » يتضاءل تدريجيا ويستحيل الى ظلال رمادية داكنة بعض الشيء ٠ والقمر الوليد يتلألأ ضاحكا ويفرق ضوءه الفضي الداكن الدرب والحقول ٠

وكان كوخها يقبع خلف دار مخدومها بقليل وتحيط به حقول قصب السكر من جهاته الثلاث ٠ فاجتاز « سولومون » المدخل الرئيسي وراح يجوس خلال اعواد قصب السكر الطويلة ٠ وما كاد يرى حيطان الكوخ البيضاء تتألق بشحوب تحت ضوء القمر ، حتى اختار مكانا في الظلال التي تعكسها الاعشاب واعواد قصب السكر بحيث يرى منه مدخل الكوخ ولايراه أحد ، وجلس فيه ٠

وقبع هناك ينتظر في سكون ليل افريقيا العذب ٠ ذلك السكون الذي لم يكن هادئا تماما ، فقد كانت مئات الاشياء الدقيقة التي لا ترى تحدث صوتا خافتا ينز من حوله ٠

ولقد ظل هناك جالسا ينتظر ويستعيد ما كان قد هيأه في ذهنه ليقوله للرجل الذي لم يكن يعرف حتى اسمه ، حتى بدأت السماء من ناحية الشرق تلمع بضياء الغبش دون ان يظهر اثر للرجل ودون ان يسمع كذلك نأمة واحدة تصدر من الكوخ ٠ فهمس :

« سأتأكد من ذلك ! »

وراح يدلف بسكون الى اسفل الممر وقرع الباب ٠

« من هناك ؟ »
« لا تخافي .. أنا سولومون .. افتحي الباب . »

وكان هسيس أقدام عارية يسمع خافتا على الارض ، وخشخشة مزلاج يرفع ، ثم فتح الباب . وكانت تقف وعلى فمها ابتسامة راعشة متظاهرة بالشجاعة فيفضحها الذعر الدفين الذي يرقد في عينيها ، ثم اقتربت منه وقالت له وهي تطوق عنقه بذراعيها :

« كنت بانتظارك يا سولومون ، فقد افتقدتك ؟ »

ولكن « سولومون » ابعد رسغيها عنه ثم دفعها بلطف بعيدا . ولقد شعر انه اذا كتم ما ظل يزوره في ذهنه طوال الليل فلم يقله للرجل الذي لم يأت ، أو تغمغم به شفتاه ، فانه مختنق لا محالة . وهتف :

« أيتها المرأة . ان ما بيننا قد انتهى . ابحثي عن رجل آخر اذا استطعت . فلم تعد بي حاجة اليك ؟ .. »

وللمرة الاولى لم يكن ينظر اليها وهو يتكلم وانما الى زاوية في الحجرة فرأى خيوط العنكبوت تتأرجح في السقف ، والحفر الكثيرة تنتشر في الارض . ولاحظ كذلك الشال البراق الذي اشتراه من السوق الهندي ـ ذلك الشال الذي كلفه مرتب شهر كامل ـ ملقى باهمال على السرير واحد اطرافه في التراب ، كما وجد ان ملابسها لم تكن معلقة على الحائط او ينتظمها صندوق تحت سريرها كما ينبغي أن تكون ، وانما مكومة باهمال على الارض القذرة .

ربما كان ذلك لرؤيته هذه الاشياء للمرة الاولى ، وربما لانه كان يحس ان ليل العقم والعذاب والعطش يتحدد منذ اللحظة ، لا يدري ، ولكنه شعر حين افضى بالألفاظ التي حرص على انتقائها ، والتي ظل يستعيدها الليل كله ـ لقد جعله ذلك يؤمن ان ما يقوله لا زيف فيه ويعبر عن حقيقة احاسيسه .. لقد تخلى عنها ولم يعد يريدها ابدا .. وراح ينظر اليها بدهشة وينقب فيها عن ذلك الشيء الذي جعله يخدع بها فاستحوذ عليه ، فلم ير أمامه سوى امرأة من « كرال » . واحدة من اولئك اللواتي قدمن المدن وسكن فيها من زمن بعيد .. بعيد جدا . وعاد يقول برقة اكثر :

« اعتبري ما بيننا منتهيا ! »

وكان ينظر في تلك الاثناء في عينيها مباشرة ، ثم استدار وقفل راجعا خلال أعواد قصب السكر ، منتصب القامة فخورا بكبريائه . والقى نظرة الى سماء ذلك الصباح الجديد الزرقاء . ثم جعل يتأمل باعجاب اعواد قصب السكر الطرية الخضراء واحس ان قلبه يغوص في أعماقه .

ولقد ظلت المرأة تقف في المكان الذي تخلى عنها فيه ترقب بحيرة مريرة الدرب الذي سلكه وتضع احدى يديها على فمها .

وفي المساء عادت الى الوقوف هناك ثانية تنظر بيأس مرير الى الدرب

حين قدم « جواناه » وهو يبسم من خلال اسنانه المحطمة . ثم قال وهو يضحك :

« انظري كم أنا ذكي ، لقد خدعت سولومون وجعلته يحملني رسالة موجهة الي دون أن يدري انني أنا الرجل الذي يبحث عنه . »

وجعل يضحك ويهز كتفيها .. ولكنها لم تكن تصغي اليه وظلت نظراتها مسمرة في الدرب . وعاد يقول :

« لا تخافي .. سوف لا يعود سولومون ابدا ، فقد تخلصنا منه بفضل مهارتي نهائيا . »

ووضع يديه على كتفيها ثانية فاستدارت اليه وجعلت تنظر اليه بعينين فارغتين كصوتها وقالت :

« ابتعد عني أيها الرجل . »

« ولكن . ما الخطأ ؟ »

« لم يعد سولومون يحبني . لقد ملني ولفظني بعيدا عنه . »

فقال جواناه ضاحكا :

« كلا .. لقد كان ذلك بسبب مهارتي ، فقد ردد ما لقنته اياه ليقوله الى الرجل الآخر .. »

« لقد ملني . »

فقاطعها جواناه بكبرياء :

« كلا .. كلا .. ان كل ما حدث كان بسبب مزاحي الماهر » .

« لقد ملني . ان الامر قد انتهى . وقرأت ذلك في عينيه . »

وجعل يستحثها :

« ولكننا كنا نعمل معا للتخلص منه . »

وهمست بحزن مكتوم :

« ولكن ، لا لكي ارمي بعيدا !.. ان الامر يكون مرعبا اذا انطوى على الضرر ؟ .. »

والح جواناه قائلا :

« لقد تظاهر بذلك لينقذ كبرياءه . »

فهزت رأسها وقالت :

« كلا .. في البدء تظاهر انه لم يجرأ على النظر الي ، ولكنه عاد واخذ يحملق في عيني . وقد كان الامر صحيحا ، رأيت ذلك في عينيه . »

فامسكها « جواناه » من كتفيها وجعل يهزها بصبر نافذ :

« لا تكوني غبية ، أيتها المرأة ! »

« كانت عيناه عيني غريب . »

وبالرغم منه بدأ « جواناه » يحس ان اصرارها الشديد هذا اخذ ينفذ الى نفسه ، وان الشك بدأ يعمل عمله فيه هو الآخر .. أيكون قد عافتها

نفسه حقا فتخلى عنها ؟ ايكون قد ملها فلفظها ؟.. ولماذا ؟.. ربما انها لم تعد تساوي شيئا ؟.. وراح ينظر اليها والحيرة تهزه بعنف هزا

ولقد طوقها بذراعيه وضمها اليه ليتأكد من أحاسيسه تجاهها . فشعر ان الشك الذي كان يعمل في رأسه جعله يبدو أمامها كما لو انه كان صبيا غرا لم يسبق له ان تعرف الى امرأة قط . فادركت بغريزتها انه كان يصارع الشك ذاته . فرمت برأسها الى الخلف ثم اطلقت قهقهة خشنة جرفته بعيدا خارج الكوخ . وراح يسلك ذات الطريق الذي سلكه « سولومون » من قبل مع فارق واحد هو انه لم يكن يملك شيئا من حرية وكبرياء « سولومون » . فضغط بيديه على اذنيه ليمنع عنهما صدى القهقهات الساخرة التي كانت تتعقبه . ثم راح يعدو مذعورا كما لو كان عجلا ليختفي من أسد لم تكن به حجة الى القتل .

ولقد ظل يعدو دونما هدف كحيوان مطارد حتى كادت انفاسه المتلاحقة تمزق صدره ، وخارت قدماه وما عادتا تقويان على جره الا بعناء شديد . واخيرا توقف وهو يلهث بقوة ويرتجف من الاعياء . ولكنه ما كاد يسترجع انفاسه قليلا وينظر حوله حتى وجد ان الرعب الذي كان يطحنه قد جعله ينقاد دونما شعور منه ، الى كوخ « سولومون » مباشرة . وكان «سولومون» يحملق فيه برثاء وتدل عيناه على انه كان يعرف كل شيء . وحاول « جواناه » ان يتفوه بشيء . ولكن فمه كان جافا من الخوف فلم ينطق بحرف واحد .

وابتسم « سولومون » له ابتسامة عذبة لا توصف ، وكان يضع على رأسه قبعة صغيرة صفراء ذات حافة عريضة يتدلى منها شريط لماع ويحتضن قيثارة جديدة يوقع عليها نغما هادئا . كان يبدو ، وهو في جلسته تلك ، بالقرب من باب كوخه ، كما لو انه انموذج حي للرجل الذي يعيش بسلام تام مع العالم .

« لقد كنت على خطأ طوال هذه السنين . »

تمتم برقة متناهية حتى انك تحار فلا تدري اكان يخاطب نفسه ام انه يعني الشبح الذي يرتعد خوفا بالقرب من شجرة « البوبو » العقيم .

« أجل ، كنت غبيا ، كنت أوفر المال لكي ابتاع لها الهدايا فقط ، ولم يخطر ببالي قط ان ابتاع شيئا خاصا لي . الا تظن ان مثل هذا التصرف خطأ ؟ »

وكان « جواناه » ما يزال يدير لسانه في فمه محاولا الكلام . الا انه لم يستطع ان يخرج صوتا من حنجرته الملتهبة . ومضى « سولومون » يهمس حالما :

« أجل ، على الرجل ان يتمتع بالحياة فيدخل البهجة على نفسه لا ان يظل جامدا جافا . وسأبتاع دراجة هوائية ، ولدى الهندي في السوق واحدة

جيدة ليست غالية كثيرا .. الا ترى ان يكون عندك دراجة هوائية شيئا جميلا ! »

ولم يكن يعزف بعد على القيثارة وهو ينظر الى « جواناه » فكان كلامه ينساب في الصمت واضحا حادا كحبات الحصى تلقى في بئر عميقة . وسأله :

« لماذا انت خائف ؟.. عد اليها .. فهي لم تعد تعني شيئا بالنسبة لي .. » .

فتمتم « جواناه » أخيرا والخجل يكسوه كجلد جديد .

« انها لا تريدني ، انما تريدك انت يا سولومون .. »

ولم يجبه « سولومون » وراح يضرب باصابعه على أوتار قيثارته من جديد بتساوق فينبعث منها نغم أفريقي صميم .

كان يريح ظهره على الحائط وشمس العصر تلامس قبعته الحصير وتنعكس ظلالها الدافئة على وجهه المشرق حين سمع وقع اقدام ناعمة على الحصى ، ثم ظهر خيال امرأة . لم تكن تهز ردفيها وهي تمشي او تتبختر دلالا انما كانت تسير برصانة حزينة وعيناها مطرقتان الى الارض ، ولم تكن تضع على ذراعيها حليا براقة او يتدلى عقد من رقبتها ، وكل ما كانت تضعه عليها هو ذلك الشال الهندي ، الذي كان يبدو ، في تلك اللحظة نظيفا ويشع ببريق جديد .

واجتازت المرأة « جواناه » الــذي كان ما يزال يقف تحت شجرة « البوبو » كما لو انه جزء منها ، أو مجرد عصا ، أو قطعة من الحجر الاصم . ثم وقفت أمام « سولومون » وتمتمت :

« لقد اتيت يا سولومون ؟ » فقال :

« أنا لا اعرفك ! »

وجعلت تنظر اليه ودموعها تتقاطر من عينيها الكبيرتين السوداوين بغزارة ثم همست :

« سولومون .. سولومون . »

« أنا لا أعرفك أيتها المرأة .. اننا غريبان ، أنا وانت .. اخبريني : من تكون أمك ، ومن يكون ابوك ؟ »

وحدست المرأة ما يعنيه بكلامه هذا ، فابتسمت له ابتسامة عريضة مشرقة والامل يسري في كيانها . وهمست :

« جئت من كرال ! »

ثم جلست عند قدمي سولومون .

الموت الوجودي

سامي أحمد الموصلي

تتكلم الوجودية على لسان كيركيجارد فتقرر أن الموت أو التفكير في الموت هو أشد الافكار جدية ، ويقرر كل فيلسوف وجودي هذا الحكم التقييمي لواقعة الموت • فأونا مونو الفيلسوف الوجودي الاسباني لـه كتاب يدعى (في المعنى الاسيان للحياة) وهو ينطلق الى هذا المعنى من كون الموت قاطعا لاستمراريتها فهو يقول (اما أن أعلم انني سأموت كلية فلا يبقى أمامي غير اليأس النهائي القاتل والاذعان الكضيم) • وكذلك يقرر كامو أن كل ما في الوجود عبث لان ليس ثمة قيمة للعمل ، يعمل ليقتات ويقتات ليعمل وهكذا حتى يأتي الموت هذه النهاية اللامعقولة لكل موجود • أما في الفلسفة الوجودية عامة فالموت يكاد يكون مقولة من مقولاتها وان لم يكن من مقولاتها فهو السبب لوجود أكبر مقولة فيها وهي مقولة القلق • فالقلق على – كما يعبر هيدجر – انما تبنى على أساس وجود الموت الذي يقطع الامكانيات عن استمرار التحقق • بل ان هيدجر يعرف الوجود كلية بقوله (ان هذا الوجود هو بطبيعته وجود لفناء Sein Zum-Endes أو وجـود للمـوت Sein Zum-Tode فبمجرد ان يولد الانسان يكون ناضجا للموت) •

ان هذا التقييم أو هذا المعنى المعطى لواقعة الموت هو الذي دعا الى وصم الوجودية بالانهزامية والتشاؤمية ، اذ أنها جعلت واقعة الموت حدا يقطع الامكانيات الانسانية عن الوجود وعن استمرارية السيال الحياتي في الجسد وبهذا فهي تنطلق من هذه الواقعة راجعة الى الوراء لتقرر معنى العمر وقيمته فتحصره في هذا الزمان الميكانيكي الذي يبدأ انتهاؤه بالموت وتنتهي بدايته بالولادة • ان الفلسفة الوجودية تراجعية في موقفها هذا ، وذلك لان الموت أو مشكلة اني أموت – كما يعبر كيركيجارد – انما تدفعنا الى تفاؤلية منفتحة نحو – لا الى تشاؤمية عدمية متقوقعة في – •

والحق ان المنطق الذي يبدأ في العدم – الموت – ينتهي الى العدم الذي تعطيه الوجودية معنى اللاشيء واللاحقيقية والتفاهة • والمنطق الصحيح – ومشكلة الفلسفة مشكلة منطقية كما يقول برتراندرسل – انما يبدأ من الوجود ولينتهي حيث تقود استمراريته الوجودية الديناميكية ، ولا

نريده أو نقصد به الى التفاؤلية او التشاؤمية ، اذ ان ذلك مما يدخل المنطق الذهني التصوري خلال منحنيات منطق الواقع الوجودي ، وعند ذلك نكون دوجماطيقيين في فلسفتنا أو نكون قصديين ــ بالمعنى الهوسرلي . فكأننا انتهينا من حيث ابتدأنا .

يقــول Pevhen (انني لا أفكر بموتي من اجل الموت ، بل من أجل ان أحيا) على ان هذا كلام أديب أكثر منه كلام فيلسوف كما انه **تفاؤليا قصديا** ونينومونولوجيته واضحة للعيان ، ولعل الاعمق بعدا وأقوم منطقا قــول غارين Gavine (الحياة لا تعادل شيئا ولكن شيئا ما لايعادل الحياة) وهذا الحكم وان كان سلبيا الا أن حقيقته مستمدة من واقعيته ومصادقتها للمنطق العقلي .

والشيء الذي نريد أن نقرره هو أن الموت نهاية منطق العمر وليس قاطعا لاستمراريته (وأخيرا هل الموت هو توقف وانقطاع للدزاين(١) ؟ فنحن نقول انقطع المطر ، وان اللوحة قد انتهت وان الجدار قد أعد . بيد أنه لا يمكن أن يطابق واحد من هذه المعاني الموت . اذ أن موت الدزاين ليس هو توقفا أو انتهاكا واعدادا ، فان الدزاين باعتباره ليس موجودا بعد انما هو نهاية . والموت ليس حادثا خارجيا ، وانما هو حالة مؤسسة لوجود الدزاين من حيث هو موجود) .

هذا ما يقرره منطق الواقع الحياتي من حيث الولادة **حدوثا** تسبق الموت ، وبما ان الموت نهاية خط فعلينا أن نستثمر كل امكانياتنا في الحياة وأن نعصر حياتنا **ولنكون** شبقين في احتضانها ، اذ أننا لازلنا أحياء وبهذا فنحن نحس الخصب والبعد الحيوي في الوجود . وهل صار نيتشه فيلسوفا حياتيا وداعيا الى الانفتاح الشبقي على العالم ورائد الديونيزوشية الاول الا لانه قرر ان الحياة في خطر هي الحياة الحقيقية ؟ بل حتى اذا اعترفنا بمشكلة (اني أموت) فلماذا لا نسمح لانفسنا أن نقر منطق نيتشه هذا فنقول ان الموت قيمة الحياة ؟ قال مطاع صفدي معلقا (اي الحياة في خطر » هي تلك التي تبقى دائما على ينابيع الوجود الذاتي ثرة صافية ، تطفر دون أن يعيقها أي تقييم خارجي ثابت ، فمخاطرة الموت هي فرصة الحياة الوحيدة ، في اللحظة التي تنال الحياة في هذه المخاطرة شدتها وتوترها الاعلى) . ويقول في موضع آخر (والموت هو الذي يكشف الظل الحقيقي للحياة التي سبقته فقد كتب مالرو في رواية الامل « ان القيمة الرئيسية للموت هي أنه يجعل ما سبقه لا يمكن التعويض عنه ابدا » .

ان موتي لا يصدني عن ممارسة حريتي اذ أنه وجود ضمني في حياتي

---

(١) الدزاين :ــ Dasein مصطلح لهيدجر ترجمها عبدالرحمن بدوي بالانيـــة وقال مطاع صفدي انها غير قابلة للترجمة واستعملها بلفظها . وتعني الوجود المتحقق في الان أو الوجود ــ في ــ العالم .

(فان الموت ليس موجودا ، ما دام أن الناس لابد ان يموتوا) ، فانا حر ومصيري البطولي بيدي والعالم غني بالامكانيات التي تهبني حريتي القوة على تحقيقها وممارستها • ان ادراكي لمنطق الحياة ومعرفتي بنهايته العدمية ــ الموت ــ هذا الادراك مما يزيد من غنى ذاتيتي ومن تصميمي المطلق على ممارسة حريتي ، ومن ثم كون حريتي **وجود فعال** في محيطي • (ولكن ليس معنى ادراك الموت ، هو جعل الحياة في حالة موت بطيء ويأس مستسلم للفنـــاء) •

انني أملك هذه الحياة وهذا الشبق المنفتح نحو احتضانها ، انني أملكني وهذا ما يجعلني احيا الحياة الى ذروتها في اعلى نموذجيتها لا أن احتقرها وازدري امكانياتها ، فكيف اذا أدركت أنها ستضيع مني وأنهـــا فرصة يمكن استغلالها ؟ الا يزيد ذلك من انفتاحي عليها ؟

ولو فرض اني أصبت بمرض قاتل وقرر الطب اني سأموت بعد فترة قصيرة من الزمن فماذا سيكون موقفي تجاه هذا التقرير ؟ وهل يؤثر باستجابتي للتقرير انتابي كوني أعـرف ان هذا التقرير أو هذه الواقعـة ــ الموت ــ اعتباطية في الوجود ولا معقولة ؟ أو معرفتي بها على أنها نتيجة نظام ومعقولية ، ومن ثم هل أذهب لانزوي في زاوية من العالم واحثو على رأسي التراب ؟ انني ولا شك سأكون مجنونا اذ أن استجابتي هذه غـير مجدية ولا معقولة ايضا ــ هذا على افتراض ان الموت مشكلة ــ فان كانت الوجودية تقرر ان الموت هو ذروة الاعتباط واللامعقولية ، فان هذا يختلف عن معقولية أو لا معقولية استجابتي لها فتقرير اللامعقول في الوجود لا يعني الاستجابة اللامعقولة في الذات ، اذ ان الوجودية حينما قررت اللامعقولية في واقعة الموت خاصة لم تقرر معها لا معقولية استجابتي لها وذلك لان الاعتباط واللامعقولية في الموت منفصل عن استجابتي ، كما أن الموت خارج عن ارادتي بينما استجابتي تكون بارادتي وتحت اشراف تفكيري المنظم •

ان الوجوديين يريدون أن يكونوا متفائلين ــ على ما يبدو في البدء ــ أكثر مما يجب ، بحيث أنهم يبحثون عن معنى (المعنى) ليعيشوه ولكن بذهن وفهم • ان كونهم **مفكرين** أكثر مما يجب هو الذي جعلهم يتصورون الحياة لا معنى لها لانهم يحصرون المعنى في (الحقيقة) لا في الواقعة ، أو على الاقل يبحثون عن المعنى في (الحقيقة) لا في (الواقعة) ، وكذلك كونهم يتعلقون بالتفكير المنظم ــ مبدئيا ــ قبل وصولهم القصدي الى تشاؤمهم في منطقهم العدمي ــ انما يجعلهم يخلطون بين الواقعة والحقيقة ومنطق كل منهما كما بينها اشبنجلر ان الحيـاة والموت واقعتان تدركان بالاحساس والمعـــاناة لا حقيقتان تدركان بالعقل المنظم ، انهما تعاشان لا موضوعتان للتفكير ، والموت خاصة يكون فرديا (ففي الموت يتم الشعور بالفردية الى أقصى حد اذ يشعر من يموت أنه يموت وحده لا يشاركه في موته أحد) • ان حكم الفرد الخارجي على موت الآخرين انما يجعل ذلك الفرد خارج المعاناة ومن ثم

خارج فهم الموت وبهذا الحكم يخفي الفرد عن نفسه قلق الموت بأن يحاول أن يعلل ويبرر حقيقة الموت المطلقة ٠

ان الحياة رغبة ضمنية في وجودها وليس لا معنى حقيقي في لا حقيقيته ولا معقوليته ٠

ان منطق الوجوديين على هذا منطق ذهن وتصور لا منطق تجربةوانفعال بل يمكن تسميته منطقا أرسطيا لا منطقا حياتيا رغم ان كيركيجارد رد على هيجل مذهبه العقلي ورغم أنه قرر ان لا حقيقة الا للانفعال ٠ وهذا التقرير - منطق الوجوديين الذهني - يؤيده نقد سيمون ده بوفوار لسارتر حين وصفته بانه يترك التجربة أو الواقعة في سبيل أن يقف خارجها ويقيمها فهو لذلك لا يعايشها ٠

وهناك نقطة مهمة جدا في تقرير واقعة الموت هي أن الوجودية تدعي ان الموت يقطع الامكانيات عن التحقيق ، ولكن هل الموت الا امكانية اخيرة يحققها الفرد ، ان الموت تحقق امكانية الوجود في العدم وليس تحقق العدم في الوجود كما تريد الوجودية ان تفهم ٠ أي ان الموت وهو آخر الامكانيات تحقيقا وأبعدها عمقا انما يكون بتحويل أمكانية الوجود في العدم الى وجود في العدم ٠ وهذا فيه من الايجابية الشيء الكثير ٠ كما ان العدم اذا كان سابقا على الوجود سببا فانه ليس بامكانية ابدا وانما هو عدم ولا يمكن بذلك أن يتحقق العدم في الوجود ابدا وانما يتحقق الوجود في العدم وذلك في الموت ٠

كما ان الزمان الدرامي الذي تحاول الوجودية ان تصف به العمر والذي تصفه بأنه الفاعل الاهوج في مجرى حياة الانسان انما هو المسؤول عن تشاؤمية هذه الفلسفة ايضا اذ أنه هو الذي تتحقق بوجوده الامكانيات الانسانية اي وجود الانسان وبقصره وانقطاع استمراريته بالموت تقف هذه الامكانيات عن التحقق وبذا يكون الانسان غـير موجود في الوجود الوجودي ٠ ولكن حتى لو كان الزمان ذا بعد طولي ميكانيكي كما تصوره الوجوديون فان الحياة تعاش عميقا أو عرضيا وقد قيل رواية عن ابن سينا انه كان يريد ان يحيا حياته عرضيا فقيل له وهل للحياة طول وعرض قال نعم تجد الرجل يعيش ثمانين عاما يأكل ويشرب وينام وذلك لا أحسبه عاش سوى يوم واحد ، وتجد الرجل ينفعل ويفرح ويضحك ويرقص ويغني ويحيا في يوم واحد وذلك اليوم يساوي ثمانين عاما من أعوام الرجل الاول ٠

وفي هذا العمر والزمان الكيفي يعوض الانسان عن فقدان الاستمرارية الحياتية للنشاط الانساني اننا ان لم نستطع أن نعيش كل انفعالاتنا وان نحقق كل امكانياتنا فاننا نستطيع أن نحتضن العالم بكليته ونموت ، قال مارفيل يخاطب حبيبته :

« دعينا نلم كل قوانا ٠

وحلاوتنا في حزمة واحدة
وتشق لذتنا بصراع عنيف
خلال ابواب الحياة الحديدية
فما دمنا لا نستطيع أن نسمر الشمس في مكانها
فلنجعلها تركض »

هنا اذا كانت الشمس متحركة حقا فكيف اذا لم تكن «حقا» ، على اننا نبدو راكضين خلف الاشياء وكان علينا ان نقرر حقيقة وجودنا ومن ثم ننطلق الى تقرير مسيرنا ، اننا حياة او جسد حي - لا بالمعنى المادي فقط - وهذه هي حقيقتنا ونحن نستطيع أن نروي رغباتنا بارادتنا ونروي جسدنا ونشبع من افرازاته المادية والمعنوية - ان صح التعبير - ونستطيع ان نشبع من الارض والسماء فلماذا لا نموت أو ليس المعنى أن الزمان هو الـــذي يشبعنا وانما هو القوة التي نحتضن بها الحياة ونضمهـــا الى صدرنا ونمتص ثدياها .

والحقيقة ان الوجوديين مرضى شبقون للتقييم بعد فقدانهم القيمـــة الميتافيزيقية والقيمة في نظرهم هي كل شيء بل أهم من وجود الشيء نفسه وبما ان لا شيء له قيمة - معنى - على استنتاجهم فلا شيء يستحق الاجهاد . ومن هنا تتبدى لنا فلسفتهم السلبية وهكذا يقرر سارتر « ما دامت كل الطرق تقود الى اللامكان فانه لا يهم اى الطرق نختار لنلاقي فيه نشاطنا وفعاليتنا » بل أن مرض التقييم هذا يصاحبهم حتى في تقييم عدمهم فهـم ينطقون بلسان ممنجواي (ان معظم البشر يموتون كالحيوانات لا كالبشر) بل انهم يقررون انهم لا يشتهون الحياة بالبساطة نفسها التي يقررون بها لون الحذاء الذي يلبسون حتى صورهم ت٠س اليوت بقوله : « اني أعدأيامي بملاعق القهوة » .

ملاحظة : - في الحقيقة ان من الصعب دراسة الفلسفة الوجودية على انها ذات نظرة واحدة في الوجود لان الفلاسفة الوجوديين لكل واحد منهم نظرة في الوجود قد تختلف عن نظرة غـــيره لاعتمادهم على الفردية وعدم التمذهب . وهذا ما دعا الدكتور عبدالرحمن بدوي الى دراسة كل فيلسوف على حدة وسمى كتابة دراسات في الفلسفات الوجودية . ومن هذا فأنا لا ادعي ان كل الفلاسفة الوجوديين لهم نفس النظرة التي انتقدتها وانما اتبعت أشهر ما قيل فقط .

●

رأي في الموشح الأندلسي

كريم توفيق العاقص

يكون الغناء أحيانا مبعث الشعر عند العرب ، وهو كذلك مبعث الموشح عندهم ٠ وقديما قالوا : ان الموشحات انما وجدت نتيجة التطور المتطور الحضارى الذى شهدته بلاد الاندلس ٠ وكان الناس قد ملوا التزام القيود التي فرضت على الشعر القديم فاتجهوا الى ابتكار أوزان جديدة ذات ألفاظ رشيقه توافق النهضة الغنائية الشاملة حتى ظهر الموشح ٠

على اننا نلاحظ ان الموشح بحد ذاته فن طريف يدخل النفس فيسبب لها ارتياحا وانبساطا لا سيما اذا كان من النوع البسيط الواضح الذي تستسيغه الاذن وتستحسنه العين كالموشح التالي :

حي الوجوه الملاحا وحي نجل العيون
هل في الهوى من جناح
أو في نديم ٠٠٠ وراح
رام النصيح ٠٠ صلاحي

ففي هذا الموشح كلمات جميلة عذابة ليس فيها ما يبعد القاريء عنها مثل حي ٠٠٠ الملاحا ٠٠ نجل ٠

فالناظم كان لطيفا حين تساءل ٠٠ هل في الهوى من جناح ؟
وكيف أرجو صلاحا بين الهوى والمجون ؟

وهو قد طرق معاني بأسلوب رشيق عرضها للقاريء فبدت صافية الشكل ، خالية من الجمود تسحره بنشوة الطرب ونغمة الارتياح ٠

فالموشح ناجح من حيث الشكل ان جمال مبناه يفوق أهمية معناه ٠ وأهم ما فيه بساطة نظمه وطريقة صوغه ، كما نلاحظ ان التعابير الجميلة لم تنته عند هذا الحد انما تستمر في طريقها :

أبكي العيون البواكي
تذكار أهل السماك
حتى حمام الأراك
بكى شجوني وناحا على فروع الغصون

ان اعجابنا بالموشحات يزداد كثيرا وتأثرنا يتركز بعيدا اذا ما تطرق مواضع لها أهمية ، أو تلك التي تثير عاطفة الانسان ، وتحرك شجونه كما تجدد حبه واشتياقه • أما اذا انحرفت الى ذكر أشياء تافهة فانها خرجت عن أن تسمى موشحا بالمعنى الصحيح • ونحن نعتقد ان أكثر الموشحات نجاحا ما كانت تدور حول الغناء وتنسجم مع الايقاع والموسيقى لاغراض الحب أو للمواقف التي تقبل عليها النفس •

وهناك من يقول أيضا ان تقدم العرب العقلي في الاندلس ، ورقيهم العلمي ، والفني دفع بهم الى الثورة على الادب القديم ، فثاروا على صوره وأشكاله ، ولم يسمح لهم اتصالهم الفكري أن يثوروا على مقاصده وأغراضه ••• والذي يتردد على ألسنتنا الآن •• كيف يجوز أن نصدق انهم تمردوا على القديم وملوا صوره وأشكاله واتجهوا الى شيء فيه من التعقيد والالتزام ما يفوق الالتزام الذي يحيط بالشعر القديم • ان هذا الاتجاه قد يكون معقولا بالنسبة للموشحات التي تكون قصيرة الوزن بسيطة التراكيب واضحة المقاطع ، أما بالنسبة لبعض الموشحات التي تتعدد أوزانها وتختلف تراكيبها وتتنوع مقاطعها فليس فيها اتجاهات مهمة سوى الهروب من الاعراب • فكأن أصحابها حينما يصنعون التحريك تارة والتسكين تارة أخرى فانه يكون شفيعا لهم عن الوقوع في أخطاء نحوية كثيرة •

ونحن نعلم ان اللغة العربية في هذا العصر وصلت مرحلة تختلف عما سبقها من العصور السابقة حين كان الشاعر متضلعا في اللغة ، شديد الاحساس بمعالمها ، يقظ الخاطر بتراكيبها كما أن ادخال وجود ما يسمى بالاقفال وتراكيبها ، والابيات وأجزائها ، والخرجة وما أشبه ذلك فضلا عن حدوث الالتزامات الشديدة فانها تؤدي الى اضطراب الموشحات وابعادها عن الاستقرار والقبول •

نعود الان فنتصفح الموشحات التي بين أيدينا والتي تمثل جزءا من أدب هذا العصر •

فالموشحة التالية جميلة التركيب عذبة الصياغة والشكل لكن تنقصها روح العاطفة الصادقة وهي تبدو أقرب الى التسطير لاظهار المهارة والبراعة ، وأحوج الى قوة المعنى وحرارة النظم حيث يقول :

آه ممـا أجـد   شفني مـا أجـد
قـام بي وقعـد   باطش متئـد
كلمـا قلت قـد   قال لي أين قـد

ولا نستطيع ان نتعرف على درجة خيال الشاعر ، فالتعابير سطحية عابرة ، والكلام متكلف ما دامت هناك استعمالات متناقضة •

ذبـت الا قليـل   عبـرة أو نفسا
ما عسى أن أقول   سـاء ظني بعسى

واذا ما قاربنا النهاية فهناك يقول :

قد رأيتك عيان   ليس عليك ساتدري   سايطول الزمان   وستنسى ذكرى

أهو صدق هذا الذي ينطوي وراء التعبير ، أم لغرض اظهار البراعة في النظم والمهارة في التعبير •

بعد هذا التعرف السريع على الموشحات ، نجد ان اكثرها يفتقر الى تدفق العاطفة • لان العاطفة الصادقة اذا لم تكن صادرة عن احساس عميق فهي فارغة وخافتة •

وحظ الخيال كحظ العاطفة تقريبا • فان اكثر الموشحات تمتاز بتعابير سطحية ، واضحة المعاني ، وصور عادية ، أو قل خاطفة ، فاذا كان هذا هو الشأن فما نفع الخيال وما دخله ؟ الصحيح ان الخيال لا دخل له الا في بعض الموشحات القوية التي فيها تراكيب جميلة ذات صورة نادرة • هذه الصفة لا يعرضها للقاريء سوى خيال خصب يتعمق في باطن الاشياء فيأتي بألوان مثمرة ••• او نلقي مثلا نظرة على هذا الموشح وعندما نصل الى قوله :

وقد سرى أرقم	على عندم	فلا يلتــــم	وقــد حكم
من السحر	لقتل أبطال	من الانباط	جيش من الزنج

نرى أن الشاعر عندما ذكر كلمة فان الثانية حضرت في ذهنه رأسا ، أو انها حاضرة في الظاهر وذلك للقرابة بين المعنيين ، والترادف بين الشكلين والشبه في الصيغتين ، فهو عندما يقول من السحر • لقتل أبطال ••فانه حتما سيذكر كلمة الانباط ثم الزنج •

اذن فالتعابير سطحية تافهة فلا عاطفة صادقة وهي أبعد من أن تدخل هنا ، وهو أعظم من أن يحشر نفسه في ألفاظ موجودة أمام العين ، ورابضة على السمع • وما دام هذا الشأن في الموشح ، فلا فائدة ولا فضل لصاحبه وناظمه سوى تسطير الكلمات ووضعها بقالب فني :

الحسن موقوف	عليك يا أحمد
والامــر معروف	اليك يا أغيــد
عبـــدك مشغوف	فيــك ومستعبد

فالناظم يلح على استعمال الجار والمجرور والمنادى في اتجاهات لانفع فيها • ولا ننسى أيضا ان بعض الكلمات وردت بلهجات مختلفة لا تساير الذوق الادبي • اسمع قول الناظم في الموشحة التالية :

سافر حبيبي سحر وما ودعتو   يا وحش قلبي   في الليل اذا افتكرتو

ماذا يسمى هذا : هل هو أدب صحيح حتى يتذوقه الناس ؟ أين منهم

ومن تخلصهم من أوزان الشعر التي رفعت مجد العرب الى القمة في وقت ما -- تمام انه ليس من الخطأ التحرر من تلك الاوزان الى اتجاهات جديدة ، لكن ليس الى تلك التي لا هدف لهـا ولا استقرار • يدفعها الاضطراب ، والتنوع المملّ في الصياغة والتراكيب • ولكن من الانصاف أن نقول ان الموشحات لم تهو الى هذا الدرك من الضعف والبعد عن الاساليب الفصيحة الا في عصور الانحطاط • ولعل ذلك ناجم عن أن الحرية التي جاء بهـا الموشح لم تقتصر على الوزن والقافية ، بل شملت اللغة والاسلوب وقادتهما الى العامية والاسفاف • ولو قدر لشعراء عباقرة ، وهم يستثمرون حرية هذا الفن ، أن يحترموا نقاء اللغة وقوة الاسلوب القديم ، لكان هذا التجديد الذي جاءت به الموشحات تجديدا ناجحا • اللهم اذا استثنينا بعض موشحات مشاهير الوشاحين الاندلسيين كابن زهر ، وابن بقي ، وابن سهل ، ولسان الدين بن الخطيب ، وابن سناء الملك • هذه الموشحات تتسابق روعة وبهاء في موسيقاها وعذوبة ألحانها ورقة معانيها ، منها هذه الموشحة الشهيرة لابن سهل الاشبيلي قال :

هل درى ظبي الحمى أن قد حمى ... قلب صب حله عن مكنس(١)
فهو في حر وخفق مثلما ... لعبت ريح الصبا بالقبس

* * *

يا بدورا أطلعت يوم النوى ... غررا تسلك في نهج الغرر(٢)
ما لقلبي في الهوى ذنب سوى ... منكم الحسن ومن عيني النظر
أجتني اللذات مكلوم الجوى ... والتذاذي من حبيبي بالفكر

* * *

غالب لي غالب بالتؤدة ... بأبي أفديه من جاف رقيق
ما رأينا مثل ثغر نضده ... أقحوانا عصرت منه رحيق
أخذت عيناه منه العربده ... وفؤادي سكره ما ان يفيق

* * *

فاحم الجمة معسول اللمى ... أكحل اللحظ شهي اللعس(٣)
وجهه يتلو الضحى مبتسما ... وهو في اعراضه في عبس(٤)

* * *

أيها السائل عن ذلي لديه ... لي جزاء الذنب وهو المذنب
أخذت شمس الضحى من وجنتيه ... مشرقا للشمس فيه مغرب
ذهبت أدمع أجفاني عليه ... وله خد بلحظي مذهب(٥)

* * *

وهي تعتبر من أشهر الموشحات في الاندلس وقد عورضت معارضات

كثيرة أشهرها معارضة لسان الدين الخطيب نقتبس منها هذه الابيات :

جادك الغيث اذا الغيث همى ... يا زمان الوصل بالاندلس
لم يكن وصلك الا حلما ... في الكرى أو خلسة المختلس

* * *

اذ يقود الدهر أشتات المنى ... تنقل الخطو على ما ترسم
زمرا بين فرادى وثنا ... مثلما يدعو الحجيج الموسم
والحيا قد جلل الروض سنا ... فثغور الزهر فيه تبسم

* * *

في ليال كتمت سر الهوى ... بالدجى لولا شموس الغرر
مال نجم الكأس فيها وهوى ... مستقيم السير سعد الاثر
وطر ما فيه من عيب سوى ... أنه مر كلمح البصر

* * *

حين لذ النوم شيئا أو كما ... هجم الصبح هجوم الحرس
غارت الشهب بنا أو ربما ... أثرت فينا عيون النرجس
أي شيء لامرىء قد خلصا ... فيكون الروض قد مكن فيه
تنهب الازهار فيه الفرصا ... أمنت من مكره ما تتقيه
فاذا الماء تناجى والحصا ... وخلا كل خليل بأخيه
تبصر الورد غيورا برما ... يكتسي من غيظه ما يكتسي
وترى الآس لبيبا فهما ... يسرق السمع بأذني فرس

* * *

أحور المقلة معسول اللمى ... جال في النفس مجال النفس
سدد السهم فأصمى اذ رمى ... بفؤادي نبلة المفترس

* * *

اننا لا نجد في هذه الموشحات من المعاني ما يجلب انتباهنا ، ولكنها تخلق لنا جوا غنائيا محببا تلامس فيه نفوسنا بعذوبة موسيقاها ورشاقة ألفاظها وفيها من الالفاظ الفصيحة ما يرفع من مستواها ويزيد من قيمتها الادبية على مر العصور .

(١) حمى الحمى : دفع عنه ، والمراد هنا استقل وحده بقلبه . المكنس : مأوى الظبي ، وقوله عن مكنس ، أي بدلا من مكنس .
(٢) الغرر : جمع غرة ، أي طلعة وجوه الحسان . الغرر : بالفتح : التعريض للهلكة .
(٣) الجمة : مجتمع شعر الرأس . اللعس : سواد مستحسن في الشفة .
(٤) الضحى وعبس : من سور القرآن ، وفيهما توريتان جميلتان .
(٥) مذهب : مطلي بالذهب ، والمراد هنا مورد خجلا .

أناهيد

مؤيد العبد الواحد

« جعل العرب القدماء من كوكب الزهرة آلهة للحب سموها أناهيد » ..

شعت أناهيد على العالم
نشوانة تغمز للقادم
هيمانة تطبق أجفانها
مجنونة تسكب ألوانها
يغمز للعاشق اشفاقها
تذهب الوادي أحداقها
من هتك الاستار في المشرق
تلك أناهيد على شوق
سامرة العشاق في الصيف
مري على عيني كالطيف
انفاسك الحرى حبيب الهوى
نبهت الحلم بحب طوى
عاشقة الليل اما للدجى
فلم أزل خيطا أدار الرجا
ضجت بروحي ذكريات الألم
كميت يطرح ثوب العدم
النور في عيني لا يشرق
اين ليال بالهوى تعبق
عبر خيالي مر طيف الحبيب
واغتبط الشرق بمرآها
فتشعل الاشواق عيناها
وتارة تصحو على مهل
من شبق تهفو الى الوصل
وتمنح الضوء له والخيال
وتلبس العتمة ثوب الجمال
من بدد الاوهام والمحال
تبدد الاشباح بين الظلال
في شرقي الكاتم أسراره
شق من الظلمة أستاره
مشعشعا في قدح الشاعر
صفحاته في أمسي العابر
من غدوة ؟ طال عذاب الضمير
مغزله عنه وشسع الحرير
أنى يميض منك بعد انطباق
فيبصر الهول دجى واحتراق
غشاه حزن منك بعد الوداع
وانت تهدين الي الشعاع ؟
ودثر الروح بدفء الامل

فرحت في غيبوبــة لا أجيب
زوح أناعيــد تنير الدروب
وينعس العالم بعــد الغروب
ما لأناشيد الهوى لا تجيب
طاف على التل خيال كئيب
عشتار يا أنشودة العاشقين
ابتهلــي للحــب والذاهبين
ذيا صليب الحب قبل الصليب
تهفين في الجــو كطير غريب
مرت بنا بين ظــلال النخيل
لا تهتــدي الا بنــور يسيل
الجدول الوسنان بعد النهار
مغــازلا أسراره في القــرار
وزورق الفكر عرتــه الرياح
أنعس في غــاب بناه النباح
في موطني الغافي على الحزن
مدينتي تنــام من وهــن
أحن للنخيــل في القريــة
من كل يوم مر بي عديــه
معابر العشــاق يا جــدول
يا حب ما بالــك لا تنــزل
عشيشي المهجــور ما أوهنه
يهــزه اسـم الله في المئذنــة
هناك في القرية عند الاصيــل
يمر بي فارســها الجميل
أود لو أمــوت في المســاء
هيهات ان يملأ كاسي الرجاء

والكوكب النائي يصب القبل
تذيب للعشــاق انفاســـها
الا جــوى الصب وحراسهــا
تمضي الــروح الى ضمهــا
ينبــه الاطيــاف من نومهــا
في مذبح الحب قبيل الصباح
للعالم السفلي عند الرواح
ضمي على الكون ذراعيــك
وتطعمين الليــل عينيــك
قوافل الحــب الى البيــد
من نبعــه بــين الاغاريــد
يشتار من ينبوعــك الحــاني
ترقص عن شــلال ألــوان
ملتجئا لرفسة في الظنــون
أدواحه السكرى نبات العيون
شمعي على الاموات في الشمال
بين الروح المسرد والنصال
طفولتي .. أرقبهــا تذبــل
وكل عــام عــابر منجــل
عشــي عليها مر اعصــار
ويا أناشيــد إطرقي داري
حيكي له من سحرك الاسمر
والنسم الخافق في المعبر
أرعى قطيع الشــك والهموم
يسابق الريح لافق النجــوم
خيطــي لي الاكفان من ضوئك
وترتوي الامال من نوئــك .

الأصل في كلمة الملاحة

رضا الهاشمي

قد تثير هذه المقالة في أصل الملاحة استغرابا كبيرا لدى الكثير من المعنيين بمفردات اللغة العربية ، والمفردات الاعجمية التي دخلتها ، وأصل تلك المفردات • والمتوقع لدى القارىء أن تنسب أصل أي كلمة تستعمل في العربية وتبتعد عنها في الاصل الى لغات الشعوب التي لعبت دورا ساسيا واجتماعيا وثقافيا في تاريخ البلاد العربية ومنها العراق بصورة خاصة ، كالفرس أو الاتراك أو الروم أو اليونان أو الهنود او مجموعة الشعوب واستخدمت استخداما كبيرا ، لا من عامة الناس فحسب ، بل حتى في اللغة الاوربية الحديثة ، فدخلت بعض مفردات لغات هذه الشعوب اللغة العربية العلم والادب والمعرفة ، الا ان القارىء سيجد في هذه المقالة ، انها ترجع اصل كلمة استخدمها العرب في شتى ديارهم ، ولفترة زمنية طويلة ، الى اللغة السومرية ، لغة سكان العراق القدماء ، أمر حسب اعتقادي لا يثير الدهشة والاستغراب بقدر ما يفتح آفاقا جديدة أمام الاختصاصيين بهذا الفرع من المعرفة لتقصي أصول كثير من المفردات المستعملة في اللغة العربية ، والتي من أصل غير عربي ، سواء كانت في اللهجات العامية للعرب أو التي تستعمل في لغة الادب والمعرفة •

ان مما يزيد في طرافة هذا الموضوع هو الفترة الزمنية التي تفصلنا عن عهد السومريين والتي تقع في حوالي خمسة آلاف سنة ماضية ، وبالرغم من بعد هذه الفترة ، فهناك كثير من المفردات والاسماء وخاصة في اللهجة العامية العراقية ، يعود أصلها الى اللغة السومرية ، وآمل أن يحالفني الحظ في تقديمها الى القراء في مقالات قصيرة •

وقبل الدخول في صلب الموضوع ، أود ان اشير الى أن اللغة السومرية هي لغة السومريين ، أقدم الاقوام التي استوطنت ارض بلاد الرافدين في قسمها الجنوبي ، والذين لا يزال البحث العلمي لم يتوصل الى جواب قاطع حول اصلهم ، وأصل لغتهم ، والمجمع عليه علميا لحد الآن ، هو أن السومريين شعب استوطن جنوب بلاد الرافدين ، منذ حوالي الالف الرابع قبل الميلاد ، وتكلم هذا الشعب لغة ذات مميزات خاصه لا يجمعها مع غيرها من اللغات القديمة عائلة لغوية وقد سميت « باللغة السومرية »

وابتكر طريقة للكتابة سبق غيره من شعوب العالم القديمة في استخدامها ، هي الكتابة المسمارية ، التي بقيت سائدة ، رغم اختلاف الحضارات واللغات ولهجاتها والتي سادت العراق بعد زوال حكم السومريين السياسي حتى القرن الخامس ق٠م٠ وتدين الحضارة العراقية والعربية بل وحتى العالمية الى هذا الشعب بالكثير حيث يعتقد انه واضع أسس مختلف فروع العلم والمعرفة البشرية ، وقد أخذ هذا الاعتقاد يتحول تدريجيا الى حقيقة علمية نتيجة لاتساع اعمال التحرى والتنقيب الاثرية وتطور علم السومريات منذ بداية النصف الاول لقرننا الحالي ٠

يعرف الجميع بان السفر فوق المياه سواء كان نهرا أو بحرا يصطلح عليه بكلمة « الملاحة » و « الملاح » هو الشخص الذي يدير شؤون واسطة السفر المائية ، من قارب صغير الى مركب شراعي أو باخرة حديثة ، أي هو الشخص الذي يسير هذه الواسطة ، وتصرف البعض فاطلق مجازا على السفر في الجو بالملاحة الجوية وعلى مصرفي شؤون الطائرات بالملاحين ، وتوسع آخرون في استعمال هذا المصطلح ، فأصبح يرادف في معناه كلمة النقل أ والسفر بأي واسطة كانت ، فتقرأ مثلا عنوان شركة تحت اسم « شركة الملاحة عبر القارات » ٠

فمن اين جاءت هذه الكلمة وما هو أصلها ٠٠ أهو عربي ٠ وما هي تفسيرات اللغويين العرب لها ٠

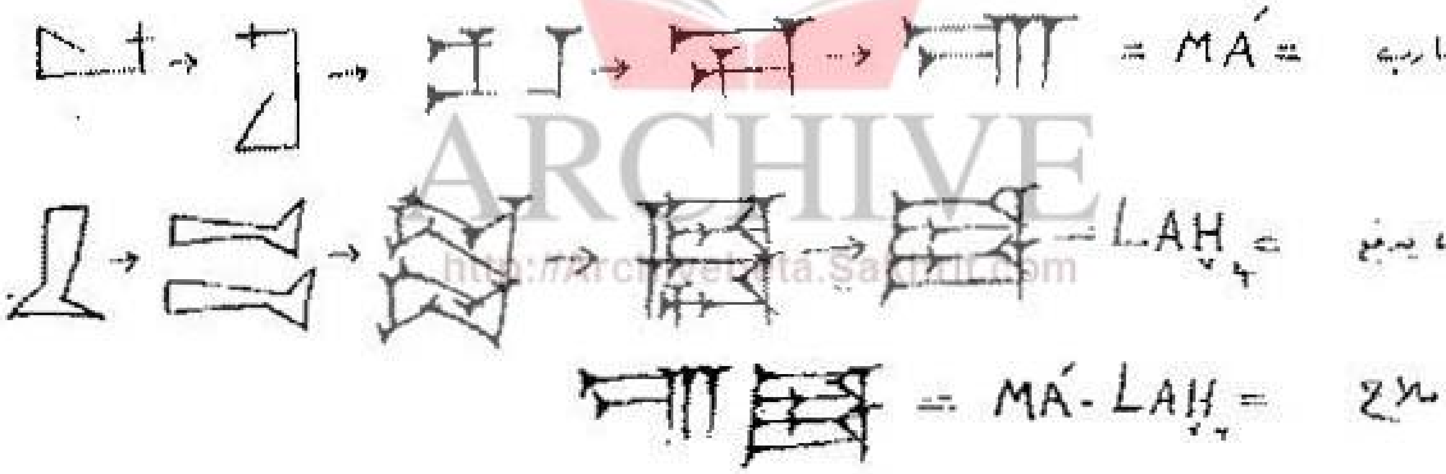
يذكر ابن منظور في كتابة لسان العرب (ج٢ ص ٦٠٠) (والملاح ـ النوتي ، وفي التهذيب صاحب السفينة ، لملازمته الماء الملح ، وهو ايضا الذي يتعهد فوهة النهر ليصلحه وأصله من ذلك وحرفته الملاحة والملاحية)وينقل نفسه عن ابن الاعرابي قوله (الملاح ـ الريح التى تجرى بها السفينة وبه سمي الملاح ملاحا) وجاء في القاموس للفيروزآبادي (المجلد الاول ص ٢٥٠) (الملاح ، النوتي ومتعهد النهر ليصلح فوهته وصفته الملاحة بالكسر) ، وورد في المحكم والمحيط الاعظم (المجلد الثالث ص ٢٨٦) (الملاح ـ النوتي لملازمته الماء الملح ، حرفته الملاحة والملاحية) ، ويذهب الى مثل هذه الآراء في اصل الكلمة ابن دريد في جمهرته (المجلد الثاني ص ١٩١) ، وتاج العروس (المجلد الثاني ص ٢٢٩) ٠

يتبين من ذكر آراء وتفسيرات اللغويين العرب لهذه الكلمة بأنهم يرجعونها الى سبب ملازمة الملاح الماء المالح ، فأخذ اسمه من ذلك ، ويضعف هذا الراى اذا عرفنا بان الملاحة ليست فقط في الماء المالح وانما في المياه العذبة ايضا اى الانهار بالاضافة الى ان اللغويين العرب لم يجمعوا كلهم على هذا الرأي والرأي القائل بان ريح الملاح هي اساس للكلمة حجة غير قوية أيضا ، اذا عرفنا أن اسلوب الاعتماد على الرياح في تسيير القوارب والسفن الشراعية سبقته أساليب بدائية بسيطة مثل السحب والدفع

بواسطة العصا الطويلة (مردى) ، وان اسلوب الاعتماد على الرياح جاء بعد ان تقدم العرب في علم الجغرافية ودرسوا تحركات الرياح ، وتمكنوا من استغلالها في اغراض الملاحة ، هذا بالاضافة الى أن وسيلة السحب أو التجديف أو الدفع بواسطة العصا عملية أكثر في الملاحة النهرية .

بالاضافة لما سبق ، فان قواميس المفردات العربية لم تشر الى وجود فعل مشتق من اسم الملاح أو الملاحة أو أن يكون هناك فعل كأصل اشتق منه هذا الاسم ، ولم تزد اشارة اللغويين العرب عما ذكر سابقا .

ان أصل الاسم « ملاح » والذي اخذ عنه المصطلح « ملاحة » هو من اللغة السومرية من الاسم السومري الذي ورد بالشكل التالي « ما ـ لاخ » اسم مركب من كلمتين الاولى « ما » وتعني قارب أو مركب والثانية « لاخ » فعل بمعنى يدفع ، وعند تركيب الكلمتين أي « يدفع القارب » نحصل على تركيب الكلمتين أي « يدفع القارب » نحصل على تركيب بديع يفسر فيه اسم الملاح وذلك من عمله كمسير للقارب أو مصرف لشؤون سفره على الماء . واليكم شكل العلامتين في مراحل تطورها المختلفة من العهد الصوري الى العهد الآشوري الذي لم تتغير بعده العلامات المسمارية للكلمات :ـ



لقد أخذ الاكديون ، أول الاقوام السامية التي استوطنت العراق واختلطوا مع السومريين ثم سيطروا على الحكم السياسي عام ٢٣٥٠ ق.م. هذا الاسم مثلما أخذوا عشرات الاسماء والمفردات السومرية الاخرى وذلك عندما بدأ الاكديون يهيئون مقومات حضارية تميزهم عن السومريين وتوفر لهم شروط الحكم ودوامه ، فترجموا الى لغتهم كثيرا من المفردات واقتبسوا كثيرا غيرها كذلك ، فحوروا اسم « مالاخ » باضافة التمويم في نهاية الكلمة فقط وهي احدى مميزات اللغة الاكدية فاصبحت الكلمة على شكل « مالاخوم » .

والسؤال الان حول كيفية تحول حرف « خ » الى « ح » وفي الحقيقة ان هذا الموضوع لغوي معقد فاذكر فقط ان هذا الحرفان هما من مجموعة الحروف الحلقية أي التي تكون مخرج نطقها من الحلق ، وهي « آ ، ع ، غ ، هـ ، ق » بالاضافة الى الحرفين السابقين ، ويحدث غالبا ان

يستبدل حرف بآخر من المجموعة ذاتها وذلك حسب سهولة نطق أي من الحروف على الشعب الذي يستخدمه ، ولدينا مثل على ذلك في اسـم « حمورابي » الملك البابلي الشهير حيث يرد اسمه بشكل « خامورابي » و « آموروابي » وأمثلة على ذلك في اللهجات العامية كثيرة مثل « قاعـد ، جاعد ، كاعد » وبناء على ما سبق فان تغير الحرف « خ » الى « ح » في اسم « مالاخ » أمر ليس بالغريب ، ويكون اسمنا الحالي « للملاح » قـد جاء من الاصل السومري « مالاخ » والاصح في نطقه مالاح أو ملاح وليس « ملاّح » بتشديد اللام •

والمعتقد ان اسم « مالاخ » جاء بصورة دقيقة من عملية تسيير القوارب الصغيرة الذى يصطلح عليه محليا في جنوب العراق « بالمشحوف » وذلك بواسطة عصا طويلة (مردى) يثبتها الملاح فى قعر النهر ليدفع بواسطتها القارب الى امام ، واعتقد ان هذه الوسيلة يمكن اعتبارها من أقدم انواع الملاحة •

وقد اصطلح السومريون تسمية الذين يمارسون هذه المهنة ، وعسي دفع القوارب أي تسييرها بالكلمة المركبة التي سبق شرحها « مالاخ » • وقبل أن أنهي الموضوع ارغب في لفت نظر القارىء الى أن الفعل السومري « لاخ » قد يكون له صلة بالكلمة الدامية « لاخ ، يليخ » والتي تعني ذهب سريعا أو هرب أي بمعنى آخر ، الحركة السريعة ، ولعدم وجود فعل في القواميس ومعاجم اللغة العربية بهذا الشكل ، فيكون من الارجح نسبة الى الاصل السومري « لاخ » •

والى لقاء آخر مع أصل اسمي « دجلة والفرات » عصبا الحياة لهذا البلد منذ اقدم الازمان ، كما أرجو أن أكون قد وفقت في الاشارة الى منبع غزير لقسم كبير من تراثنا اللغوي •

● ●

التحولات لدى شاكر حسن آل سعيد

اعد المقابلة

صالح عمر الشريف

مرة في بغداد كانت كلمات شاكر حسن سعيد تنداح لدى جماهير كثر ببساطة متناهية : تعبر عن رؤيا جديدة وفريدة في الآن نفسه · على حين غرة استأذن شاكر الجمهور ·· قطع المحاضرة للحظات ·· الى أين ؟؟ تساءل الجمهور وقتها ·· ذهب شاكر ليصلي ·· ذهب ليجمع شتات نفسه في صلاة خاشعة ·· مرة أيضا في بيروت استأذن الشاعر العظيم بدر السياب (رحمه الله) ليصلي ·· ولكن ·· بطريقة أخرى ·· وشتان بين الطريقتين ·

في بغداد – وعلى وجه التحديد في الصليخ – حيث التقيت بشاكر حسن · الواقع ، كنت قد سمعت الكثير عنه لدرجة خيل الي انه رجل اسطوري على الرغم من انه يعيش بيننا ، وفي عصرنا ؛ سمعت من يقول ليس ثمة كاتب عربي كشاكر يكتب بعمق · كانت خطاي مسرعة لسبب بسيط وهو اللقاء بثلاث عوالم مرة واحدة · سالتقي بثلاث عوالم · سالتقي بشاكر الكاتب والفنان والانسان ·

السؤال الأول : من البداية ··· حياتكم ؟

شاكر – ولدت في السماوة عام ١٩٢٦م من عائلة ذات جذور قبلية ، من عائلة تمثل البرجوازية الصغيرة · تنقل والدي كموظف ساعد على تكوين أبعادي الفولكلورية والتجريدية في ذات الوقت · ذكرياتي مرتبطة بشدة بمناظر السفن الشراعية في الفرات كقلعة سكر ، والحلة · وكذلك لا زالت ذكرياتي مرتبطة بالأسماك الملونة ببعض الانهر في منطقة حدود العراق الشرقية كبدرة · وبعد ذلك استقر بنا المقام في بغداد ·· في الكرخ ، أنهيت دراستي الابتدائية والثانوية في محلة باب الشيخ ·· هذه الذكريات ترتبط بذكريات أول حركات التحرر في العراق – ١٩٤١ – · وبعد تخرجي من دار المعلمين العالية (كلية التربية) سكنت الاعظمية · كما أني استوطنت بعقوبة مدة من الزمن استطعت خلالها ان استرجع ذكريات الملامح الشعبية الريفية القديمة في هذه المدينة الجميلة · نسيت ان أقول اني اكملت دراستي في معهد الفنون الجميلة · وبدأت أول نشاطي في الكتابة

(النقد الفني) في عام ١٩٥٥م • وكذلك سافرت في بعثة فنية لم اكمل فيها المدة الكافية للحصول على الشهادة • ولكن هذه البعثة جعلتني اتشرب من العالم الثقافي ما استطعت كما انها افسحت لي المجال للتزود من مناهل الفن العالمي • ما زلت منذ عام ١٩٥٩ أمارس التعليم •

السؤال الثاني : بوسعنا ان نقول ان نتاج أعوام الخمسينيات يعبر عن المرحلة الالتزامية في الفن والأدب ، وأعوام الستينيات تعبر عن المرحلة التموزية كما يقال ، فهل يصدق هذا عليكم ؟؟

شاكر ـ كتاباتي في الخمسينيات ترسم نوعا من التجريد في التفكير أو بالاحرى ـ بايمان خفي ـ يظهر أحيانا بمظهر الحادي وخصوصا في دراستي في الفولكلور الشعبي (محنة الشمر) • في نفس الوقت يعبر عن مأساة فكر يتعذب بالنسبة للمطلق ؛ أريد ان اقول حتى في محنة الشمر على الرغم من نزعته الالحادية يتضمن ايمانا متكبرا ان جاز التعبير • في المقالة التالية لمحنة الشمر (هلع السندباد البحري) مشبعة بالالتزام الوجودي الملحد •

كتاباتي ما بعد الستين وخصوصا كتاباتي في مجلة الاقلام البغدادية تعبر عن ايمان ظاهر وواضح • الواقع ، لقد حدث في أعماقي تحول من التفكير الوجودي الملحد الى الايمان بالله وبالتالي اتسم تفكيري بتفكير مؤمن • هذا الايمان الذي ظهر الى حد ما نتيجة اختيار وجودي محض ، وكذلك نتيجة معاناة تجربة وجودية صوفية • بدأت أتأمل قبل أن أخلق • كنت أعتقد سابقا ان الفنان يكون ولكن اتضح لي ان الفنان يتأمل • التأمل يكون بعد فهم ابعاد الالتزام • الخلفية لهذا التحول من ناحية التجربة الايمانية فاني كأي مسلم في أعماقه أبعاد ايمانية • ولا تزال اجواء المساجد القديمة منطبعة في ذهني • كان هناك مسجد مجاور لبيتنا وكنت اتطلع اليه واسرح في الظلمة والمجهول والمطلق • ولا تزال عبارة المؤذن محفورة في أعماقي ـ عمري عشرة سنوات يومها ـ والتي يؤذنها في الفجر « يا أرحم الراحمين ارحمنا واوصلنا اليك » •• كلمة الوصول كنت افكر فيها لا شعوريا • بعد ذلك توفي هذا الرجل وقال والدي ـ وهو رجل متدين ـ : لقد وصل الآن المؤذن • الواقع ان المحاولة للوصول هي طريق في الوصول الى الحقيقة • الشيء الآخر والسبب في تحولي هو البيئة • بعض الآيات رسخت في أعماقي (واعدوا لهم ما استطعتم من قوة •••) الآية الكريمة • عندما كبرت واجهني تناقض بين عواطف متفتحة تموج بالحياة ورغبات جسدية من جهة ، وبين الحفاظ على التفكير الديني من جهة أخرى • تمزقت بلا رحمة • رفضت الازدواجية ؛ الرفض للازدواجية أنهى التمزق • تم ذلك بعد واثناء مراحل تحصيلي الأكاديمي في دار المعلمين العالية • طريقة التفكير العلمي جعلتني أفكر تفكيرا الحاديا وجوديا • حينما ذهبت الى باريس عانيت

مجددا تناقضا جديدا بين القيم الغربية ـ قيم العالم الذي كنت أعيش فيه في باريس ـ والتي كنت أحاول ان اتعلمها بالممارسة لها وبين ما في أعماقي من ترسبات دينية والتي كانت تصدر من صميمي • وعلى مثل هذا المحك ما بين الثقافة المدرسية التي كنت أتبنـاها ، وما بين الحياة الحضـارية الغربية صاحبة هذه الثقافة والتي لم تستطع الصمود أمام ما في اعماقي من جذور كانت أبعد واعمق من ان تنالها الحضارة الحديثة وتجتثها خصوصا اني وجدت شخصيا ان الحضارة الحديثة نفسها لا تطبق عمليا ما تدعي به • لم تكن حضارتهم عمليـة بدليـل سلوك الأوربيين انفسهم فمثـلا ، اللغة الفرنسية ، كنت أحاول أن أتعلمها على انها وسيلة للتفاهم خالية من أي تعقيدات بلاغية وايماءات غير مباشرة • على حين تعلمي للغة يعتمد على ادراكي لمعنى هذه البلاغة غير الضريحة وبالتالي استطعت ان ادين الحضارة الغربية بعدم صلاحيتها • كنت مثلا اكتشـف بعض العـادات التي تبدو ظاهريا حسنة كالأمانة مثلا أو الحـرية في السلوك • كنت ألمس وبكل سهولة ان العملة التي توضع في صندوق خاص من قبل أي شخص بعـد شرائه جريدة من بائع غائب لا تسرق • ان هذه العملة لا تسرق أبدا • ولكني بنفس البساطة كنت ألمس الجشع عند أصحاب الثروات أو التجار وحتى الجشع الذي يمثله المفكرون والمثقفون الذين يقولون دائما ان الجزائر هي جزء من فرنسا وليس للعرب حق طبيعي فيها • الدافع المادي بلاشك هو الذي يجعلهم يقولون هكذا •

تمرضت أثناء وجودي في باريس • ومرضي الذي هو ـ ربما كان سببه ارهاق عقلي أو نفسي ـ تجربة حاسمة في ايماني باستحالة تحمل الانسان لمسؤوليته وان بالامكان ان تلعب الصدف دورها ازاء الانسان وتتحكم في مصيره ، ثم في نفس الوقت ، كنت أشعر اني بلغت درجة من التداعي •• أشبه ببناء على وشك الانهيار • يومها اتخذت قرارا حازما في بناء داخلي وكان هذا البناء هو أن أتحكم في ما يمكن ان أسميه بالعادة ، وتمكنت أن أترك التدخين والمسكرات مثلا •• هذه المحاولة اعطتني معنى جديدا للحياة وهو مصداق قوله تعالى (لا يغير الله ما بقوم حتى يغيروا ما بأنفسهم) • من هنا بدأت استمد صفاء روحي نتيجة محاولتي للتحكم بنفسي •• ومثل هذا الشيء الظاهر له انسجام مع طريقة معينة في التفكير التي تعطي أهمية لما هو ضد العقل ؛ وهو ما يسمى بعامل المشاهدة وليس الاستدلال ، عامل الباطن وليس الظاهر • بعد رجوعي الى العراق تعمقت في تأملاتي الداخلية فاستطعت تطبيقها على العالم الخارجي • الفن المجرد لا يمكن أن يصـدر باعتقادي الا عن عقلية ونفسية ذات أبعاد تجريدية

ولذلك فان الايمان أو الاعتقاد بمثل هذا الفن يتناقض حتما والعقلية العلمية ، فكان من دواعي تشـبثي بالفن المجـرد هو ان اكون متصالحا

ومنسجما مع ذاتي المؤمنة ، ومع ما هو يطمئنني في الوقت الحاضر أيضا . ممارستي للتجريد جزء من تجربتي الصوفية .

السؤال الثالث : من المعروف انكم من مواليد عام ١٩٢٦ وهو ذات العام الذي ولد فيه بدر السياب . ومن المعروف أيضا انكم عاصرتم السياب في دار المعلمين العالية وزاملتم السياب فيما بعد . نحب ان نستمع الى ذكرياتكم عن السياب ؟؟

شاكر – كنت التقي بالسياب وكاظم جواد وبلند الحيدري دائما ؛ وكان النقاش دائما يحتدم بين بدر والآخرين في كل الأحوال . بالنسبة لبدر كانت تربطني به صداقة فكرية . وكنت التقي به في صالونات الخمور والمقاهي لدرجة ان بدر كان اكثرنا ديناميكية والتي لا تقل هذه الحيوية حتى في شعره . انه كان يروم التمتع بالحياة دفعة واحدة لأنه كان يحس بموته في كل لحظة . كان يقرأ لي بعض قصائده كقصيدة (في المغرب العربي) . هذه القصيدة معجب بها الى حد كبير . (كتبت دراسة عن هذه القصيدة وسوف انشرها قريبا) . تفكير بدر بصورة عامة تفكير الحادي . ان هذه القصيدة وقصائده الاخرى فيها تجريد في القيم ومغالاة في المزج بين الطبيعة والاشخاص وهذا ما دفعه الى قول أشياء تبدو الحادية . كنت والسياب نلتقي في رصد الاسس الشعبية ، وفي مقالتي عن (في المغرب العربي) اوضحت رؤى السياب الشعبية . وكنت متخما بالرؤى الفنية مما دعاني الى رسم الحوت والعباس ورأس الحصان .

الواقع ان تجربة بدر في الأدب الحديث عظيمة وعميقة الجذور . اهميتها تعود الى أن بدر حاول ان يمارس نوعا من الطريقة الجديدة الشعبية والتي رصيدها تراث وادي الرافدين وكذلك شعور الفنان الذاتي في تشرب القيم الطبيعية سواء من الناحية المكانية او الزمانية . الرمز في شعر بدر كان يمثل ذروة التحطيم للواقع وخلقه من جديد بصورة تجعل الانسان معلقا بين الأرض والسماء . السهروردي – المتصوف – يشير الى هذه الناحية (الطائر هو التجسد الحيوي للانسان) هذه عبارة تشير الى معنى الرمز بهذا الشكل .

السؤال الرابع – يقول جبرا ابراهيم جبرا « ان امثال جواد سليم لا أعتقد سيتكررون في مستقبل الفن العراقي الا بتكرر المعجزات » هذا القول يوحي لنا بسؤالكم في التحدث عن نصب الحرية المقام في بغداد ونستمع ايضا الى ذكرياتكم عن جواد سليم كصديق وفنان وانسان ؟؟

شاكر – الحقيقة ان ثمة روابط تربطني بجواد وهي غالبا روابط ذهنية وفكرية وفنية . اعتقد ان جواد من عظام المفكرين في العراق . كان برؤياه الفنية يعبر عن بساطة الانسان وحرية الانسان في التفكير . مثلا

ان بعض الفنانين عندما كانوا يعودون من الخارج كانوا يرددون ما تعودوه وتعلموه في الخارج من سلوك وأعمال فنية • على حين جواد يتصرف بكل بساطة مع الناس ، ويحاول ان يلتـزم مـواقف فنية وفكرية • كان العالم الخارجي بالنسبة لجواد غير ذي أهمية لأنه يستمد مواقفه من رصيد فني داخلي • لذلك كان جواد يأخذ على عاتقه اعادة القيم المنهارة نتيجة استيراد أفكار غير محلية • اتفق معه في هذا المجـــال • في رأيي ان نصب الحرية المثبت في مقدمة حديقة الامة هو ثمرة ما توصل اليه جواد في انجاز فن محلي وباسلوب حديث ، وهذا هو هدف جماعة بغداد • هذا النصب يمثل من ناحية أخرى بداية أو على الاقل ارهاصا بقيم انسانية في الفن العالمي لم يتم انجازها • اقول (عالميا) بمعنى كون النصب صادرا عن قناعة تامـة بالفن التأملي • فان ممارسة جواد لهذا الانجاز (الى جانب النية الصادقة) في عمله للتأمل في الحياة العراقية لمراحل طويلة • وقد قال لي جواد اثناء لقائي به (انه لم يلتزم هذا النوع من الاسلوب الفني الشكلي الا لأنه مكرس للجمهور) ؛ وبمعنى آخر كان بامكانه ان يلجأ او يتعمق في ممارسة التوصل باسلوب اكثر تطورا لو لم يكن يعرف انه ينجز عملا سيوضع في ميدان عام • طبعا كانت وفاة جواد سليم المفاجئة خيبت أملي في انتظار منجزات أخرى ذات نزعة تأملية صرفة على مستوى الفن العالمي •

باعتقادي ان نصب الحرية يضع علامة استفهام بل علامة تعجب امام الفكرة الشائعة بتحريم العمل الفني في الاسلام • فهو لا يمكن ان يعتبر عملا تجسيديا أبدا لأنه لم يجسد ملامح أشخاص ولا حتى مواقف عاطفية معينة لأشخاص معينين وانما كان يحاول أن يعبر عن الحياة نفسها لانه يجسد تلك الحياة • فعمله الفني أشبه بحكاية رمزية كالتي يرويها السهروردي في رسالته (اصوات أجنحة جبرائيل) • ومن هنا اذا كان ثمة رمـــزا في أعمال جواد فهو الرمز المعبر عن مأساة الانسان في الحياة • وقد يكون نصب الحرية رمزا لما يعانيه جواد نفسه • لقد استطاع جـــواد الانسان والمفكر ان يعبر عن الحقيقة أو الفناء في عبـــادة الله عبر تأملات ذاتية • عبادة الله (ترى هل يمكن ان تعطي رموزا دينية لاختفاء الرؤوس في بعض تفاصيل منجزاته والاستغناء عن الاقدام في تفاصيل اخرى ؟؟!) •

• •

تجاربة نزية في شعر ديك الجن

فوزي كريم

يتفق دارسو الشعر العربي على ان فترة القرن الثاني والثالث تعتبر تحولا في هذا الشعر باعتباره مفهوما ذوقيا جماليا ، في وجهتي الشكل والمضمون ، وقد مثل الوجه الأول أبو تمام بشكل بارز والوجه الثاني الشاعر أبو نؤاس ٠

ولعل ابرز ما نتبين في مفهوم الدعوة الجديدة منظور فرضته ارضية الحياة العربية الجديدة ٠ يؤكد نزعة التمرد (ان صح أن يسمى هذا الذي وقع فيه أبو نؤاس وصحبه والمتنبي وأبو العلاء وابن الرومي تمردا) ، وما يلتبس في هذا من احساس بالغربة وتصور للزمن والموت(١) وبحث عن الخلاص في الخمر والجنس والدين على حد سواء ٠

وفي الشكل يطلع علينا أبو تمام بثورته على عمود الشعر ، لأن العصر بدأ يؤكد على كل مفهوم انتقالي لا يلازم شرطا معينا يجعله حدا من الحدود ، كما برز طابع التبسيط ، والتأنق ، بعد تجاوز الطريقة البدوية القديمة لبناء القصيدة(٢) ٠ أي « أصبح لدى الشاعر بالاضافة الى هاجس التعبير هاجس جديد هو كيفية التعبير »(٣) ٠

واذ يحاول الناقد أن يرسم صورة لرجل شاعر كديك الجن يجد نفسه يرسم لوحة تخطيطية للعصر كله ٠

ولعل أول صعوبات الموقف في مواجهة شخصيته هو قلة ما جاءت به المصادر عن حياته وأدبه ، فضلا عن شعره ، فهو متفرق بينها على قلته ٠ وقد أتاح الله له أستاذين من بلدة حمص فجمعا ـ بجهد مشكور ـ ما وقعا عليه من شعره(٤) ٠ من ترجمته في الأغاني (ج ١٤ ص ٥١ دار الكتب) الى ترجمته في وفيات الاعيان (ج٢ ص ٣٥٦ ـ ط. ١٩٤٨) ، الى ما استشهد به من شعره في العمدة والمستطرف ومحاضرات الأدباء ، والمثل السائر .. وغيرها ٠

وما جاء عن حياته لا يمكن الدارس من الاحاطة بها بالقدر الذي يرغب فيه ، فاخباره في الأغاني قليلة جدا ، تكررها على قلتها المصادر الاخرى ، والذي يشعر بالحرج ان ما ورد من شعره لا يمثل كل ما كتب ، فاكثر

شعره لم يحفظه جامعو الشعر ، ومؤرخو الأدب ، ربما لأنه لم يكن من أدباء الدولة ٠

ولم يبق أمامنا الا أن ندرس الشاعر من خلال ما ورد الينا من هذه الابيات والمقاطع المتناثرة ، كما ان قلة ما ورد لنا من أخباره يدفعنا الى تأكيد أبعاد فكره ومشاعره التي تدل على خميرة حياتية رائعة ٠

فيما ورد من شعر الشاعر تتبلور — على حد ملكته — مواقف انسانية واضحة لسبب انه في جميعها يحدد فلسفة بينة يكرزها في كل تجربة يؤديها في معاشه ٠

الشاعر قبل كل شيء تجربة أخلاقية في وسط يعين عليه تورثته الاخلاقية هذه ، ومفهوم الاخلاقية لا يؤطر بحكم موضوعي متفق عليه بضرورة حكم الاخرين ٠ بهذا يكون الشاعر ديك الجن رجلا اخلاقيا ، لانه استفاد من وسطه العربي آنذاك في خلق قيمة جديدة — ان لم تكن موضوعا فهي هذا الاحساس الدائم بالثورة من القديم الى الجديد ٠

من هذا المنطلق أحب أن اشير الى نقطتين ، احداهما : مدرسية الشاعر ، والاخرى : علاقة كونه شاعرا بكونه انسانا فلسف حياته وانطلق منها بخصب وثراء ٠

ففي الاغاني(٥) ورد عن الشاعر انه « شاعر مجيد يذهب مذهب ابي تمام والشاميين في شعره » ٠ هو اذن من مدرسة ابي تمام — التي عرفت في تاريخ الشعر بحدودها البديعية ، وتفننها في اختراع المعاني وفي الاغراب ٠ وما ورد من شعره يؤكد هذا الاتجاه المدرسي بلا شك ٠ ولكن ذلك كله يحتكم به المنظور الفني للناقد ٠ اذ يتوهم نقادنا انهم يتوسعون في مدى فنية العمل الادبي مشاعر الاديب وانفعالاته الداخلية ، وذهبوا في ذلك مع أبي تمام ولكنهم لم يرجعوا الا بعلائم الثورة الشكلية في عمود الشعر العربي ٠ دون أن يتصلوا بجوهر شخصيته الوجودية التي ملأت فراغ حياته ٠

وأمر آخر يفيد في توجيه هذا الرأي ، فقد ورد في وفيات الاعيان ، بعد الاعتراف بجودة شعره رواية عن عبدالله بن محمد بن عبدالملك الزبيدي يقول فيها « كنت جالسا عند ديك الجن ، فدخل عليه حدث فأنشده شعرا ، عمله ، فأخرج ديك الجن من تحت مصلاه درجا كبيرا فيه كثير من شعره ، فسلمه اليه ، وقال : هذا فتى من أهل جاسم يذكر انه من طيء ، يكنى أبا تمام ٠٠٠ »(٦)

نفيد من هذا النص — مع ما يحتمل من شك — في أن الرجل لم يكن يعتمد على شعره في كسب عيشه ، وهذه ظاهرة بارزة في شخصه(٧) ، حفظها له مؤرخوه ، وثانيا ، ان ابا تمام لابد قد تأثر به بعض التأثر ، فانت تجد في بعض ما كتبه ديك الجن مدلولات تؤكد هذه الروح البلاغية والزخرفية التي التزم بها معشر من الشعراء ، والتي انتهى بها أبو تمام الى ذروتها ، والمفارقة التي يتوهمها القارىء من مقالي الاصفهاني وابن خلكان

غير واردة اذا عرفنا ان ديك الجن هذا لا يملك من أداة الشعر الا كونها مظهرا من مظاهر حياته ، ومنفذا وجدانيا ينفس فيه عن مشاعره ، وهو ذاهب في هذا مذهب الشاعر المعاصر نزار قباني حين يقول :

كفاني اذا قيل اني أحس ولا أبتغي الشاعر الجيدا

وحين نستقريء شيئا من شعر هذا الرجل ـ ديك الجن ـ نجد ان مظاهر غير فنية تقف حائلا دون استقراء المظهر الفني لشعره • أي أنه يعرض لنا شخصية انسانية قلقة، في خصب من المشاعر وثراء من الاحاسيس، أولا وفي اطار جمالي ثانيا •

بعد هذه التقدمة نتوجه الى الشاعر لتدرس أبعاد انسانيته من خلال مجموعته ، وهي على قلتها تختصر بمواقف جديدة تثير التأمل في شخصية يقول فيها صاحبها :

أنا انسان براني الله في صورة جني
أنا لا اسلم من نفسي فمن يسلم مني(٨)

ولعل أول ما تجدر الاشارة اليه حادثة القتل التي أوقع فيها بزوجته « ورد » وما يتفق عليه مؤرخوه هو هذا الشك الذي انتابه بعد وشاية ـ مكذوبة(٩) ـ عن ابن عم له كان قد هجاه ، تقول ان علاقة ما بين زوجته وغلام له كانت تحاك بالسر في منزله بعد سفر له • والرواية أقرب الى الصدق منها الى الشك ، فقد ذكرها أكثر من مصدر ، وللشاعر قصائد كثيرة فيها • يستوقف القاريء منها هذه الابيات التي قالها الشاعر بعد الحادث :

ليتني لم أكن لعطفك نلت وإلى ذلك الوصال وصلت
فالذي مني اشتملت عليه ألعار ما قد عليه اشتملت

قال ذو الجهل قد حلمت ولا أعلم أني حلمت حتى جهلت

لا تلم لي بجهله ، ولماذا أنا وحدي أحببت ثم قتلت
••• سوف آسى طول الحياة وأبكيك على ما فعلت ، لا ما فعلت(١٠)

يستوقفه منها هذا الشعور بالمرارة التي تبطن احساسا بأن الانسان مخلوق تائه لا يمسك بيديه زمام مصيره ولكنه لعبة بيد قدر مسيطر ، وما عليه الا ان يتحسس هذه القوة ليعالج في داخله ألما وحسرة وخوفا • الى ذلك ترمي « ليتني » هذه ، ولكنها غير « ليت » التي عرفها العرب في أمانيهم ورغباتهم • انها « ليت » درامية تحمل في حروفها صراعا بين السلب والايجاب بين التردد والتحقيق • وهذه هي العلامة الفارقة التي تجعل من ديك الجن رجلا غريبا • فهو يحب « ورد » ولكنه يقتلها لانه يحبها بخصب ، هذا الخصب الذي يميز كل أبعاد الشاعر في الجنس والذاتية والاحساس باللحظة ، والموت •

وحين يحمل مرارة اليقين ينتفض سؤال ، لا يريد فيه غير تغليف الحقيقة :

« أنا وحدي أحببت ثم قتلت ؟ »

وهو وحده الذي أحب ثم قتل ، اذ لم يقل « أنا وحدي شككت ثم قتلت » ولكنه خشي مباشرة الحقيقة ، فتراه يذهب الى وجه الواقع الذي يرفضه : في أنه سيبكيها الحياة كلها على فعلتها لا على ما فعل • لانه لم يفعل شيئا ولكنها فعلت كل شيء •

وفي الموقف الملغز هذا يبرز الخصب الذي صدر عنه الشاعر في أول مواقفه ، فهو يجد علاقته بحبيبته كعلاقة دمها بالارض ، غنية ثرة ، انها المطلق الذي يصله بالارض يقول :

رويت من دمها الثرى ولطالما   روى الثرى شفتي من شفتيها(١١)

وأي مغزى تجده في هذا التشديد الذي في « رويت » غير النبض الشديد المتفاعل في الداخل ، وأي مغزى شديد نجده في هذه المقابلة بين ارتواء الارض بالدم وبين ارتواء الشفة بالشفة •

والحب عند الشاعر لا يحمل غير مفهوم الجنس ولا يرتبط به الا كرباط الدم بالارض ، علاقة جسدية ، فأنت لا تتوسم في شعره مصطلحات العذريين الذين يفصلون بين الروح والجسد ، ولا يجدون بينهما علاقة ما •

فهو يتحدث عن العشق والحب ، كما يتحدث عن مذاق الجسد وحلاوته، فالحبيبة الخفرة تغدو على اللهو والمجون باكرة وتسارع الى ما سارع اليه لتخلف من حبها فيه حرقا منشربة في جسمه :

أحبها ــ لا عدمتها ــ حرق   مطوية في الحشا ومنتشرة(١٢)

ويحس الحرمان والعطش لانه لم يذق منها جسدا كاملا :

ما ذقت منها سوى مقبلها   وضم تلك الفروع منحدرة

فهي في رأيه مذاق لا غير ، مادة للاشباع كالجوع والعطش ، ولا يساور يقينه شك في مفهوم الجنس عنده : اذ يقول أنّ :

« حد ما يشتهي ويعشق عندي   حيوان تحل فيه الحياة »(١٣)

وقد يؤاخذ هذا ، في أخلاقيته وفي نظرته للجنس وتعريفه اياه ، وما يتضمن هذا التعريف من خروج عن القيم واستهلاك للغرائز وابتذال في ملكة الاشباع • ولكن وجهة النظر هذه تتضمن ايمانا ــ أخلص له الشاعر وتفانى فيه ــ الا وهو الخصب الذي يمتلك على الشاعر كل أبعاده ، والحب الذي هو الجنس بعد من أثرى أبعاده الانسانية • وهو يريده ثريا مطلقا لا يقصر في مداه نقص • والخيانة في مجال هذا المطلق الذي يستأثر به نقص

يستوجب العدم الذي هو مطلق آخر ، فتراه يخاطب وردا :

« خنت سري ولم أخنك فموتي علانية »(١٤)

بعد ان عفر خده في الثرى طائعا لها ، وعزم لاجلها على دخول النار – على حد قوله – وماذا بعد الحب – الجنس غير هذا الموت الذي يترقب لحظة مواتية ليطيح بالخلق ويرجعهم الى أصولهم ترابا .

ومن الموت ينفتح الشاعر على العالم ليخلص له ، وليمتلك منه ما وسعته القدرة على الامتلاك ، وليشبع فيه كل غريزة وكل رغبة ، فما بعد الموت من شيء ، وهو حين يسترجع نفسه ليمحص الاشياء لا يجد ازاء الموت الا أن ينقلب الى اللذة اذ لا مجال لكل هذا :

فالعمـــر أقصـــر مـــدة ... من أن يمحص بالغير(١٥)

وما بعد غفلة المخلوق الا يقظة القدر ، وما بعد رقدة الناس الا عيـون اللصوص اذ :

يرقد الناس آمنين وريب الدهر يرعاهم بمقلة لص(١٦)

... فلم لا تحزم أمرك وتأخذ من زمانك ماصفا وتطلق يديك فيمـا حوليهما ، ولك أن تعرف ان كنت جاهلا ان بينهما قدرا يتربص بهما الدوائر لينقض عليهما ويرديهما وما حال معرفتك بمستقبلك بأحسن من حال معرفتك بحاضرك :

أطلق يديك فان بين يديك ما ... يرديهما ووراء حالك حـال(١٧)

وهو يواجه بأخلاقيته هذه أخلاقية المجتمع ، ويدعو بدعوته هذه مـن غفل عن طيبات الدنيا وخلى بينه وبينها ، كما غفل عن تربص الموت متجاهلا اياه ، ولكنه يتجه وجهة اخرى : اذ لا يكفي بتبصر الموت والحساب لـــه ، فهو يدعو بأخلاقيته منطلقا من مبدأ اللذة لترك اخلاقية الاخرين التي هـي مجموع قيمهم وتقاليدهم ، وما نتيجة كل ذلك الا هذا الضرب من العـدم الذي يستوي فيه (الذاكر والناسي) :

فا لـــه ودع عنك أحاديثهم ... سيصبح الذاكر كالناسي(١٨)

ولك مقطوعة صغيرة يضمن فيها الشاعر فلسفته في مبدأ اللذة هذا ، وايمانه باللحظة – هذا الايمان الذي يشكل بعدا آخر من شعره – اذ يقول :

تمتـع في الدنيا فانك فان ... وانك في أيدي الحوادث عان
ولا تنظرن اليوم لهوا الى غـد ... ومن لغد من حـادث بأمـان
فاني رأيت الدهر يسرع بالفتى ... وينقلـه حالـين يختلفـان
فأما الذي يمضي فاحلام نائم ... وأما الذي يبقى لـه فأمان(١٩)

وهو يلقي في هذه المقطوعة ضوءا على مشكلات عدة ، منها ، ايمانـــه بسبب ان لا شيء بعد اللذة غير الموت وقد تحدثنا عن ذلك ، ومنها مشـكلة الزمنية التي اختلف فيها أكثر شعراء الفكر ، وأخرى نظرتـــه للماضي والمسـتقبل ٠

فالايمان باللحظة الحاضرة مبدأ الشاعر ، وهو يؤكد عليه في اكثـر ما كتب ، ولا يدع هذا الحضور يفلت من يديه دون أن يشبع منه ويمتلىء ذاتيا ، وكأنه خلق لهذه اللحظة لا لغيرها ، وكل زمان عنده لحظة الحضـور هذه ، وما يجيء تقرره لحظته ٠

ونظرته هذه للابعاد الزمنية الثلاثة مترابطة بعضها ببعض اذ الحاضر يؤكد الماضي باعتباره تجربة مسبقة وما هو بعد ذلك الا (أحلام نائم) ٠ والمستقبل تأكيد آخر لاهمية الحاضر ، اذ هو وهم و (أماني) ومجهول في الغيب لا ينتهي فيه الانسان الى حقيقة تستغل والى ملاذ يعاش ٠

فالحاضر عند شاعرنا محور ونقطة امتلاك ، ولا امتلاك في الماضـــي والمستقبل ٠ وفي هذا الامتلاك يتحقق الخصب ـ أمنية الشاعر المطلقة ـ ٠

والحاضر سر مفتاحه اللذة و (مشافهة عظام الذنوب)(٢٠) على حد قوله، فهو لا يذهب مذهب التصور والحلم على أعتاب الماضي في الحب خاصة ٠ ولا يجعل قلبه موطن حنين دائم ورجوع متصل الى الماضي كما اعتاد على ذلـك أكثر الشعراء ٠

فهذا ابو تمام يقول :

كـــم منزل في الارض يألفـــه الفتى
وحنينـــه ابـــدا لاول منـــزل

كما انه لا يلتزم بنظام يحدد له موقفه من الحاضر الا نظاما يهيء له سعة اللذة والتمكن من الامتلاء ، فهو يأنف أن يوقف قلبه على مكان واحد ، ولكنه موكل بالتنقل والتجدد ، اذ حسب الانسان من عيش هوى بكر ووصل يستقبله جديد :

نقل فؤادك حيث شئت فلن تـــرى
كهوى جديـــد أو كوصـــل مقبـــل
مـــا ان أحـــن الى خـــراب مقفـر
درسـت معالمـــه كـــأن لم يؤهـــل
مقتى لمنزلـــي الـــذي استحدثتـــه
أما الـــذي ولى فليس بمنـــزلي(٢١)

ودعوة التجديد هذه والتخلص من ملالة التكرار ، دعوة تتصل بالتخطي الدائم ، وما هي الا حقيقة الحياة وجوهر الوجود ، فهذا الورد المشرق

حوما يتوجس خيفة من أقرب الناس اليه الا وهو العاشق من أن يصيبه من اقامته الدائمة ملال ، فهي تظهر له حينا وحينا تحتجب عنه لتكون أقرب الى قلبه وأملك لعواطفه (٢٢) فكيف بالانسان الذي يملك حقيقة العواطف ، والمشاعر . اذن فلنشرب (على شفة الحبيب) ..

شرباً يذكر كل حب آخر
غض وينسي كل حب أول

وماذا بعد الحاضر الا هذا الحد المطلق الذي نسميه الموت ، وتجاوزه خرافة لايدين بها الشاعر . وهو لا يضطرب في المسألة ، ويدين بها يقينا ، يقول في أبيات له :

أأترك لذة الصهباء عمدا لما وعدوه من لبن وخمر
حياة ثم موت ثم بعث حديث خرافة يا أم عمرو (٢٣)

ويقول في أخرى :

هي الدنيا وقد نعموا بأخرى وتسويف النفوس من السواقي
فان كذبوا أمنت وان أصابوا فان المبتليك هو المعافي
وأصدق ما أبثك ان قلبي بتصديق القيامة غير صافي (٢٤)

ولعل هذه الابيات تثير فينا ملاحظات منها ، انه يسخر من اولئك الذين يخلفون الدنيا وراء ظهورهم لينعموا بأخرى وما هو الا تسويف لا حقيقة له على حد قوله ، والاخرى انه يضع نفسه موضع الشك - للتجربة فحسب - فهو مصيب من حيث كذبوا واذا اصابوا فان لله معرفة أكثر من عباده في ان هذا العالم يتمكن من ساكنيه - كما تمكن منه - وليس له القدرة على ان يحول دون ذلك ، وثالثة يسترجع فيها يقينه فهو لا يصدق كل ما قيل . ومع هذا الاعتراف الذي يبدو يقينيا ، تضمر هذه الابيات روحا قلقة لا ترتاح الى شيء .

بعد كل هذا البناء الشخصي الذي يتميزه الشاعر ، ويوليه التأكيد والعناية ويخلص له تاركا خلفه كل قاعدة موضوعية تدارسها الناس وآمنوا بها في التيسير الحياتي ازاء الدنيا والدين ، وكل ماتمكن منهم ، من سبل العافية وأسباب التواكل ليحفل بخصب الذات ، وغناء الجسد ، فهو يجد الموت أخلص للنفس من الذل والخضوع والتواكل والضراعة الى الناس ، ويدعو الى طلب الرزق والسعي بالسيف ان اقتضى الامر (٢٥) .

واللذة أقرب المطالب الى النفس ، وأكرمها موضعا والدعوة اليها أحق من الدعوة الى تجنبها ، ولعل ما يحول دون ذلك المطلق أحق بالسخرية وأوجب بالمعارضة ، فهذا قريب الشاعر يحاول أن يمنعه ويحول بينه وبين

ما يؤثره ويبركه من لذاته - ولكن ديك الجن لا يجد فيه الا (أب للخبائث) وموطنا ، ولا يجد في طبائعه الا (الاخلاق القذرة) (٢٦) .

وهو لا يتوسم في العالم أي معنى اذا ما خلت كيسه من الدراهم التي تكفل له تنفيذ حاجاته ومطالبه ، واذا ما خلا بيته من طيب الملح والخل والزيت والدقيق . اذ ما قيمة العالم غنيا وهو لا يملك سبل الغنى ، وما قيمة الصديق والقريب – رمز العلاقة الروحية عند العرب – اذا لم يجد مايشبعه ويلذه (٢٧) .

وللحرية مسلك مطلق عنده ، لا تلتزم بمسؤولية ولا تؤمن بمواقف التواصل لاجل المجموع ... وحده ،

فتى ينصب في ثغر الفيسافي . كما ينصب في المقبل الرقاد(٣٨)

هذا الانصباب الذي يوحي بالانقطاع الى الارض في لا محدوديتها وفي توكيد علاقة جسدية معها . وتشير هذه الابيات الى الانفعال في استشعار الحرية والتلبس بالمفازة التي توحي بالتفرد والتوحد . ويخصب الشاعر برؤياه هذه صورة تجسد الحرية والانطلاقة ، قائلا في وصف مفازة :

يا رب خرق كأن الله قال له اذا طوتك رقاب القوم فانتشر(٢٩)

وينتشر هذا الخرق في قلب الشاعر وفكره فلا يوكل راحته لمراني في الحسبان .

ولديك الجن مقطوعة حلوة – أجعلها الختام لهذا الحديث – تعالج بحساسية مرهفة هذه الطريق التي تسميها الغربة والكآبة والتوحد ، يخاطب فيها حمائم حزينة ، يقول :

حمائم ورق في حمى ورق خضر لها مقل تجرى الدموع ولا تجري
تكلفن اسعاد الغريبة : ان بكت وان كن لا يدرين كيف جوى الصدر
لها حرق لو ان خنساء أعولت بهن لادت حق صخر الى صخر
فقلت لنفسي : ها هنا طلب الاسى ومعدنه ان ثانتي طلب الصبر
ظللنا ولو أعطى المنى لصحبتها
حماما ، ولو تعطى المنى لـروت شعري(٣٠)

لا أحسب أن متذوقا للشعر لا يقف ، وهو يقرأ هذه المقطوعة ، وقفة المتأمل ازاء البيتين الاخيرين مضمونا وشكلا ، او قل أسلوبا ، لا تجد فيه هذا التسيب الذي نتحسسه في قصائد عمودية كثيرة .

---

(١) في مقدمة القسم الاول من كتاب « الثوري والعربي الثوري » لمطاع صفدي بحث طريف في هذا الموضوع .

(٢) أمراء الشعر العباسي – مقدسي (بيروت ١٩٦٣) ص ١٩٥ .

(٣) ديوان الشعر العربي – ادونيس ج٢ ص٢ (المكتبة العصرية) .

(٤) عبدالمعين الملوحي ومحيي الدين الدرويش (١٠-١٢-١٩٦٠ - حمص) • وقد طبع ديوانه كاملا في بيروت سنة ١٩٦٦ بتحقيق الدكتور احمد مطلوب والاستاذ عبدالله الجبوري •

(٥) ج١٤ ص٥١ •

(٦) وفيات الاعيان ج٢ ص ٣٥٦ (ط محمد محي الدين ١٩٤٨) •

(٧) تذهب دائرة المعارف الاسلامية الى ان السبب في هذا « لا يعود الى مزاجه الخاص فحسب بل يعود أيضا الى احساسه بقصر باعه في الشعر •• » ولعلها تريد المدح • (مجلد ٩ عدد ١٠ ص ٣٦٦ • مادة ديك الجن) •

(٨) الديوان ص ١١٠ •

(٩) الاغاني ج١٤ ص٥٥ •

(١٠) الديوان ص ٢٨ •

(١١) الديوان ص ١١٢ •

(١٢) الديوان ص ٤٢ •

(١٣) الديوان ص ١١٨ •

(١٤) الديوان ص ١١٤ •

(١٤) الديوان ص ١١٤ •

(١٥) الديوان ص ٤٩ •

(١٦) الديوان ص ٦١ •

(١٧) الديوان ص ٩١ •

(١٨) الديوان ص ٥٩ •

(١٩) الديوان ص ١٠٥ •

(٢٠) الديوان ص ١٠١ •

(٢١) الديوان ص ٨٦ •

(٢٢) الديوان ص ٢١ أبيات في هذا المعنى •

(٢٣) ص ٤٧ •

(٢٤) الديوان ص ٦٦ •

(٢٥) الديوان ص ٨١ ، أبيات •

(٢٦) الاغاني ج١٤ ص٥٢

(٢٧) الديوان ص ٧٣ أبيات •

(٢٨) الديوان ص ٣٦ أبيات •

(٢٩) الديوان ص ٥٦ •

(٣٠) الديوان ص ٥٣ •

مصادر البحث

١ - ديوان ديك الجن الحمصي (جمعه وشرحه - عبدالمعين الملوحي ومحي الدين الدرويش ١٠-١٢-١٩٦٠ - حمص) •

٢ - الاغاني - الاصفهاني ج١٤ (ط دار الكتب المصرية) •

٣ - وفيات الاعيان - ابن خلكان ج٢ (ط محي الدين محمد ١٩٤٨) •

٤ - دائرة المعارف الاسلامية - المجلد التاسع - مادة ديك الجن •

الخائب

عبد الوهاب محمد علي العدواني

طويت من اليأس ليل الذكر ... وكان طويلا .. عصيب السهر ..
صحبت به نجمة في المدار .. وأخرى تحوم حيال القمر ..
فتدنو .. كأني بها صبة ... تسارقه قبلة عن حذر ..
ويدركها أمل في النوال ... فينأى .. ويتركها للضجر ..
فتنجر تبكي وتذرى دموعا ... تساقط في مقلتي كالشرر ..
تسامرني في ادكار الهوى ... صفيين في الصبوات الغرر ..
عشقنا وطالت بنا شقوة ... واعجزنا في الغرام الوطر ..

*

توهمت اني برجع الرؤى ... أسير الى الغد المنتظر ..
وتخلد نفسي الى راحة ... تصاحبني في بقايا العمر ..
سئمت اصطخاب المنى والشباب ... وطيشا تعلمت منه العبر ..
وحبا بدا لي كلمع الشهاب .. وغاب .. وعلقني بالاثر ..
سموت له في ربيع الحياة ... لهيفا .. الى روضه المزدهر ..
فتيا .. سكبت له خفقة ... تنورت منها في أماسي السمر ..
أهبت بروح اليراع الصبور ... على صبوة وقدت من سقر ..
فطاوعني .. مادرى أنني ... سأبحر خلف شراع عبر ..
سأتبعه في بحار الظنون .. ونأوي سويا الى (مستقر) ..
مضى هائما .. لم يجب داعيا ... وابت ولي خافق منكسر ..
عيوني ظمساء الى طلعة ... عرفت بها عصفات القدر ..
انام وفي وحدتي طائف ... مهيب .. يظل يثير الذكر ..
فاصحو ولي نظر شارد ... وشعر .. وبعض التعازي الاخر ..

*

تخذت لروحي مدار النجوم   رهين الدموع حليف الكدر ..
أحاول في غمرات الهوى رجاء .. اذا جئته يستتر ..
يسافر فكري بدنيا المنى   فأتبعه في مهاوي السفر
وأمضي .. فكم أمل حائر   يضيع .. وكم خفقة تستعر ..
هوان .. ضياع الشباب النضير .. تجرحه كاذبات النظر ..
كأني بحبي أرجو الجميل .. فيمسكه باخل مقتدر ..
وجئت أجر خطى خائب   جريح .. يبيت يدير الفكر ..



من علماء اللغة

فردينان دي سوسور

الدكتور خليل الحماش

١ ــ مقدمــة

فردناند دي سوسور (Ferdinand de Saussure) عالم سويسري ولد سنة ١٨٥٧ وتوفي سنة ١٩١٣ . ويعتبر سوسور اعظم مفلسف للنظرية اللغوية الحديثة (١) ويعتقد آخرون ان سوسور يحتل مركزا في الدراسات اللغوية يوازي مركز ابسن (H. Ibsen) في فن المسرحية الحديثة (٢) .

لم يؤلف سوسور أي كتاب يذكر في علم اللغة الا ان محاضراته التي القاها خلال السنوات ١٩٠٦ــ١٩٠٧ و ١٩٠٨ــ١٩٠٩ و ١٩١٠ــ١٩١١ جمعت من ملاحظات تلامذته التي دونوها اثناء القائه الدرس وطبعها اثنان منهم (جارلس بالي والبرت سكيهاي) في كتابه صدر باللغة الفرنسية سنة ١٩١٦وسمي Cours de Linguistique Generale واخيرا ترجم الكتاب الى اللغة الانكليزية سنة١٩٥٩ تحت عنوان Course in General Linguistics

٢ ــ آراؤه في علم الصوت

يميز سوسور ثلاث نواحي مختلفة لدراسة النظام الصوتي لاية لغة . الناحية الاولى تتعلق بالاصوات كظواهر فسلجية وفيزيائية لهــا وزن نفسي . والناحية الثانية تتعلق بشعور متكلمي اللغة نحو أصوات لغتهم . والناحية الثالثة تختص بدراسة التبدلات التي طرأت على أصوات تلك اللغة عبر العصور . وتسمى الناحية الاولى بعلم الصوت (Phonetics) والناحية الثانية بعلم الوحدات الصوتية (Phonemics) والناحية الثالثة والاخيرة بعلم تاريخ الاصوات (Historical Phonetics) (٣)

وعلم الصوت على رأي سوسور يختص باطلاق الصوت عند الكلام او كما يسميه هو (Acte Phonetaire) وبالصورة الصوتية التي يحملها الصوت او مجموعة الاصوات ، ويسميها سوسور (Impression Acoutique) فدراسة اطلاق الصوت تقوم على دراسة الحركات والاعضاء الصوتية التي

تتعاون على انتاج صوت معين وعلى اختلاف تلك الحركات من صوت الى آخر • ولشرح علاقة اطلاق الصوت بالصورة الصوتية يقول سوسور :

« تصور ان شخصين (أ و ب) يتحادثان • تصور ان بداية الحلقة في عقل (أ) حيث تقترن حقائق ذهنية معينة (افكار) باصوات كلامية معينة (صور صوتية) تستعمل للتعبير عنها • ففكرة معينة تطلق صورتها الصوتية في الدماغ وتتبع تلك الظاهرة السيكولوجية ظاهرة اخرى فسلجية : أي ان الدماغ يطلق حافزا يطابق الصورة ويؤثر على اعضاء الكلام • وبعد تنطلق الموجات الصوتية من فم (أ) الى اذن (ب) وتلك عملية فيزياوية بحتة • ويلي ذلك استمرار العملية في عقل (ب) ولكن بصورة معكوسة اي من الاذن الى الدماغ والى اطلاق الصورة الصوتية ثم الى عملية ربط الصورة الصوتية بالفكرة المناسبة (٤) •

اما فيما يتعلق بتصنيف الاصوات الى وحدات صوتية ففي رأيي أن سوسور ينحو منحى ارسطو في التمييز بين المادة والشكل والجنس والفرد • فالاصوات التي يمكننا علم الاصوات من تمييزها يوحدها علم الوحدات الصوتية الى اصناف ، فيقول سوسور مثلا عن الصوت (أ) في النسخة الفرنسية من كتابه (ص ٨٢) On parle de p Comme on parlerait d'une espèce Zoologique, اي ان الصوت (أ) يمثل صنفا من اصناف الاصوات قد يختلف عند نطقه من شخص لآخر او من موضع لآخر ، الا ان الاختلافا تطارئة ولا تغير من حقيقة كون الافراد ترجع الى الصنف الذي هو مجموعها • هذا من ناحية ومن الناحية الثانية فـان تلك الوحدات الصوتية ليست متميزة عن بعضها بالصفات العامة فقط بل انها تشكل امتـدادا (Contrasts) لبعضها البعض ومجموع تلك الاضداد هو جوهر اللغة • فالوحدات الصوتية علاوة على كونها ايجابية ومحددة فهي في الوقت نفسه سلبية ونسبية •

فالصوت (b) في الانكليزية مثلا علاوة على كونه صوت ينطق بين الشفتـين (Bilabial) وانه صوت منفجر (Plosive) هو ايضا ضد الصوت (p) الذي يشاركه كافة الصفات الا من ناحية اهتزاز الاوتار الصوتية عند نطقه وعدم اهتزازها عند نطق (p) • وهذا التضاد والتمايز يساعدنا بدوره على تمييز كلمتي (pin) و (bin) مثلا عن بعضهما •

والوحدات الصوتية عند سوسور عادة قليلة العدد ولكل وحدة اشكال عدة • ومن خصائص الوحدات الصوتية ان متكلم اللغة عادة لا يميز بين اشكال الوحدة الصوتية الواحدة • فالصوت (ب) مثلا في العربية مثلا

يختلف في أوصافه الدقيقة في الكلمة «بابا» عنه في «باب» الا ان متكلمي العربية لا يميزون بينهما بسبب كونهما شكلين لوحدة صوتية واحدة · الا ان متكلمي العربية في الوقت نفسه يميزون الفرق بين الصوت (ب) في باب والصوت (ن) في ناب وذلك لان كلا من الصوتين يمثل وحدة صوتية مستقلة وهما بذلك متضادان ·

٣ ـ آراؤه في الوحدات اللغوية

في رأي سوسور ان الكلام سلسلة من الوحدات الصوتية يطلقها المتكلم الا ان تلك الوحدات الصوتية تنتظم في وحدات لغوية لها حدودها ولها معانيها · فالوحدة اللغوية (Morpheme) قد تتكون من وحدة صوتية او أكثر · والوحدة اللغوية لها صفات ثلاث : (١) انها مكونة من سلسلة متتالية من الوحدات الصوتية (٢) انها ذات معنى (٣) انها غير قابلة لان تقسم الى اجزاء محتوية على الصفتين السابقتين · فالتعبير «ولد» في العربية تتوفر فيه الصفات الثلاثة السابقة ولذلك فهو وحده لغوية واحدة ، والتعبير (الولد) مكون من وحدتين لغويتين هما (الـ) و (ولد) ·

اللغة في اساسها مجموعة من الرموز ، فالجملة رمز ، والكلمة رمز ، والوحدة اللغوية رمز · الا أن بعض الرموز بسيط (الوحدة اللغوية) وبعضها معقد · فالتعبير (جاء الولد) رمز معقد ، وكذلك (الولد) · الا ان اداة التعريف (الـ) و (ولد) رمزان بسيطان ·

الرموز اللغوية اذاً كاشارات اليد او الاعلام او حركات الوجه من حيث كونها رموز لمعان معينة ، الا ان الرموز اللغوية لها صفتان اساسيتان هما : (١) الرموز اللغوية اعتباطية في جوهرها · اي انها لا تخضع لمنطق في تركيب شكلها وانها ليس لها مسبب · ففي العربية مثلا ليس هناك من سبب لتسمية الحيوان الكبير الحجم الذي نأكل لحمه ونشرب حليبه بالبقرة سوى كون متكلمي العربية قد اصطلحوا على تسميته بهذا الشكل بينما اسماه الانكليز Cow والفرنسيون Vache (٢) من خصائص الرموز اللغوية كونها مرتبة بشكل سلسلة متتابعة الحلقات · فعندما نتكلم او نصرح بشيء فاننا في الحقيقة نطلق سلسلة من الوحدات اللغوية الواحدة بعد الاخرى ·

على ان أهم ما في نظرية سوسور بهذا الخصوص هو اعتقاده بأن الوحدات اللغوية يربطها مع بعضها نظام من العلاقات · فاللغة بدون العلاقات التي تربط وحداتها لا وجود لها · فالصوت وحده عديم الفائدة بحد ذاته بدون ارتباطه وعلاقاته مع الاصوات الاخرى وكذلك الوحدات اللغوية · فالتعبيران cent-deux و deux-cents, مكونان من وحدتين لغويتين · التعبير الاول يعني (١٠٢) والتعبير الثاني يعني (٢٠٠) · واختلاف المعنى

هنا ليس بسبب اختلاف الوحدت اللغوية بل يرجع الى أختلاف العلاقة بين الوحدتين من حيث الترتيب •

والعلاقة بين الوحدات اللغوية والوحدات الصوتية يجب الا تفهم في معناها الايجابي فحسب بل في معناها السلبي ايضا • فالتشابه بين الوحدات اللغوية والترابط بينها لتكوين الجمل مهم جدا ولكن التضاد والاختلاف بين تلك الوحدات اللغوية مهم ايضا • ففي المثال السابق deux, cent وحدتان بسيطتان ارتبطا بطريقتين مختلفتين فكونتا وحدتين او رمزين معقدين كما بينا والتضاد او الاختلاف بين الوحدتين المعقدتين أكثر اهمية من التشابه بينهما • فمن التضاد نتج اختلاف المعنى •

وبهذا الصدد يشبه سوسور علم اللغة بعلم الاقتصاد فكما ان الاخير يعالج العمل والقيمة يعالج الاول الصوت والقيمة (المعنى) • فالرموز اللغوية مختلفة اذا كانت قيمتها (معانيها) مختلفة والاختلاف في القيمة هو التضاد •

على ان المسألة الاساسية التي ارجو ان يتذكرها القارىء هي ان الاختلاف والتشابه في اللغة قلما يكون مشوشا وانما يخضع في الغالب لانظمة دقيقة وقواعد مرتبة ، وبذلك تشكل دراسة تلك الانظمة دراسة اللغة نفسها •

٤ ــ التمييز بين الكلام (Parole) والنظام اللغوي (Langue)

يطبق سوسور في هذا الصدد ايضا افكار ارسطو ويستفيد منها في تركيب نظريته اللغوية • واللغات في رأي سوسور تتبدل وتتطور وطبقا لذلك يقسم الدراسات اللغوية الى دراسات تاريخية (Diachronic) ودراسات وصفية (Synchronic) • فالدراسة التاريخية تهتم بتطور اللغة عبر العصور • اما الدراسة الوصفية فتهتم بحاضر اللغة او بدراستها على وضعها في فترة محددة من الزمن •

الا اننا لو دققنا في نواحي اللغة لوجدنا ان هناك الكلام وهو الناحية الفردية الفعالة من اللغة ويسميها سوسور (Parole) • هذه الناحية تتمثل في كلامي وكلامك كأفراد متميزين تتشابه في كثير من الاحيان في اللفظ وفي تركيب الجمل الا اننا نختلف ايضا اختلافات مهمة او جزئية •

اما الوجه الاخر للغة فهو النظام اللغوي والذي يسميه سوسور (Langue) واستعمالنا تعبير النظام اللغوي لا يفي بالغرض تماما الا اننا عجزنا عن اختيار تعبير ادق منه في العربية • يقصد سوسور بـ (Langue) شكل اللغة الاجتماعي الذي ورثه متكلمو اللغة عن مجتمعهم ويتضمن التعابير والنحو وتركيب الجمل • فالقاعدة كامنة في ذهن كل متكلم للغة يحاول

أن يقلدها وهي بدورها تؤثر على كلامه علاوة على كونها العنصر الاساسي للتفاهم بين متكلمي اللغة اذ لولاها لما حصل هذا التفاهم اللغوي .

ان معرفة النظام اللغوي هي الهدف الاساسي في دراسة اللغة اما الكلام فهو السبيل الى الوصول الى ذلك الهدف ، فان اردت دراسة النظام اللغوي لاية لغة فعليك ان تستمع الى متكلميها ولكن عليك ان تعلم ان المتكلمين يختلفون ايضا فيما بينهم في كثير من القضايا .

وتقسيم اللغة بهذا الشكل يوازي من الناحية النظرية تقسيم النظام الصوتي الى اصوات منفردة ووحدات صوتية تشبه اصناف المخلوقات الحية. فالنظام اللغوي هو الشكل الاساسي عند سوسور والكلام هو التابع الذي يحمل صفات الشكل الاساسي ولكن يختلف عنه في القضايا التفصيلية .

٥ ــ آراؤه في تطور اللغة

في رأي سوسور ان اللغة تتبدل وتتطور ويشاركه في هذا الرأي علماء اللغة في الوقت الحاضر . الا ان الاخيرين يعتقدون ان تبدل اللغة يشتمل على النوحي التالية : (أ) تبدل الاصوات (ب) تبدل الكلمات قياسا على القاعدة العامة (Analogy) (جـ) استعارة التعابير من اللغات الاخرى (د) تبدلات مختلفة فرعية . اما سوسور فيعتقد ان جوهر تبدل اللغة هو تبدل اصواتها وتبدل الاصوات في رأي سوسور غير منتظم ولا يخضع لقاعدة عامة وذلك لان تبدل صوت ما لا يعتمد على تبدل صوت اخر فالكلمات قد تتبدل اشكالها الصوتية رغم احتفاظها بنفس القيمة (المعنى) وقد تتبدل قيمتها (معناها) وتحافظ على اشكالها الصوتية على مر الزمن ولذلك يرى سوسور ان التبدل في الصوت لا يحمل اية قيمة لغوية . فهو غير مقصود وحتى ان متكلمي اللغة لايشعرون به .. فحقيقة كون اللغة والرموز اللغوية أمور اعتباطية متعلقة بكون التطور اللغوي أمر عفوي غير مقصود . فاللغة من تقاليد الناس ولكنها تختلف عن التقاليد والقوانين الاجتماعية التي هي في الغالب مقصودة ومنطقية في كونها خالية من اية علاقة سببية اذ ان احدا لم يرتبها في أية فترة زمنية معلومة ولكنها وجدت في المجتمع وورثها الابناء عن الآباء .

يركز سوسور في بحثه في تطور اللغة ــ كما اسلفنا ــ على تبدل الاصوات ويمر مر الكرام على الانواع الاخرى من التبدلات اللغوية . فتغير المعنى في رأي سوسور جزء من الصورة العامة لتبدل العلاقة في القيمة للرموز اللغوية . اما التبدل قياسا على القاعدة (أي اخضاع الشذوذ للقاعدة) فيعتقد سوسور انه ليس تبدلا البتة وانما هو دليل على احساس المتكلمين بنظام لغتهم .

٦ ـ آراؤه في طريقة البحث اللغوية

في هذا المجال ايضا ينحو سوسور نحو ارسطو • ففي رأيه ان دراسة أي موضوع تتطلب أمورا ثلاثة : (١) تحديد الموضوع بدقة وبصورة خاصة تحديد المادة التي يتناولها الموضوع (٢) تحديد طريقة البحث التي يجب اتباعها (٣) تحديد النتائج التي يمكن استخلاصها من الدراسة • وسوسور ارسطوطالي مخلص في كونه دقيق جدا في تعابيره وفي تقسيماته • وفي ثنايا كتابه يحس القارىء بسهولة وبوضوح المحاولات المخلصة والشاقة التي يحاول بها تحديد النواحي الغامضة والمرتجلة في دراسة اللغة •

يرى سوسور أن مهام علم اللغة تتلخص في النقاط التالية : (١) تقديم دراسات وصفية وعلمية لكل اللغات مع تطورها التاريخي بقدر الامكان (٢) التوصل الى قواعد وقوانين عامة عن لغات العالم (٣) تعريف وشرح تلك القواعد وبيان مدى انطباقها على لغات العالم • ويقر سوسور ان اللغة يمكن دراستها من نواحي متعددة وان علوما كثيرة تتناول اللغة من جوانب مختلفة الا ان علم اللغة وحده الذي يجب ان يتخذ من اللغة غاية بذاتها وموضوعا للدراسة •

يعتبر سوسور من اوائل المحدثين الذين اوجدوا للدراسة اللغوية كيانا يوازي كيان العلوم الاخرى[٦] • فقد فصل في نظريته الدراسة التاريخية التي تهتم بمتابعة تطور اللغة من الناحية الزمنية عن دراسة حاضر اللغة وجعل من كل من الناحيتين حقلا مستقلا يجب تمييزه عن الآخر بوضوح • فعلى الباحث اللغوي حسب رأي سوسور الا يمزج تاريخ اللغة بحاضرها ولذلك فهو غير مخول ان يقرر ما يجب ان يقال وكيف يجب ان يصاغ القول • فمهمة عالم اللغة مهمة وصف لا غير فالتقنين ليس من صلب الدراسة اللغوية ولا هو من العلم في شيء •

والفكرة الثانية التي توصل اليها سوسور والتي أملت عليه الطريقة العلمية الحديثة هي تمييزه بين الكلام وبين النظام اللغوي • فلأجل معرفة النظام اللغوي على العالم ان يحصل على نماذج واسعة من كلام متكلمي تلك اللغة ومنها يستنبط النظام اللغوي ، أي ان دارس اللغة يجب ان يتقدم الى البحث وهو خالي الذهن تماما وان يتوصل الى قواعد اللغة من خلال الامثلة الكثيرة التي يجمعها وعليه الا يتأثر بأفكاره السابقة التي كونها عن لغته أو اية لغة سبق ان درسها ، فكل لغة يجب ان تبحث على حدة فلا يجب مثلا ان نفتش عن حروف الجر في لغة ندرسها لانه قد لا تكون لتلك اللغة حروف للجر بل علينا ان نصف حروف الجر عندما نلاحظ اولا ان لتلك اللغة مثل هذه الحروف وهكذا •

٧ ـ الخلاصة :

يعتبر سوسور من اكبر مؤسسي النظـرية اللغـوية الحديثـة (Linguistic Theory) والتي بدأ انصارها يسيطرون على الدراسـات اللغوية في اوربا وامريكا · لقد سبقت محاولات سوسور محاولات على نطاق ضيق من قبل العالم البولندي بودوان دي كورتنيـه (J.B. Courtenay) وتلميذه كروزوسكي (Kruszewski) ومن قبل العالم الاميركي فرانز بواز (Franz Boas) [٧] الا ان سوسور يعتبر بحق أول من وضـع التعاريف الدقيقة الضرورية لموضوع علم اللغة وهو ايضا أول من حدد الطريقة العلمية في بحث اللغة ·

لقد شهد القرن العشرون ثورة هائلة على الطريقة القديمة في بحث اللغات وحصل تقدم كبير في افكار العلماء فيما يتعلق بطبيعة اللغة وباقسامها واخيرا بسيكولوجية تعلمها وكيفية تدريسها وسبب ذلك هو تطور علم اللغة الحديث وسوسور اول من وضع الاسس العامة لهذا العلم واوضح المهم من معالمه ·

---

(١) راجع :

John T. Waterman, *Perspectives in Linguistics*,, (Chicago: The University of Chicago Press, 1963), p. 61.

(٢) راجع :

Martin Joos, *Readings in Linguistics* (New York: American Council of Learned Societies, 1963), p. 18.

(٣) راجع :

Rulon S. Wells, "De Saussure's System of Linguistics". *Readings in Linguistics*, pp. 1-2.

(٤) مترجمة نصا عن :

Ferdinand de Saussure, *Course in General Linguistics* (Translated by Wade Baskin. New York: 1959), pp 11-12.

(٥) راجع مثلا :

Winifred P. Lehmann, *Historical Linguistics* (New York: Holt, Rinehart and Winston, 1963), pp. 1-5.

(٦) في مقدمة ابن خلدون كثير من الآراء الحديثة عن طبيعة اللغة وكيفية تعلمها ودراستها الا ان ابن خلدون لم يقدم لنا طريقة واضحة المعالم كما هي الحال عند سوسور ·

(٧) راجع مثلا :

J.B. Carroll, *The Study of Language* (Cambridge, Mass.: Harvard University Press, 1958), p. 19.

الفروق الفردية وأثرها في تدريس الرياضيات

الدكتور عبد الحميد الصفار

تهدف التربية الحديثة فيما تهدف اليه الى توفير الفرص المتكافئة لجميع الافراد للتزود بالثقافة العامة التي يحتاجها كل مواطن بغض النظر عن كل اعتبار .

كما ان التربية الحديثة تهدف أيضــا الى تزويد الافراد بالخبرات الخاصة التي يحتاجونها كل حسب رغبته وقابلياته . وعلى هذا الاساس كان لزاما على المناهج ، ومناهج الرياضيات منها طبعـا ، ان تكون ملكا للجميع لا ملكا لطبقة دون أخرى ولهذا يستوجب ان توضع بشكل يطمن ذلك اذ ان وضعها على أساس الطالب السوي يجعلها ذات فائدة قليلة لكل من الطلاب الأذكياء والضعفاء على حد سواء .

ولهذا أخذ المربون في السنوات الأخيرة يهتمون كثيرا بهاتين الطبقتين كما انهم يرون ضرورة تطعيم المناهج بالمواد التي تشـبع رغبـات هاتين الطبقتين وتسد احتياجاتهما جنبا الى جنب مع الطلاب الاسوياء .

ولكن الامر ليس بالسهل كما يتوقع البعض خاصة وان هناك ظروفا وأحوالا تلعب دورا كبيرا في تكوين الجو المدرسي أو جو الصف على وجـه الخصوص وهي ظروف تجعل الصف بعيدا جدا عن أن يكون متجانسا من حيث قابليات الطلاب العقلية وميولهم ورغباتهم أو بعبارة أخرى ان الفروق الفردية الموجودة في الصف لها أثرها المباشر على نوع المنهاج الذي تقـدمه المدرسة لطلابها وان مناهج الرياضيات تتأثر بالفـروق الفردية أكثر من غيرها من المناهج الاخرى .

ولكي تكون مناهج الرياضيات ذات فائدة لطلاب صف ما يتحتم ان يكون هذا الصف متجانسا أو أن الفروق الفردية فيه قليلة وهذا يتطلب أن تستعرض الطرق والحلول العلمية التي تتيح الصف المتجانس أو تقليل الفروق الفردية قدر الامكان قد يكون من الانسب أن نقسم الموضوع الى قسمين القسم الأول وهو الذي يتعلق بالمدارس الابتـدائية والقسم الثاني المتعلق بالمدارس الثانوية .

فعلى مستوى المدارس الابتدائية استطاعت الابحاث ان تقدم الحلول العلمية الآتية لتقليل الفردية :

١ ـ عدم اعادة السنة نتيجة للرسوب :

من الامور الواضحة لدى المدربين ان ترسيب الطلاب الضعفاء لايعينهم كثيرا على تفهم المعلومات التي رسبوا فيها كما ان اعادة السنة تعمل على زيادة الفروق الفردية لا على تقليلها(١) .

٢ ـ تصنيف الطلاب حسب قابلياتهم :

لم يتفق المختصون على نوع من التصنيف بحسب قابلياتهم سواء حسب ناتج الذكاء أو حسب الدرجات لأن لكل منهما حسناته وسيئاته الا أنهم متفقون على تصنيف طلاب الصف حسب مستويات ثلاث اذ انهم يرون أن ذلك يقلل من وضع تفاصيل كبيرة وتمارين مختلفة(٢) .

ومما يغلب على هذا التصنيف انه لا يساعد كثيرا على تقليل الفروق الفردية كما ان انجازات الطلاب متفاوتة على الدوام(٣) .

٣ ـ التصنيف داخل الصف الواحد :

لقد أخذ هذا النوع من التصنيف ينتشر كثيرا في الآونة الاخيرة في بعض الدول الغربية لما في ذلك من مرونة تساعد المدرس على احداث تغيير في نوعية المسائل المقدمة الى الطلاب حسب الحاجة والرغبة والقابلية .

أما في المدارس الثانوية فان الطرق العملية التي يمكن اتباعها لتقليل الفروق الفردية هي كما يلي :

١ ـ التصنيف حسب القابليات : تشير الابحاث التي أجريت في هذا الصدد الى أن التصنيف المبني على القابليات قد لاتؤدي الى التجانس المطلوب فان تجانس الطلاب في موضوع الرياضيات قد لا يؤدي الى تجانسهم في اللغات مثلا(٤) .

٢ ـ التصنيف حسب الفروع : لقد وجد في كثير من الحالات ان لتصنيف الطلاب حسب فروع المعرفة كالرياضيات والعلوم واللغات يؤدي كثيرا الى تقليل الفروق الفردية والى تجانس الطلاب مما يسهل ايجاد المناهج اللازمة لكل فرع(٥) .

٣ ـ التصنيف المهني : كما ان فصل طلاب التجارة عن الطلاب الذين سيدخلون الى الجامعة عن الطلاب الذين سيدخلون المدارس الصناعية أو الزراعية يساعد كثيرا على تقليل الفروق الفردية وبالتالي الى ايجاد المناهج المناسبة لكل مجموعة .

ومهما كانت الظروف المحيطة بالصف والطرق المتبعة في تصنيف الطلاب فان المهم جدا أن تكون مناهج الرياضيات بصورة خاصة أو المناهج بصورة عامة مرنة تستطيع أن تمد جميع الطلاب على حد سواء بالثقافة العامة وبالخبرات الخاصة التي تعدهم لتحمل مسؤولياتهم في المستقبل

وتعينهم على وضع الأسس والمبنات الاولى في حياتهم العلمية المقبلة . وهذا ما يستدعي ضرورة العناية بالطلاب الاسوياء منهم وغير الاسوياء الذين يحتاجون الى رعاية وعناية خاصتين تختلفان عن تلك التي يحتاجها الطلاب الاسوياء وهم المتوسطون .

ولكي نستطيع الالمام باحتياجات كل مجموعة من الطلاب وتقديم المناهج الملائمة لها علينا أن نعرف أولا من هم الطلاب الذين ينضوون تحت لواء كل من هذه المجموعات . وهذا معناه أن نعرف على الاقل الطلاب غير الاسوياء وتطلق عليهم عادة الطلاب الشواذ Exceptional Student فيصف دون (Dunn) الطلاب الشواذ بأنهم أولئك الطلاب الذين يختلفون عن الطلاب المتوسطين في (Average) القابليات العقلية والجسمية والاجتماعية والعاطفية الى الدرجة التي تمنعهم عن الاستفادة من المناهج الاعتيادية بأنفسهم بل يحتاجون الى استعدادات خاصة لتهيئة الفرص التربوية التي تمكنهم من الاستفادة من هذه المناهج(٦) .

وادق تعريف للطلاب الشواذ ظهر في مجلة (School Life) وهو ان الطلاب الشواذ هم أولئك الطلاب الذين يجب أن تتوفر لهم الاحتياجات التربوية الخاصة بهم التي تساعدهم على تلقي المعلومات بالشكل الذي يناسبهم كالعميان وذوي البصر الضعيف أو السمع أو النطق وكذلك المتعقدين أو المتخلفين عقليا وكذلك الذين هم على درجة كبيرة من النبوغ أو الذكاء ويطلق عادة على القسم الأخير من الطلاب الموهوبين Gifted Pupils (٧) .

وبالنظر لأهمية هذا الصنف الأخير من الطلاب بالنسبة لتدريس الرياضيات فقد حظى بكثير من العناية في الآونة الاخيرة بحيث أخذت كثير من الدول الاهتمام بمناهجهم وخاصة الرياضيات .

ولكي نستطيع الالمام باحتياجات هذا الصنف علينا أولا ان نشخصهم في الوقت المناسب لكي لا تفوت الفرصة من توجيههم التوجيه اللازم بغية الاستفادة من مواهبهم في البحث والاكتشاف اذ أن الاكتشاف المبكر لقابلياتهم يساعد على ابراز عوامل النبوغ والعبقرية فيهم كما أن التباطؤ وعدم الالتفات اليهم يؤدي حتما الى ضياعهم مع الطلاب الآخرين وبالتالي حرمان البلاد من قابلياتهم .

ومن أولى الامور التي نستطيع بواسطتها تشخيصهم ومعرفة من هم الموهوبون ؟

يرى بعضهم ان الموهوبين هم الطلاب الأوائل الذين يكونون قمة الـ ١٠ ٪ من مجموع طلاب المدارس وذلك بالنسبة لقابلياتهم العقلية وهذا يعني ١٠ ٪ من المجموع الذي لا يقل ناتج ذكائهم عن ١٢٠(٨) .

أما ماك وليامز وبيرتون (Birch and McWilliams)

فيقولان ان الطالب الموهوب هو ذلك الشخص الذي يملك ذكاء خارقا ويقع في قمة الـ ١ ٪ من مجموع السكان(٩) .

أما ماك وليامز وبراون (McWilliams and Brown) فيريان ان الطلاب المتفوقين هم أكثر الطلاب سرعة في تعلمهم للمواضيع الدراسية والذين هم يكونون قمة الـ ٢٠ ٪ من الطلاب الممتازين(١٠) .

ومهما اختلفت التعاريف التي ينعت بها الطالب الموهوب أو المتفوق أو الممتاز فانه من الامور المهمة جدا هو أن نضع أيدينا عليه في الوقت المناسب خاصة وان بلادنا في بداية مرحلة التقدم وهي بأمس الحاجة الى أمثال هؤلاء الطلاب الذين قد يعيدون للبلاد مجدها التالد وعزها الغابر الذي لم يقم الا على أكتاف العلماء الموهوبين وهنا لا يكون طبعا الا بتوفير الفرص ووضع جميع الامكانيات التي تساعد على ابرازهم وصقلهم وذلك عن طريق تقديم المناهج الدراسية التي تهيىء الجو الصالح للتفتح في الوقت المناسب ولكن هل تستطيع مثل مناهجنا الحالية توفير ذلك ؟

لقد درجت معظم مناهج الرياضيات والمناهج العراقية منها على وضع مفرداتها بحيث تكون ملائمة للطالب المتوسط . ففي الوقت الذي تضيع أمثال هذه المناهج فرصة اكتشاف قابليات الطلاب الموهوبين فهي تجلب السأم والملل لهم وتبعدهم عن الاشتراك في فعاليات الصف وهي كذلك لا تمد الطلاب الضعفاء بشيء من المعونة على مواصلة الفهم والتتبع لكونها لا زالت فوق مستوى قابلياتهم مهما تبسط المدرس في شرحها لهم .

وهذا مما حدا بكثير من المدرسين في الدول الغربية وخاصة الامريكية منها الى التفكير بصورة جدية بضرورة وضع المناهج اللازمة التي تتناسب ومدارك الطلاب من جميع المستويات وخاصة الطلاب الموهوبين كما انها تعمل على اكتشاف مواهب الطلاب النابغين في الوقت المناسب وذلك باحدى الاجراءات الآتية :

١ ـ الانتقال السريع من صف الى آخر . ويظهر هذا الاجراء واضحا في المدارس الابتدائية فكثير ما يظهر الطالب نبوغا وتفوقا كبيرين في صف من الصفوف يجعله في مستوى ارقى بكثير من مستوى الصف الذي هو فيه مما يستدعي ضرورة وضعه في صف ارقى دون الالتفات الى الوقت المطلوب للانتقال من صف لآخر . بيد ان هذا الاجراء عادة لا يكون مبنيا على قواعد وأسس معينة بل يجب أن تدرس كل حالة بمفردها حتى لا يكون هناك اي اجتهاد لتفسير الحالات المعينة واخضاعها للتعليمات .

وبالرغم من ان هذا النوع من الترقية يوفر على الطالب بضع سنين الا انها لا تساعد على تكييف الطالب الاجتماعي والعاطفي ذلك التكييف الذي يحصل عليه الطالب في حالة تدرجه الطبيعي أي ان الدراسة على هذا النمط لا تتيح للطالب النمو والنضوج الاجتماعي المطلوب اذ انه بالانتقال

السريع يصل الى المرحلة التي يصبو اليها وهو بمستوى اجتماعي أقل من المستوى المطلوب لتلك المرحلة(١١) .

٢ ـ انجاز المناهج المقررة في مدة اقل من الوقت المعين : وهذا اجراء يفضل كثيرا على الاجراء السابق وقد جربت مدرسة التفيض الاهلية هذا النوع من الاجراء في سنتي ١٩٣٦ و ١٩٣٧ فادخلت الطلاب الناجحين في تفوق من طلاب الصف الأول المتوسط في دورة صيفية لدراسة مناهج الصف الثاني المتوسط واجراء امتحان لهم في نهاية الدورة وقد شارك أغلب هؤلاء الطلاب في الامتحانات العامة للدراسة المتوسطة في نهاية السنة الثانية من دراستهم في هذه المرحلة وكانوا من المتفوقين ايضا وهم الآن يشغلون مراكز حساسة في الدولة وهذا مما يؤكد فكرة تقديم التسهيلات التربوية اللازمة لانتقال هؤلاء الطلاب الموهوبين دون ان يؤثر ذلك على المستوى الثقافي العام لهم كما انه لا يؤثر مطلقا في نضوجهم الاجتماعي والعاطفي اللذين تتطلبا منهما كل مرحلة من مراحل ثقافتهم .

٣ ـ ايجاد مدارس خاصة بالمتفوقين وتزويدها بالمناهج الخاصة بها . ومثل هذه المدارس تفتح عادة في بعض المدن الكبرى كنيويورك وغيرها من المدن الامريكية وهي خاصة بالطلاب الموهوبين وشرط الدخول فيها مبني على أساس ناتج الذكاء العالي وبعض الاختبارات في الرياضيات واللغة الانكليزية وعلى توصيات المدرسين ومدير المدرسة التي كان يدرس الطلاب فيها(١٢) .

وقد مر العراق بتجربة من هذا القبيل في سنة ١٩٤٦ اذ فتحت مدرسة نموذجية يقبل فيها الطلاب الأوائل من كل لسواء في امتحانات الدراسة الابتدائية العامة ويشرف عليها مدرسون أكفاء في الرياضيات والعلوم واللغة الانكليزية وكانت مناهجها تختلف كثيرا عن مناهج المدارس المتوسطة الاخرى وقد خرجت هذه المدرسة طلابا يشغلون الآن مراكز مرموقة في البلاد أيضا . وهذا يؤكد ما لأمثال هذه المدرسة من نتائج مهمة في تشخيص الطلاب الموهوبين ووضع قابليات هؤلاء الطلاب في خدمة المجتمع والبلاد في الوقت المناسب . وهذا معناه ضرورة اعادة فتح امثال هذه المدرسة لتكون مصنعا لعلماء البلاد الذين نحن بأمس الحاجة اليهم في مثل هذه الظروف التي تمر بها البلاد هذا بالاضافة الى الطرق الاخرى كاضافة مواضيع مقدمة للطلاب الموهوبين بالاضافة الى المناهج الاعتيادية التي يأخذها الطلاب الأسوياء . أو عزل الطلاب الموهوبين عن الطلاب الأسوياء في الصف الواحد واعطائهم مواضيع خاصة الى غيرها من الاجراءات الاخرى .

وكلمة أخيرة نقولها في هذا الصدد ان موضوع الرياضيات من المواضيع البارزة التي تعين الى درجة كبيرة المستوى الذي يكون عليه الطالب وعليه فاذا ما أريد تدريس هذه المادة بنجاح تام ينبغي علينا أن نفكر بالطلاب

وما هم عليه من فروق فردية التي تجعل تدريس هذه المادة لجميع الطلاب بمنهاج واحد أمرا صعب التنفيذ كما أنه يجب دراسة المشاكل الكثيرة التي تزيد من هذه الفروق في الصف اذ كلما استطعنا ان نجعل طلاب الصف الواحد أكثر تجانسا كلما استطعنا ان نقدم لهم المنهاج الملائم لهم دون أن نتخوف من النتائج الفاشلة .

● ●

1. Wright Stone J. Wayne, What Research says about class organization for Instruction, NEA, Journal, April 1957, page 254-255.
2. Dunn, Lloyd. M. The Exceptional Pupils, A challenge to Secondary Education, "Bulletin of the National Association of secondary. School principals 39, 3-11, January 1955.
3. Teachers of Exceptional children school life (Official Journal of the office of Education) 39, 7-9, 10-11 January 1957.
4. Metropoliton school study Council, "How to Educate the gifted Child" New York Metropoliton school study council 1956, page 3.
5. Birch, Jack. W. and Earl. M. McWilliam." Challenging gifted children" Bloomington Ill, Public school Publishing Company 1955 page 1
6. McWilliam. M. Earl. and Kenneth E. Brown "The superior Pupil in Janior High School."
   School Mathematics, V. S. Department of Health, Education, and Welfare, Office of Education Bulletin, 1955, No. 4, Washington D.C. Superitendent of Documents, U.S. government office 1955, p. 3.
7. Ruth Strang. The Mental Diet of our gifted children, NEA, Journal, May 1955, pages 165-167.

العمر الغائم

عبد الخالق العطار

الجرح في قلبي عميـــق .. يستطير به الالـــم
والليل كهـــف موحش .. حجبت كواكبه الظلـم
تمضى خطـــاي بلا رفيق في دروب كابيـات بالسام
ويـــدي تشيل مذكرات شف في فمهـــا الوهــم

*

شلوا تبقى من حياة .. من ربيـــع مــــورق
عمرا غرسناه الوفـــاء بجنح صبـح مشـرق
ثمـر المحبة والرجـاء وسعد ماض رائـــق
شيء يكنى ذكريـــات .. ذاب فيها مزهـــري
تجترني . تذكي بأعماقي الحنين . تشدني من ناظري
شوقا ملحا كــل حـــين .. صوب ليل ثائـــر

*

لمـــا يعـــذبني السهـــاد .. ولـــم انـــم
ويشب في صدرى استعار من متاهات تنوء بها المحن
أرتد في شدق الحقيقة .. بـــين أنياب الزمـــن
ركـــب من الحرمـــان .. عـــرق من شـــجن
الذكريـــات تلوك في قلبـــي . لسان من نهـــم

*

الزبيري شاعر اليمن

ماجد صالح السامرائي

(ان الشعر هو الذى اخرجني من القمقم ، وقادني الى غمار الحياة الواسعة الزاخرة بالمفارقات والمتناقضات ٠)

« الزبيرى »

عاشت اليمن ، في فترة الحكم الرجعي ، حياة تخلف كبيرة ، اذ تقوقع المجتمع ، بفعل التسلط الرهيب ، في دوامة عزلة قاتلة ، وظلام حالك لم تعرف المجتمعات التى عاشت تحت أرهب النظم نظيرا له ٠٠ فكان المجتمع اليمني مقطوع الصلة بحضارة العالم ، معزولا عن التقدم ، والشعب يعيش في جهل مطبق ، وفقر مدقع ، ومرض يتناول أفئدة طالما هفت لتغني للحياة ، فيفتك بها شر فتك ٠٠٠ وبكلمات ؛ نستطيع أن نصف الواقع بأنه : كان يغرق في نظام جاهلية عمياء ، ووحشية لا تعرف الحدود ، وتسلط رهيب ، وحرية مصادرة ، وعبودية تنشر أشرعتها السوداء في أفق تلبد بالتقاليد العقيمة٠

وأمام هذا التخلف الكبير لم يجد المتنورون ؛ الذين كانوا يحملون رسالة الدعوة الى الحرية ، ويرمون الى تخليص المجتمع من عبودية الافراد ونظام الرق والقنانة ٠٠ لم يجدوا غير سلوك سبيل افهام الشعب خوافي الامور ، وكشف القناع عن الوجوه المجدورة التي يمثلها حكم الامام الزائف ، الذى كان يرى من نفسه (ظل الله في الارض) ٠٠٠

ولكن الوسائل الكفيلة بابلاغ ارائهم الى الشعب كانت معدومة تماما، ثم ان الجهالة التي كانت تضرب نطاقها حول الشعب ، وترمي بجذورها الى أغوار المجتمع ، كلها اجتمعت لتكون أمرا كفيلا بخنق أية دعوة يمكن أن تظهر تباشيرها في الافق ، واماتتها في مهدها ٠ لان الجيل الذى يحاولون بث الوعي في صفوفه « جيل محاط بعوامل ضغط هائلة » ، « تسوده نواميس الموت والتحجر »٠

ونظرا لهذا النظام العقيم الذى توارث الفساد عن هذه السياسة التعسفية المرهبة التي كانت تحرم الشعب حتى من حق التعلم ، وتمنع عنه

نور المعرفة .. فان الاصلاح كان يبدو في بعض الاحيان مستحيلا في مثل هذا الوسط الفقير المنهك الرازح تحت وطأة الجهل والعبودية ، حيث الذلة والانحلال.

الا ان ذلك لم يمنع من ظهور طبقة ثائرة ، تفتحت على الواقع المؤلم ، وتفحصته من جميع جوانبه ، فحز في نفسها بقاء الشعب على مثل هذه الحال التي يرثى لها ، ودفعتهم ارادتهم القوية ، وتصميمهم الاكيد ، وعزمهم المتفائل الى مواصلة الكفاح ؛ لتحقيق الحلم الاكبر ...

ومن هنا بدأ الصراع .. وكان صراعا عنيفا بالمرة ، بين التقدمية المتنورة .. والرجعية التي تحاول أن تبتلع كل ما يبشر بميلاد نور في أرض اليمن ... فكانت الرجعية تعبيء كل قواها ، مستغلة بساطة الشعب وسذاجته وجهله ، لتوءلبه على القوى التقدمية الخيرة التي كان هدفها أن تعيد للشعب كرامته ، وللارض العربية عزتها.

ولم تأل الرجعية الحاكمة آنذاك جهدا في استغلال الامور الدينية ، واتهام الحركات التقدمية بالمروق والردة والالحاد ؛ والخروج عن جادة الاسلام !!، كل ذلك أملا بتأليب الرأي العام عليها ، لاعاقة مسيرتها؛ وللابقاء على حكم الامامة الجائر الذى أحال اليمن الى دولة سادرة في الجهالة ؛ لا تعرف من نور المدنية والتقدم والحضارة شيئا .. فقد أعادتها السياسة الاستعمارية الى أشد عصور التأريخ تأخرا وانحطاطا .

فان أية دعوة للحرية في وسط المجتمع اليمني ، أو محاولة اخراج الشعب الى حياة أفضل ؛ كانت تخنق في مهدها ، وتفتح أبواب السجون لتلغي وجود المبشرين بها ..

وهنا يأتي دور الشعراء التقدميين الذين تبلورت فكرة التحرر في روحهم ، فمارسوا الثورة في شعرهم ، اذ كانت نتيجة عوامل موءثرة أوجدها الجو المكفهر بسوافي الظلم والارهاق . وكان أن تحسس هوءلاء الشعراء آلام مجتمعهم ، فملأت الثورة كيانهم ، وتدفقت من مشاعرهم .

وحاولت يد الظلام الخبيثة أن تطوي هذه الصفحة المشرقة ، وأن تغلف هذا النور الدافق بستار ضبابي أسود الظلال ، لكن مسعاها لم يفلح ، فلم تزدهم الا صلابة ومضيا في الطريق التي اختطوها ، وعنفا في مهاجمة الحكم الرجعي .

فالطغيان مهما بلغ شانه ، والفتك مهما اشتدت قسوته ، والاستبداد بذروته .. كل هذه الأمور ، على ما فيها من تعسف وبطش ، لا تستطيع أن تعتقل لسان الشاعر الحر الضمير ؛ عن قول الحق الصراح ، أو تحول دون محاولة ايقاظ المجتمع ودفعه في طريق الحرية والكرامة والعزة ... فالشاعر الوطني الصادق هو الذي ينفخ في بوق الحرية ليوقظ أمته بصيحاته المخلصة ...

و « محمد محمود الزبيري » واحد من شعراء اليمن الذين ساروا في موكب هذه الدعوة المخلصة الهادفة ، وجعل من الشعر رسالة تحمل لواء الدعوة ، وتنير فكر الشعب ... فقد كان الألم الذي يبعثه الواقع المتردي يحفر وهاد عذاب في نفسه ؛ وهو يشاهد مصرع الحرية في بلاده على أيدي حفنة من سقط البشر ، لا هم لها سوى اذلال قومه ، ولا غاية وراءها سوى انهاك الشعب ، وفرض سيطرتها الغاشمة عليه .

« والزبيري في الواقع شاعر قوي يستطيع أن يتصرف بالحروف والكلمات كيفما شاء ، سواء في المدح أو الهجاء أو الغزل ، أو الوطنية . وهو خصب الانتاج . ولكن شهرة الزبيري في الواقع لم تكن نابعة من جودة شعره ، وأصالته الفنية ، وصدق تجاربه ، ولكنها نابعة من دفقات الحماس الذي يدفق به شعره ، والتي تمكنت من نفوس الشعب وعبرت عن آلام بلادهم بطريقة تقريرية في مستوى ذهنهم(١) . »

والملاحظ ان شعر الزبيري يسير في خط فني عام ، تتمثل فيه «الخطابية والصور المباشرة الذهنية ، ورتابة الشكل وضيقه(٢) » ، ولعل الأمر متأت من كون الزبيري شاعر جماهير ، كل جهده أن يبلغ أفهامها ، ويصل الى ذهنية الشعب عن أيسر السبل .

نستطيع أن نقسم شعر الزبيري الى قسمين : الاول ، هو ما مدح به « الامامة » ، وكان ذلك قبل عام ١٩٤٨ .

والقسم الثاني ما كان موجها ضد الرجعية الحاكمة في اليمن ، وفيه فضح لأساليب الحكم الرجعي الذي أنهك البلاد . وهو ما قاله بعد عام ١٩٤٨ ، يوم كان مشردا خارج حدود اليمن ...

وعلى ضوء هذا التقسيم الموضوعي والزمني سنحاول أن نلقي نظرة على شعر الزبيري ، آملين أن نتبين مكانة هذا الشاعر في مجتمعه ، ومدى مساهمته في حركات الكفاح والتحرر القومي في بلاده .

الجانب الأول :

حاولت السلطة الحاكمة في اليمن منذ أن وجدت لها مناوئين داخل البلاد أن تسلك شتى السبل لقمع هذه الحركات ، والغاء وجود دعاتها وانصارها ، واخماد الصوت الذي ترفعه في معارضة الحكم القائم آنذاك .

وقد استطاع الامام أحمد ، يوم كان وليا للعهد ، أن يجذب اليه المناوئين لحكم أبيه التعسفي . اذ تمكن بجملة من الخدع ، ومجموعة من الألاعيب أن يجعلهم بجانبه . « فهو يغضب من أبيه ، ويثور ، ويبكي أحيانا ، ويتوعد أحيانا ، وانه ليتأوه على سجناء الشباب حتى كأنه أخ لهم حميم(٣)» .. وما هذا الفعل الا وسيلة من وسائل الغش والخداع للوطنيين الذين كانوا يرومون الاصلاح .

وقد موه الأمر ، وانطلى على الوطنيين ؛ فأصبحوا يرون فيه الشخصية التي تحلم بها البلاد ... وهكذا تتالت القصائد التي تشيد بمحامد الولاء له ، وكان الزبيري فيمن توجه لهذا الامام الذي نصب وليا للعهد آنذاك . فيقول في قصيدة ، موجها الخطاب الى الامام احمد : ـ

خذ بالقلوب ففي يديك زمامها ... والقلب يقرن بالولاء ويوثق
وانشر ضياءك في سبيل حياتنا ... فمسيرنا في غير نورك موبق
طر حيث شئت بنا فانا معشر ... سنطير اثرك في العلى ونحلق
كن كيف شئت لنا ، فان مصيرنا ... بيديك ، والدنيا اليك تحدق
يا حامل الشعب الكبير بقلبه ... الشعب في طيات قلبك يخفق
جدد له عصر الجدود بعزمة ... لو مست الماضي لجاءك يشرق
لا تبنه حجرا ولكن فيلقا ... ينساب فيه للمنايا فيلق(٤)

وهكذا نجد مدح الزبيري للامام أحمد ابان الفترة التي كان فيها الأخير وليا للعهد ، بدافع من الشعور تجاهه ... فقد كان يؤمل أن تقوم على يديه حركة الاصلاح الجذري الذي ينفض عن كاهل المجتمع اعتبارات الرجعية ، والفساد الذي شمل جميع مناحي الحياة .

والزبيري نفسه يتحدث عن شعره الذي مدح به الامام أحمد ، فيقول :ـ

« .. وعلى هذا الاساس قدمت اليه عصارة غالية من شعري ، أنفخ فيه روح الطموح ، والبطولة ، وأمنحه حماس الثقة ، وأحركه بأحلام الشعر ، وأشواق المجد ، بل وأحلم بأنه قد أصبح بطلا في دنيا فني ، وعالم خيالي(٥)».

وعلى الرغم من أن الشعر كان موجها نحو المدح ، الا اننا حين نلقي عليه نظرة متفحصة ؛ لا نعدم الومضات التي كانت تحمل فكرة الاصلاح ، لتنبيه الممدوح الى ذلك من جهة ، ولايصال الفكرة الى الشعب .

ومن هنا ، فاننا قد نجد تبريرا ، ولو أنه ضعيف الأسباب ، للمدح الذي كان يقدمه شعر الزبيري .

والشاعر نفسه يعترف بأن القصائد التي مدح فيها الحكام الأفاقين ، وأحرق البخور لأصنامهم في هيكل الحكم المتداعي ، كانت قصائد وثنية ، واطلق على الدور الذي قالها فيه : « دور الطفولة الوطنية(٦) » .

الجانب الثاني : ـ

وجاءت محاولة (١٩٤٨) التحررية ، التي كادت تطيح بالعرش الهزيل .. لتضع الحد الفاصل بين الزبيري والحكام ، ولتكون نهاية للتجربة التي قال عنها الشاعر بأنها أسلمتهم الى مصيرين ، تحدث عنهما بقوله : ـ

« .. فأما أن نرضخ ، وندفن رؤوسنا في المقبرة الموحشة التي دفن فيها الشعب ، وندخل فيما دخل فيه الأكثرون .. فنأكل الجيف ، ونمتص

الدماء ، ونعيش كما تعيش الدود في القبور ٠٠ أو نثور ٠ وآثرنا الأشق الأصعب ٠٠ ولكنه الأشرف(٧) » ٠

وهكذا ظهر زيف الامامة ، وبانت حقيقة الامام أحمد ، يوم كشف لهم عن ظفر وناب ، فاذا هو أشد رجعية من سابقيه ، وأكثر نكاية بالوطنيين الأحرار ، ويأتي الزبيري ليصور تلك الفترة ، فيقول في قصيدة له : ــ

وكم جاس شعري غاب ليل تحيط بي ... مضــرجة أدغـاله ومســاربه
وصور زهرا ؛ ربمــا كان زخرفا ... على حية ، أو عين وحش تراقبــه
وكم كان ذعري عندما أشرق الضحى ... علي واذ فتشت مـا أنا حاطبــه
واذ أسفر الوجه الذي بت هـائما ... به فرمتني بالـدواهي عواقبــه
وماذا على من صور الشيء ظاهـرا ... اذا اختبأت ملء الطوايا مثالبــه
ولكنه قد يقتـل المـرء نفســه ... اذا اختار صلا في الظلام يداعبــه
أحق بناب الوحش من بات عنـده ... واحمق من ذي جنة من يصاحبه(٨)

وفي الشعر الذي كتبه الزبيري بعد نهاية التجربة مع الامامة ، نستطيع أن نعتمد على نماذج وطنية ممزوجة بنفحة الاخلاص للقضية اليمنية ، ومشوبة بالجرأة والتحدي ، فيها تأليب للشعب على الفساد الذي كان يستشري في جسم المجتمع ، فكانت تلك القصائد بمثابة أنوار تسطع وسـط الظـلام المدلهم ، والضباب الأسود الذي كان يغلف أرض وطنه ، وغيوم الرعب التي تلبد سماء أرضه ٠ فنراه يفصح عن رسالته الوطنية ، ويكشف عما تنطوي عليه جوانحه من ايمان قومي راسخ ، وشعور عربي أصـيل ، وجرأة في مقاومة الطغاة الذين أحالوا حياة شعبه الى رق وقتامة ٠ ويقول : ــ

كفــرت بعزمتــي الصامده ... وقدسية الغضـبة الحاقــده
وأنات قلبـي تحت الخطـوب ... وأحـلامـه الحية الصـاعده
وعمر شـبـاب نذرت بــه ... لشعبي وأهـدافــه الخالده
وبالشــهداء ٠ وأرواحهــم ... تراقبنـــي من عل شـاهده
اذا أنا أيدت حكم الطغـــاة ... وهـادنتهم ســاعة واحــده

* * *

كفرت بعهــد الطغاة البغـــاة ... ومـا زخرفــوه وما زيفــوه
واكبـرت نفسي عن أن أكــون ... عبـــدا لطاغية توجـــوه
وعن أن يراني شعبي الـــذي ... يعذب ؛ عـونا لمـن عذبوه
أأجثو عــلى ركبي خاشــعا ... لجثــة طاغيــة حنطــوه ؟
أألعقــه خنجــرا قاتــلا ... لشعبي وأكثر فيه الـولوه ؟
أنا ابن لشعبي ، أنا حقده ... الرهيب ، أنا شعره ، أنافوه
أتعنــو لطــاغية جبهتــي ... فمن هو ؟ من أصله ، من أبوه ؟

ومن خلال تحسسه آلام الواقع المرير الذي كانت عليه بلاده ، استطاع أن يفجر أناشيده بشكل نقمة يصبها على رؤوس الظالمين ، وثورة يريد أن يجتاح بها فساد المجتمع ، فاستطاع بذلك أن يعكس الظواهر النفسية لمخاض الجيل المكافح من أجل الحرية والكرامة والحياة الافضل .

فالنقمة ، والغضب ، والتمزق ، وسبيل الثورة الذي سلكه ، كل هذه الصور تعطينا دلالة كافية على مدى الرغبة الكامنة في نفس الشاعر في تغيير الوضع المؤسي الذي عاشه وطنه ، ومحاولة تغييره والتمرد عليه ؛ والتطلع الدائم الى المستقبل الأفضل عبر الرؤى الروحية التي رسمتها بعض قصائده : ـ

لنمت أو نعش على الارض احرارا ... ولا عاش من يسيغ الاهانه
ان شعبا يرضى الحياة سجينا ... لا يساوي في قيمة سجانه
وحياة تصان بالهون والاذلال ... ليست خليقة بالصيانه

وسخط الزبيري على الحكم الجائر ؛ والوضع المزري ، دفعه الى مهاجمة الشعراء والادباء الذين أذلوا الكلمة عند أعتاب الطغاة ؛ وعفروها ، ومرغوا الحرف في نتن المفاسد والمباذل ، اذ جعلوا من شعرهم سليلا آخر يبادلهم الخيانة ، ويكبر الاجرام ، ويبارك طوفان الطغيان ... فيقول : ـ

باعوا الضمائر للمهانة مثلما ... تبتاع للحمل الثقيل سوام
واذا ثوت بين الضلوع بهائم ... قويت على حمل العصا الأجسام
يتطاولون الى شؤون ما لهم ... علم بمعناها ولا المام
لا يحسبون الدين الا أنه ... عند الأمير دراهم وطعام
كتبوا وما هذا الذي بمقالهم ... الا وباء في النهى وسقام
ساموا الصحائف أن تنوء بجيفة ... نفحت فظنوا انها الهام
يتشدقون فتسخر الفصحى بهم ... ويحررون فتضحك الأقلام
تالله ما عز امرؤ ودعاته ... نفر كأشباح الظلام طغام
يعفون عن طغيانه وبلادهم ... تلحى على أناتها وتلام
ويقدسون خناجرا فتحت لها ... جرحا بقلب الشعب لا يلتام
سيحاسبون فقد دنا لحسابهم ... يوم يسوء الخائنين ظلام
وسيندم المتزلفون ندامة ـ م ـ الوثني يوم تحطم الأصنام(١٠)

* * *

من هنا ، يتبين لنا شعر الزبيري بكل ملامحه .. فهو نبرات ثورية تنبض بالشوق الى حياة حرة ، تسودها المتعة والشرف . ويتمثل فيه صراع عنيف بين الرغبة والحرمان ، ابتعثته المعضلات التي عاناها وطنه ، فارتسمت على صفحة نفسه ، وعكسها شعره الذي كان سحابة عطاء سخية جادت على أرض المعركة ...

ولكن الصروف ضنت على الحياة والشعب بهذا الشاعر .. فصوبت اليه يد أثيمة رصاصة طائشة لتخنق صوت الشعر بأعماقه ، ولتنتشل من الشعب اليماني شاعره الذي نذر نفسه في سبيل قضية بلاده ... فتهاوى ذلك النسر الذي ارتاد شواهق قمم المجد .. ومات صوت الشعر في القلب الكبير ؟



(١) نظرة في الشعر اليمني الحديث ـ بقلم سعيد الشيباني ـ مجلة « المعارف » اللبنانية ـ العدد السادس ـ السنة الاولى ١٩٦١ .
(٢) المصدر السابق .
(٣) ثورة الشعر ـ ديوان الشاعر الزبيري ـ ص ٢٩ .
(٤) ثورة الشعر ـ ص ٣٣ .
(٥) المصدر السابق ـ ص ٢٩ .
(٦) المصدر السابق ـ ص ١٢١ .
(٧) المصدر السابق ـ ص ٣٨ .
(٨) المصدر السابق ـ ص ٣٤ .
(٩) المصدر السابق ـ ص ١٣٥ .
(١٠) دور الادب في معركة التحرر والبناء (وقائع المؤتمر الخامس للادباء العرب) القسم الثاني ص ٨٥ ـ ٨٦ .

فن النقائض الإسلامية

سامي مكي العاني

المناقضة في الشعر تعني أن ينقض شاعر ماقاله شاعر آخر بضد ماجاء به الاول[1] • وترجع نواة هذا الفن الى العصر الجاهلي ، فقد وجد من شعراء ذلك العصر من نظم في النقائض وان لم يلتزم بجميع القيود التي التزم بها شعراء النقائض بعد تطور فنها في العصر الاموي • ومن ذلك ما كان بين شعراء هذيل[2] • وبين شعراء الاوس والخزرج في يوم بعاث[3] ويوم الربيع[4] وبين أمريء القيس وعبيد بن الابرص حين قتل حجر[5] •

وقد تطور اسلوب المناقضة حتى جعل من فن المتناقضين في العصر الاموي فنا متقاربا الى درجة كبيرة ، فهو يفرض على الشاعر الثاني قيودا ينبغي عليه ان يلتزم بها ، فلا بد له من ان يقول في نفس موضوع الشاعر الاول وان يلتزم بقافية قصيدته وبحرها ورويها ، ثم ينقض معاني تلك القصيدة واحدا تلو الآخر[6] •

وحين جاء الاسلام انقسم الشعراء ازاءه الى طرفين متناقضين ، فريق مع الرسول صلى الله عليه وسلم والآخر عليه ، أما الفريق الاول فكان يمثله كعب بن مالك وحسان بن ثابت وعبدالله بن رواحة ، والفريق الآخر يمثله شعراء قريش كعبدالله بن الزبعرى وضرار بن الخطاب وابي سفيان ابن الحارث وهبيرة بن أبي وهب ومن والاهم من شعراء القبائل كالعباس ابن مرداس أو اليهود كسماك ومرحب وكعب بن الاشرف •

وطبيعي ان تقوم بين هؤلاء الشعراء حرب كلامية اتخذت في اكثر الاحيان صورة المناقضات الشعرية وفي بعض الاحيان صورة المراجزات •

وقد تميزت هذه النقائض بعدة خصائص يمكن اجمالها في :

سمو الموضوعات التي عالجتها ، ونبل الغاية التي قصدت اليها ، فموضوعاتها هي الاسلام ودعوته ، وغايتها اخراج الناس من الظلمات الى النور ، ومن ضيق الكفر الى سعة الاسلام • فغاية المسلم حين يقاتل رفع كلمة الله ، وهدفه توحيده ، والى هذا المعنى يشير كعب بن مالك في مناقضته لضرار بن الخطاب يوم بدر[7] :

فلما لقيناهم وكل مجاهد ... لاصحابه مستبسل النفس صابر
شهدنا بان الله لا رب غيره ... وان رسول الله بالحق ظاهر

واذا دافع المسلمون فانما يدافعون عن دينهم ضد كل عدو ، مهما عظمت كتيبته أو كانت معتادة للقتال ، مدربة عليه قال كعب(٨) :

مجالدنا عن ديننا كل فخمة   مدربة فيها القوانس تلمع

واذا حملوا السيوف فانما هم يحملونها في سبيل الله واعزازا لدينه قال حسان في مناقضته لابن الزبعرى (٩) :

بأيديهم بيض اذا حمش الوغى   فلابد ان يردى لهن صريع
بهن نعز الله حتى يعزنا   وان كان أمريا سخين فظيع

اما معاني هذه النقائض فهي على نوعين :

اسلامية جديدة ، كالايمان والكفر ، والجنة والنار ، والوحي والملائكة ، واخرى قريبة من المعاني الجاهلية ، تعالج المآثر والاحساب ، والمثالب والايام ، والتهديد والوعيد .

فمن هذه المعاني الاسلامية ماورد في مناقضة كعب لضرار يوم بدر(١٠):

فكب ابو جهل صريعا لوجهه   وعتبة قد غادرنه وهو عاثر
وشيبة والتيمي غادرن في الوغى   وما منهم الا بذي العرش كافر
فامسوا وقود النار في مستقرها   وكل كفور في جهنم صائر

وفي مناقضة حسان لابن الزبعرى يوم احد (١١) :

وعلونا يوم بدر بالتقى   طاعة الله وتصديق الرسل

او في مناقضته الاخرى في نفس اليوم ايضا (١٢) :

وحامى بنو النجار فيه وصابروا   وما كان منهم في اللقاء جزوع
امام رسول الله لا يخذلونه   لهم ناصر من ربهم وشفيع
وفوا اذ كفرتم ياسخين بربكم   ولا يستوي عبد وفي ومضيع

وتتضح هذه المعاني ايضا في مناقضة كعب لهبيرة بن ابي وهب(١٣) :

وفينا رسول الله نتبع أمره   اذا قال فينا القول لا نتطلع
تدلى عليه الروح من عند ربه   ينزل من جو السماء ويرفع

ومثل هذه المعاني الاسلامية كثيرة مبثوثة في جميع النقائض الاسلامية، اما المعاني الجاهلية فهي كثيرة ايضا ، منها ما جاء في قول كعب الذي ناقض فيه هبيرة معددا مآثر قومه ، مفتخرا الى درجة المبالغة ، مهددا ومتوعدا المشركين ، وهذه المعاني جميعها جاهلية طبعا قال(١٤) :

وانا بأرض الخوف لو كان اهلها   سوانا لقد أجلوا بليل فأقشعوا
اذا جاء منا راكب كان قوله   اعدوا لما يزجي ابن حرب ويجمع

فمهما يهم الناس مما يكيدنا ... فنحن له من سائر الناس اوسع
فلو غيرنا كانت جميعا تكيده ... البرية قد اعطوا يدا وتوزعوا
نجالد لا تبقى علينا قبيلة ... من الناس الا ان يهابوا ويفظعوا
ولما ابتنوا بالعرض قال سراتنا ... علام اذا لم تمنع العرض نزرع

ويقول في نفس النقيضة :

ونحن اناس لا نرى القتل سبة ... على كل من يحمي الذمار ويمنع
جلاد على ريب الحوادث لا نرى ... على هالك عينا لنا الدهر تدمع
بنو الحرب لا نعيا بشيء نقوله ... ولا نحن مما جرت الحرب نجزع
بنو الحرب ان نظفر فلسنا بفحش ... ولا نحن من اظفارها نتوجع

اما الفنون التي عالجتها هذه النقائض فهي نفس الفنون الجاهلية من مديح وهجاء وفخر ونحوها ، مع تعديل في الاتجاه ، وعفة في الالفاظ :

وامتازت هذه النقائض بتكرار الفنون ، وتداخل بعضها في القصيدة الواحدة فالشاعر يفخر ثم يمدح ثم يهجو ثم يعود الى الفخر ثانية وبعده الى الهجاء وهكذا ، ففي نقيضة كعب لضرار مثلا نراه يفخر في أولها بالصبر والتوكل على الله(١٥) :

وسائلة تسائل مالقينا ... ولو شهدت رأتنا صابرينا
صبرنا لا نرى لله عدلا ... على ما نابنا متوكلينا

ثم ينتقل الى مدح الرسول فيقول :

وكان لنا النبي وزير صدق ... به نعلو البرية أجمعينا

وينتقل بعد هذا الى هجاء المشركين ، فينعتهم بالظلم والعقوق والعداوة لله وللاسلام فيقول :

نقاتل معشرا ظلموا وعقوا ... وكانوا بالعداوة مرصدينا

ثم يعود ثانية الى الهجاء فيقول :

كما قد ردكم فلا شريدا ... بغيضكم خزايا خائبينا
خزايا لم تنالوا ثم خيرا ... وكدتم ان تكونوا دامرينا

وفي بعض الاحيان كان يتظافر أكثر من شاعر مسلم لنقض ما قاله شاعر المشركين ، من ذلك ما حصل يوم الخندق حين نظم ابن الزبعرى قصيدة مطلعها (١٦) :

حتى الديار محا معارف رسمها ... طول البلى وتراوح الاحقاب

فتصدى له حسان بنقض قصيدته هذه بنقيضة مطلعها :

هل رسم دارسة المقام يباب   متكلم لمحاور بجواب

ثم انبرى له كعب بن مالك لنقض نفس القصيدة فقال قصيدة مطلعها :

ابقى لنا حدث الحروب بقية   من خير نحلة ربنا الوهاب

وفي غمرة الانتصارات التي حققها المسلمون ظهرت بعض النقائض البعيدة عن روح الاسلام كان طرفا المناقضة فيها من المسلمين انفسهم يحدوهم التعصب القبلي ، وتدفعهم النعرات الجاهلية ، من ذلك ما حصل بين عطية بن عفيف النصري والعباس بن مرداس حين أكثر ابن مرداس على هوازن في يوم حنين(١٧) ، وبين رجل من بني جذيمة وآخر من بني ليث في فتح مكة (١٨) وبين زيد بن صحار وعبدالله بن وهب يوم حنين(١٩) .

وفي بعض الاحيان كان يتصدى احد الشعراء المسلمين لمناقضة شاعر مشرك ثم ينظم المشرك نقيضة لهذه النقيضة وعندئذ يظهر شاعر مسلم آخر للرد على الشاعر المشرك وهكذا ، ومن ذلك ما حدث عندما امتدح عباس بن مرداس رجال بني النضير فناقضه خوات بن جبير ثم رد عليه ابن مرداس بنقيضة اخرى وعندئذ تصدى للعباس كعب بن مالك بنقيضة ثالثة(٢٠) .

ومما يلاحظ ان الشعراء المسلمين لم يلتزموا بجميع القيود التي فرضت في العصر الاموي حيث وصل فن النقائض الى اوج كماله ، وانما كان يلتزم أحدهم ان يقول في نفس موضوع الشاعر الذي يناقضه ، ونفس قافيته وبحره ، اما الروي فلم يكن يلتزم به ، وكذلك لم يكن يلتزم بنقض معاني القصيدة الواحد تلو الاخر ، وانما كان شاعرهم يحاول نقض المعاني العامة التي ترد في قصيدة الشاعر الاخر .

واخيرا فالذي يلاحظ على هذه النقائض انها ظهرت في غالبيتها العظمى في ظل الايام الاسلامية .

ومعروف ان أهم ما يعتمد عليه الشاعر في نقائضه ، نقض المعاني التي ترد في قصيدة الشاعر الاخر ، وهناك عدة طرق يسلكها الشاعر للوصول الى هذا الغرض منها :

التكذيب : فيكذب ما يدعي الشاعر من مآثر محاولا ان يجعل هذه المآثر له ولقومه ، بدل الشاعر وقومه .

والمقابلة : وهي ان يضع ازاء كل ما يدعيه الشاعر الاخر من مفاخر ما يقابله .

والقلب : فيقلب الشاعر المعاني على قائلها .

والتوجيه : فيفسر الحادثة بما يؤيد موقف الشاعر

والوعيد والشماتة : يهدد بذلك الشاعر وقومه ، ويشمت بما ينزل بهم من مصائب ونكبات (٢١) .

وقد سلك الشعراء المسلمون جميع هذه الطرق في نقائضهم مع غلبة عنصر الوعيد على أكثرها ·

فحين ناقض كعب عمرو بن العاص ، الذي فخر بنصر قومه في أحد وعجز المسلمين عن تحقيق هذا النصر والتي يقول فيها (٢٢) :

خرجنا من الفيفا عليهم كأننا ... مع الصبح من رضوى الحبيك المنطق (٢٣)
تمنت بنو النجار جهلا لقاءنا ... لدى جنب سلع والاماني تصدق
فما راعهم بالشر الا فجاءة ... كراديس خيل في الازقة تمرق
ارادوا لكيما يستبيحوا قبابنا ... ودون القباب اليوم ضرب محرق
وكانت قباب أومنت قبل ما ترى ... اذا رامها قوم أبيحوا واحنقوا
كأن رؤوس الخزرجيين غدوة ... وأيمانهم بالمشرفية بروق (٢٤)

سلك كعب مسلك التوجيه في مناقضته له ، ولم يتخاذل لعدم انتصار المسلمين في أحد ، بل صور صبرهم وبلاءهم في تلك المعركة ، وذكر اعتزاز المسلمين بقيادة الرسول صلى الله عليه وسلم ذي الشمائل الكريمة :

الا ابلغا فهرا على نأي دارها ... وعندهم من علمنا اليوم مصدق
بأنا غداة السفح من بطن يثرب ... صبرنا ورايات المنية تخفق
صبرنا لهم والصبر منا سجية ... اذا طارت الابرام نسمو ونرتق (٢٥)
على عادة تلكم جرينا بصبرنا ... وقدما لدى الغايات نجري فنسبق
لنا حومة لا تستطاع يقودها ... نبي أتى بالحق عف مصدق

ثم راح يقابل فسلك مسلك الموازنة حين ناقض فخر ابن العاص بتقتيل المسلمين فقال :

الا هل اتى افناء فهر بن مالك ... مقطع اطراف وهام مفلق

وحين افتخر ابو سفيان بن حرب بتقتيل المسلمين (٢٦)

وسلى الذي قد كان في النفس انني ... قتلت من النجار كل نجيب
ومن هاشم قرما كريما ومصعبا ... وكان لدى الهيجاء غير هيوب

تصدى له حسان فسلك سبيل المقابلة في مناقضته ، وراح يعدد من قتل من اشراف المشركين في قريش مقابلة لمن ذكر ابو سفيان من كبار المسلمين ·

ذكرت القروم الصيد من آل هاشم ... ولست لزور قلته بمصيب
أتعجب أن أقصدت حمزة منهم ... نجيبا وقد سميته نجيب
ألم يقتلوا عمرا وعتبة وابنه ... وشيبة والحجاج وابن حبيب
غداة دعا العاصي عليا فراعه ... بضربة عضب بله بخضيب

وحين ناقض كعب هبيرة بن ابي وهب الذى فخر بالانتصار في احد وبتقتيل المسلمين بعد تجميع القبائل العربية ضدهم في قوله (٢٧) :

سقنا كنانة من اطراف ذي يمـــن   عرض البلاد على ما كان يزجيهـــا
قالت كنانة انى تذهبـــون بنـــا   قلنا النخيل فأموها ومن فيهـــا
نحن الفوارس يوم الجر من أحـــد   هابت معد فقلنـــا نحن نأتيهـــا
ثمت رحنـا كأنـــا عارض بـــرد   وقام هام بني النجـــار يبكيها(٢٨)

كان مسلك كعب في نقضه له التهديد والوعيد ، فكثرة العدد والجموع التي خاض بها هبيرة جعلها كعب سبة عليهم ، لانهم اوردوها حياض الموت في الدنيا والنار في الاخرة ·

سقتم كنانة جهـــلا من سفاهتكـم   الى الرســـول فجند الله مخزيهـــا
اوردتموها حياض المـــوت ضاحية   فالنـــار موعدها والقتـــل لاقيهـــا

ثم عمد الى مسلك الموازنة ، فذكر انتصار المسلمين في بدر مقابل انتصار المشركين في احد · وذكر قتلاهم بقليب بدر ازاء قتل المسلمين في أحـــد ·

جمعتموهـــا احابيشـــا بلا حسب   ائمـــة الكفـــر غرتكم طواغيهـــا
الا اعتبرتـــم بخيل الله اذ قتلـــت   اهل القليـــب ومن القينـــه فيها
كم من اســـير فككنـــاه بلا ثمن   وجز ناصيـــة كنـــا مواليهـــا

وفي بدر ناقض كعب ضرار بن الخطاب الذي توعد المسلمين بجولة اخرى منكرا على الانصار فخرهم بانتصارهم ، عازيا سبب الانتصار الى قيادة الرسول ومن معه من المهاجرين ، لا الى بطولة الانصار مع المهاجرين من حول الرسول وقصد ضرار واضح طبعا ، فهو يريد ان يحول النصر الذي حققه المسلمون ــ انصارهم ومهاجروهم ــ الى قريش التي ينتمي اليهـــا الرسول والمهاجرون ، ليجرد الانصار من هذه الفضيلة تعصبا قال (٢٩) :

فان تك قتلى غودرت من رجالنـــا   فانا رجـــال بعدهـــم سنغـــادر
وتردى بنا الجرد العناجيج وسطكم   بني الاوس حتى يشفي النفس ثائر (٣٠)
ووســـط بني النجـــار سوف نكرها   لها بالقنا والـــدارعين زوافر (٣١)

الى ان يقول :

فان تظفروا في يوم بـــدر فانمـــا   بأحمد أمســـى جدكم وهو ظاهـــر
وبالنفر الاخيـــار هـــم اوليـــاؤه   يحامون في الـــلأواء والموت حاضـــر
يعـــد ابو بكر وحمـــزة فيهـــم   ويدعى علي وسط من انت ذاكـــر
ويدعى ابو حفص وعثمـــان منهم   وسعد اذا ما كـــان في الحروب حاضر
اولئك لا مـــن نتجت في ديارهـــا   بنو الاوس والنجار حـــين تفاخـــر

فعمد كعب الى هذين المعنيين فنقضهما ، سالكا في نقض المعنى الاول سبيل التكذيب اذ جمع المشركون في بدر وحشدوا كل ما استطاعوا ومع ذلك كان النصر حليف المسلمين ، فعلام هذا الادعاء الطويل ، والضجيج الصاخب الذي اصطنعه ضرار ؟

عجبت لامـر الله والله قـادر ... على ما اراد ليس لله قاهر
قضى يوم بدر ان نلاقي معشـرا ... بغوا وسبيل البغي بالناس جائر
وقد حشدوا واستنفروا من يليهم ... من الناس حتى جمعهم متكاثر

اما لنقض المعنى الثاني فقد سلك سبيل القلب وفخر بالرسول عليه السلام ، وتأييد الانصار له ، وعير قريشا بصدهم عن سبيل الهداية ، وتوليهم عن الاستجابة لما دعاهم الرسول من الخير .

وفينا رسول الله والاوس حولـه ... له معقل منهم عزيز وناصر
وجمع بني النجـار تحت لوائـه ... يمشون في الماذي والنقع ثائر (٣٢)

وبعد ان فخر بشجاعة المسلمين واقدامهم قال :

وكان رسول الله قد قال اقبلوا ... فولـوا وقالوا انما انت ساحر

وزاد على نقضه هذين المعنيين بأن أظهر شماتته بقتل رؤوس الكفر في بدر حيث قال :

فكب ابو جهـل صريعا لوجهـه ... وعتبة قد غادرنه وهـو عاثـر
وشيبة والتيمي غادرن في الوغـى ... وما منهم الا بـذي العرش كافـر

وحين امتدح عباس بن مرداس نساء بني النضير بقوله (٣٣) :

اذا جاء باغي الخـير قلن فجاءة ... له بوجوه كالدنـانير مرحبـا
واهـلا فـلا ممنوع خـير طلبتـه ... ولا انت تخشى عندنا ان تؤنبـا

تصدى له خوات بن جبير بنقيضة سالكا سبيل التكذيب لما ادعاه من فضل بني النضير ، جاعلا هذه المآثر للانصار .

فانك لمـا ان كلفـت تمدحـا ... لمن كان عيبا مدحـه وتكذبـا
رحلت بأمر كنت اهـلا لمثلـه ... ولم تلف فيهم قائـلا لك مرحبـا
فهلا الى قوم ملـو كمدحتهـم ... تبنوا من العـز المؤثل منصبـا
الى معشر صاروا ملوكا وكرمـوا ... ولم يلـف فيهم طالب العرف مجدبا
اولئك احرى من يهـود بمدحـة ... تراهم وفيهم عـزة المجد ترتبا (٣٤)

اما المراجزات في هذا الباب فقد وصلت الينا منها أكثر من مراجزة ، منها حينما كان النبي صلى الله عليه وسلم في مسير فقال لسلمة بن الاكوع انزل هات من هناتك (٣٥) ، فنزل سلمة يرتجز ويقول (٣٦) :

لم يغذهـــا مـــد ولا نصيـــف ولا تمـــيرات ولا تعجيف(٣٧)
لكـــن غذاهـــا اللبن الخريـــف المحض والقـــارص والصريـــف

فلما سمعته الانصار يذكر التميرات ، والمد والنصيف ، علموا انه يعرض بهم ، فاستنزلوا كعب بن مالك ، فقالوا : ياكعب انزل فاجبه ، فنزل كعب يرتجز وهو يقول :

لم يغذهـــا مـــد ولا نصيـــف ولا تمـــيرات ولا تعجيـــف
لكـــن غذامـــا حنظل نقيف ومذقـــة كطـرة الخنيـف (٣٨)
تبيت بـــين الزرب والكنيف

وبذلك نقض كعب ما تصوره الانصار تعريضا بهم ، وسلك في هذا النقض اسلوب المقابلة ، فشاعر قريش لم يزد عن ذكر التميرات فقلبها كعب بتعريض اشد منه واقسى ، فذكر الحنظل المنقوف(٣٩) ثم ذكر المذقة ، وهي الشربة من اللبن الممذوق ، شبهها بحاشية الكتان الرديء لتغير لونها • ولم يكتف بذلك فادعى ان تلك المذقة كانت مما تعلفه الشاء والابل في الزرب والحظائر لا بالكلأ والمراعى لان مكة لا رعي بها ، فقال النبي اركبا اركبا مخافة ان يجري بينهما شيء •

وحين خرج مرحب اليهودي من حصنهم يرتجز(٤٠) •

قد علمـــت خيبر اني مرحـــب شـــاكي الســـلاح بطل مجـرب
اطعـــن احيانـــا وحينـــا اضـــرب اذا الليـــوث اقبلـــت تحـــرب
ان حماي للحمى لا يقرب

وهو يقول من يبارز ؟ فتصدى له كعب بمفاخر تقابل ما افتخر به من شجاعة وزاد عليها فقال :

قـــد علمت خيبر اني كعـــب مفـــرج الغمى جـــريء صلـــب
اذ شبت الحرب تلتهـــا الحـــرب معي حسام كالعقيـــق عضـــب
نطؤكـــم حتى يـــذل الصعـــب نعطي الجزاء او يفيء النهـــب
بكف ماض ليـــس فيه عتب

وهكذا نقض عليه معانيه التي فخر بها ، سالكا سبيل المقابلة ، فوضع ازاء كل مفخرة افتخر بها الشاعر ما يقابلها ثم سلك سبيل التهديـــد والوعيد له ولقومه اليهود ، فذكر له حكم الاسلام فيهم وهو الجزية او القتل •

---

(١) انظر لسان العرب مادة « نقض » •
(٢) انظر ديوان الهذليين ق ١/١٦١ و١٦٢ و ق٢/٢٢٣ و ٢٢٤ و ٢٦٠ و ٢٦٥ •
(٣)انظر ديوان قيس بن الخطيم ص١٠ •
(٤) انظر ديوان حسان ٣١٦ وديوان قيس ص٣٦ •

(٥) انظر ديوان امرىء القيس ٥١ وديوان عبيد ٨١ ·
(٦) أنظر الشايب : تاريخ النقائض في الشعر العربي ص ٣ وغناوي الزهيري : نقائض جرير والفرزدق ص ١٣ ·
(٧) ابن هشام ٢/١٤ ·
(٨) ابن هشام ٢/١٣٣ ·
(٩) ابن هشام ٢/١٤٣ ·
(١٠) ابن هشام ٢/١٥ ·
(١١) ابن هشام ٢/١٣٨ ·
(١٢) ابن هشام ٢/١٤٣ ·
(١٣) ابن كثير : البداية والنهاية ٤/٥٣ ·
(١٤) ابن هشام : ٢/١٣٢ ·
(١٥) ابن هشام ٢/١٤٨ ·
(١٦) ابن هشام ٢/١٥٠ ·
(١٧) انظر ابن هشام ٢/٤٦٠ ·
(١٨) انظر ابن هشام ٢/٤٣٤ ·
(١٩) انظر ابن هشام ٢/٤٧٦ ·
(٢٠) انظر ابن هشام ٢/٣٠٠ ·
(٢١) انظر الشايب : تاريخ النقائض ص ٢٧ ·
(٢٢) ابن هشام ٢/١٤٣ ·
(٢٣) القيقا : القفر · رضوي : اسم جبل · الحبيك : ذو الطرق · المنطق : المحزم ·
(٢٤) بروق : نبات له أصول كالبصل ·
(٢٥) الابرام : اللئام ·
(٢٦) تاريخ الطبري ٢/٥٢٣ ·
(٢٧) ابن هشام ٢/١٢١ ·
(٢٨) العارض : السحاب · البرد : الذى فيه برد ·
(٢٩) ابن كثير : البداية والنهاية ٤/١٣٠ ·
(٣٠) تردي : تسرع · الجرد : الخيل القصيرة الشعر · العناجيج : جمع عنجوج وهو الحصان الطويل السريع ·
(٣١) الزوافر : جمع زافرة ، وهي الحاملات للثقل ·
(٣٢) الماذي : الدروع البيض اللينة · والنقع : الغبار ·
(٣٣) ابن هشام ٢/٢٠٠ ·
(٣٤) ترتب : ثابت ·
(٣٥) هناتك : اخبارك واشعارك ·
(٣٦) الجواليقي : شرح أدب الكاتب ص ٣٩١ ·
(٣٧) تصيفه : تصف ·
(٣٨) النقيف : الجذع الذى أكلته الارضة ·
(٣٩) ان قريشا وثقيفا كانتا تتخذان من الحنظل أطبخة فعيرهم بذلك ·
(٤٠) النويرى : نهاية الارب في فنون الادب ١٧/٢٥٢ ·

فريدريك نيتشه

« ويل للضعفاء ! »

ابراهيم الخال

« ٠٠٠ ولكن أين أولاد الحارة من ولدي هذا الذي اعتاد أن لايأوي الى فراشه قبل ان يستنزف الدموع الغزار من مآقينا كل ليلة وهو يتلو علينا آي الكتاب المقدس بصوته الشجي الذي يفيض شفقة وحنانا مما قد لا تجدين له مثيلا حتى في صوامع الرهبان ! » ٠

هكذا كانت السيدة نيتشة تحدث جارتها عن ولدها الذي لم يكن قد جاوز الخامسة عشرة بعد ، والذي سحق بفلسفته بعد حوالي ربع قرن من هذا الحديث ، جميع القيم المسيحية في الشفقة والرحمة ، بالاضافة الى جميع المثل الديموقراطية في التعاطف والتسامح والتآخي ، ليقيم عالما مخيفا لا تسمع في أرجائه ، أنى وليت وجهك في أقطار الارض ، غير صراخ الابرياء وغير الابرياء والذين يقتلون ظلما بأيدي الجبارين ، وغير هدير المدافع ودوي الرصاص !

فالصبي موضوع البحث ، هو « فريدريك ويلهلم نيتشة » صاحب فلسفة « البقاء للاقوى » ذات التأثير المؤلم في ماجريات التاريخ الحديث ٠

وكان « فريدريك نيتشه » قد ولد في اليوم الخامس عشر من تشرين الاول ، اكتوبر ، عام ١٨٤٤ في مدينة « روكن » الالمانية ببروسيا ٠ ولقد اختير له اسم « فريدريك » تيمنا باسم الملك البروسي « فريدريك ويلهلم الرابع » الذي صادف يوم مولد نيتشة في ذكرى عيد ميلاده ٠

وينحدر نيتشة من جهة أمه وأبيه ، من عائلتين متدينتين ، دأب معظم أفرادهما على الانخراط في سلك القساوسة منذ عدة قرون ٠ وكان أبوه واحدا من هؤلاء القساوسة الذين يمارسون التعليم والوعظ ، وقد اشتغل معلما في بلاط فريدريك ، حيث كان يقوم بتدريس بناته الثلاث أصول الدين ، وآداب اللغة الالمانية ٠ أما أمه ، فقد كانت بيوريتانية متدينة للغاية ، بل وقل أن تجد في بلدها آنذاك مثلها تديناً بين النساء ٠

ولقد توفي أبوه يوم كان في الرابعة من عمره ، فعكفت أمه مع

شقيقاته على تربيته الى أن بلغ مبلغ الرجال • وكان لذلك الجو النسائي الناعم المتشرب بالورع والتقوى ، أثره البعيد في تكوين شخصية نيتشة ، اذ نشأ رقيق الطباع ، لين العريكة ، ذا شمائل نسائية ، وهو ما حاول تغطيته ، أو معادلته بفلسفة مناقضة تنزع الى الشراسة والقوة عندمـــا أجهد نفسه وكلفها ما لا يسعها في الطريق الوعرة التي شقها لنفسه وهو يسير صعدا للتربع على الباذخات من ذرى الفكر •

ولم يمض نيتشه طفولته كما كان يمضيها غـــيره من الاطفال في اللعب وصيد العصافير وشن الغارات المخيفة على الحدائق والبساتين • لقد كان هادئا لطيفا وادعا وليس له شغل شـاغل غير الانهماك في قراءة الانجيل لدرجة أطلق عليه زملاؤه في المدرسة معها لقب « القس الصغير » •

لكن علائم الاعتداد بالنفس ، والميل الى التظاهر بالقوة والجـرأة ، قد بدأت تظهر واضحة على سلوكه في مرحلة الدراسة الثانوية • من ذلك ان الطلبة لم يصدقوا واقعية قصة « موتيــوس ســكيفولا » الروماني – الاعسم – الذي أحرق يده اليمنى بالنار اشــارة منه لاعدائه بأنه لم يستسلم لهم • غير ان نيتشة ، تظاهرا منه بقوة الارادة والشجاعة ، بادر الى البرهنة على واقعية الحادث بأن اشعل أمام زملائه مجموعة من عيدان الثقاب على راحة يده اليمنى الى أن أحترق باطنها دون أن تبدو عليه أية علامة من علائم الالم • كذلك بدأت نزعته المسيحية تتلاشى في داخليــة ذاته في هذه المرحلة من حيـــاته ، أو بالاحرى كلمـا كان يقترب من سن الثامنة عشرة • فلقد شعر بما طبع عليــه من دقــة الملاحظة ، باستحالة اتفاق التعاليم المسيحية كما كانت تفسر آنذاك ، مع واقـــع الحياة التي كان يحياها المجتمع • لذلك ما ان اجتاز نيتشة عتبة جامعة « بون » الى صفوف الفلسفة فيها ، حتى بادر الى ادارة ظهره لدين آبائه وأجـداده ، مفضلا عليه الانصراف الى الدراسات الفلسفية من جهة ، والانغمار مع رفاقه من طلبة الجامعة في بحر من الخمور والفجور •

وتشاء الظروف أن يجد الشاب الفيلســوف نفســه ، بعد ثلاث سنوات من تلك الحياة الداعرة ، وجهـــا لوجه مع نبي الشؤم الكبير ، « شوبنهور » في كتابه « العالم ارادة وفكرة » • وكانت سنة ١٨٦٥ التي كرس نيتشة خلالها نفسه لدراسة هذا الكتاب ، قد أصبحت حدا فاصلا في حياته ، اذ طلق خموره وفجوره بعدها ، ولم يعد لا الى معاقرة كأس ، ولا الى صحبة شاب خليع •

ولقد وصف لنا نيتشة شعوره وهو يقرأ شوبنهور بقوله : « ان الذي كان يظهر لي هو ان شوبنهور كان يخاطبني أنا شخصيا بالذات ، وكنت كما لو كنت أراه أمامي فعلا عند قراءتي الكتاب ••• ولقد كان كتاب شوبنهور بالنسبة لي ، مرآة تطلعت من خلالها الى العالم ، والحياة ، والى طبيعتي أنا التي طغت عليها صورة من السؤدد المخيف » •

وكانت فلسفة شوبنهور قد تملكت عليه تفكيره وحواسه بجميعها ، وقد ظهر ذلك واضحا في رسالته « شوبنهور كمرب » ، بل وانها بقيت تنشر ظلها المؤلم الحزين على أفكاره حتى عندما اتجه الى فلسفة العنف والقوة ، اذ لم يكن نيتشة قد صدر في تفكيره يوما ، والى أواخر أيام حياته الفكرية ، الا عن نفس غارقة في بحر من الآلام تقمصت جسدا أضناه المرض والالم ٠

لكننا ما زلنا الآن مع نيتشة الذي لم يكمل الثالثة والعشرين من عمره بعد ، يوم استدعي للخدمة العسكرية في الجيش البروسي عام ١٨٦٩ ٠ وكانت العسكرية الالمانية يوم ذاك تطمح الى تحقيق الوحدة الالمانية الشاملة بكل ما أوتيت من قوة ؛ لذلك لم يكن بامكانها الاستغناء عن أي شيء يمكن الاستفادة منه لهذا الغرض ، حتى الفلاسفة المصابين بمرض قصر النظر أمثال نيتشة !

على ان نيتشة كان سعيدا في الواقع ببدلته العسكرية ومسلكه الجديد ٠ فحياة القوة والبسالة ، وخشونة العيش التي يتميز بها هذا المسلك ، كانت تستهويه بقوة ، دونما وعي منه ، تغطية لنقصه وما جبل عليه من رقة واحساسات عاطفية كادت تضعه في مصاف الفتيات في مطلع أيام صباه ٠ أضف الى ذلك ان العصر الذي كانت تعيشه المانيا آنذاك ، كان عصر نهضة وطنية جبارة ، مشت بروسيا خلالها من نصر الى نصر بحد الحسام ٠ والشباب الوطني الواعي أمثال نيتشة ، كان لابد أن يستميت من أجل المساهمة في تلك الامجاد ٠ فالشباب فورة ، والوطنية فورة ، والنهضة الشاملة فورة ، وان من المستحيل أن تتنافر هذه الفورات مع بعضها اذا كانت صادرة عن ينبوع فوار واحد ، يتمثل في وحدة الوطن ، ووحدة الامة ، ووحدة الهدف ، ووحدة المصير ، كما كانت عليه الحال في الولايات الالمانية التي تبرأت من ماركس وزميله انجلس اللذين كانا يعملان على هدم هذه المفاهيم وسحق كرامة الامة الالمانية ، على خط معاكس لنيتشة ، تلك الايام ٠

وها هو نيتشة يصول ويجول على ظهر جواده في ميدان التدريب العسكري ، جضرا وهذبا ، مع خيرة شباب الامة الالمانية ممن تولوا قيادة الجيوش القيصرية الضخمة بعد ذلك ، وملأوا سماء أوربا دويا ولهيبا ودخانا عام ١٩١٤ ٠ لكن الذي كتب لنيتشة مع الاسف ! ، هو عدم المساهمة في قيادة تلك الجيوش ، انما تولي المنصب القيادي في ابداع الافكار ، وخلق الحوافز العظيمة التي كانت تحرك تلك القيادات وتدفع الجيوش الى الاستبسال والتفوق في الحرب ٠ اذ ما هي الا فترة قصيرة قضاها في الجيش حتى سقط عن ظهر جواده بسبب ضعف بصره ، فكادت أن تدق عنقه ويموت لولا عناية الاطباء الذين سارعوا بعد علاجه ، الى اعفائه من الخدمة العسكرية لاسباب صحية ٠ ولقد أورث هذا الحادث

نيتشة آلاما بدنية في عضلات صدره وكتفه وظهره ، بقي يعاني منها كثيرا الى آخر أيام عمره ٠

فاذا داوى الاطباء عظامه وجراحه بعد تلك السقطة ، فان روحه الطامح وحسه المرهف ، ونفسه المتطلعة الى الامجاد قد أصيبت بجرح بالغ بخروجه من الجيش بسبب عجزه عن الاستمرار في الخدمة ، وهو ما زال بعد في مطلع شبابه ٠ وجرح عميق كهذا الجرح الذي تصاب به نفس شاب ذكي نابه مثل نيتشة لا يمكن أن يندمل الا بتغطية الشعور بهذا العجز بالحصول على أسباب القوة ومصادر الشعور بها ٠ والبحث عن هذه الاسباب ، وتلك المصادر ، قد لا يتسنى للنابهين الا في رحاب الفلسفة ، وهو ما خططه لنفسه نيتشة الذي انصرف بكل طاقته الى ولوج دروبها جميعا ليظهر على العالم بالفلسفة التي كونها لنفسه وأمته مما يغطي عجزه ويجعله يسير في طليعة الاقوياء الطامحين الى فرض سيطرتهم على العالم ٠

هناك بدأ نيتشة يعبد القوة كمبدأ ، ويعبد الجيش والحياة العسكرية التي تمثل الجانب العملي من ذلك المبدأ ، وقد أدى به ذلك بالتالي الى عبادة « الانسان الاعلى » الذي جسده لنفسه وللعالم ، رمزا للجانبين ، النظري والعملي من هذا المبدأ ٠

وهو بعد ان حصل على شهادة الدكتوراه في الفلسفة عام ١٨٦٩ وقد أصبح في الخامسة والعشرين من عمره ، استدعته جامعة « بازل » السويسرية لاشغال كرسي الاستاذية لآداب اللغة الالمانية وتاريخها ٠ غير أن كرسي الاستاذية ، وانهماكه في التدريس لم يكن ليحوله عن التفكير في المساهمة في الاحداث الدامية التي كان يخوضها بسمارك في سبيل الامة الالمانية تلك الايام ٠ ومع ذلك ، فان طبيعته الرقيقة ، وحسه المرهف ، بدآ يجذبانه من طرف خفي الى الموسيقى ؛ وما هي الا أيام حتى نرى الشاب الفيلسوف وقد أصبح من أكبر المتحمسين لموسيقار عصره الكبير ، « ريتشارد فاجنر » الذي كان يقترب حثيثا من الشيخوخة آنذاك ، كما راح يعزف في أوقات فراغه على « البيان » بشغف ، ويضع النوتات الموسيقية الصاخبة التي تصيب الرأس بالدوار لكثر ما تحتوي عليه من أنغام « نشاز ! » صاخبة ، كان يتصور بأنها المظهر الحقيقي لمبدأ « القوة » في الموسيقى ٠

وكان «فاجنر» قد شب بادىء الامر في حياته الفكرية والسياسية على آراء «فيورباخ» المادية ٠ كذلك كان «باكونين» المفكر الفوضوي الروسي ، من اصدقائه في أواخر السنين الاربعينيات من القرن التاسع عشر ٠ ولقد رحب فاجنر بثورة عام ١٨٤٩ التي نشبت في مدينة « درزدن » والتي كانت في الواقع امتدادا لثورة ١٨٤٨ الفرنسية التي أطاحت بلويس فيليب ٠ لكن « فاجنر » الذي قاسى كثيرا من النفي والتشريد والاضطهاد بعد فشل تلك

الثورة ، تحول عن المادية في عام ١٨٥٤ عندما وقع في يده يوما نفس الكتاب الذي سيطر على افكار نيتشه بعد أحد عشر عاما من ذلك التاريخ ، وهو كتاب «شوبنهور» مار الذكر : « العالم ارادة وفكرة » • فاذا اضفنا الى «شوبنهور» ، «جوبينو» في كتابه «تفاوت الاجناس البشرية» الذي ارتأى فيه وجوب خضوع الاجناس المنحطة للاجناس العليا ، وهو ما تأثر به كذلك كلا المفكرين الكبيرين ، أدركنا سر تعلق نيتشه بموسيقار العصر الذي اطلقت عليه النازية فيما بعد لقب « الفنان النازي الاول » •

ففاجنر بعد ان استوعب فلسفة شوبنهور ، أصبح في بلاده رسولا من رسل الوطنية الالمانية الذين يرون وجوب قيام نهضات الامم على اسس من فتونها التقليدية • لذلك لم يعد من الغريب ان نرى موسيقى فاجنر مستمدة من صميم الاساطير الشعبية الالمانية التي كانت تسود حياة الالمان في العصور الوسطى • فبعث الحياة في الامة الالمانية في نظر فاجنر ، يجب أن يكون على مستوى اسطوري تستطيع بموجبه الامة السيطرة على مقدرات العالم ، وهو رأي كان يطرب له نيتشه كل الطرب •

بل وكثيرا ما استخف الطرب بالفيلسوف الشاب وهو يقرأ الحملات المركزة التي كان يشنها الموسيقار المفكر ضد المسيحية • فلقد بقي فاجنر من كبار اعداء المسيحية في عصره الى التاريخ الذي اختلف فيه مع نيتشه • وكان فاجنر في رسالته المعروفة بـ « الفن والثورة » قد انزل جام غضبه على الرومان الذين مهدوا الطريق لظهور المسيحية كدين يدعو المرء الى عدم القيام بشيء ذي بال عند الاقرار ببؤسه وشقائه ، والانصراف عن كل عمل يرمي الى انتزاع الانسان من قبضة هذا البؤس والشقاء • غير ان الدماء التي تجري في عروق العناصر الجرمانية ، كما يرى فاجنر ، كانت حرية باعلان الحرب على هذه المسيحية ، والقيام بالثورة الكفيلة بسحق القيم الفنية البائسة التي ترعرعت في ظل المسيحية • فالفن الاصيل ، في نظر فاجنر ، كان ذلك الذي أزدهر في أثينا قبل روما ؛ عليه فهو يدعو الى العودة الى المسرح ، مهد الفن القديم ، والى الدراما اليونانية الخالدة ، والاكتفاء من المسيح بما نال من عذاب في سبيل البشر ، ثم الالتفات الى آلهة الفن اليونانية التي تدفع الانسان الى الحياة السعيدة •

ولم يكن مقام فاجنر في سويسرا عام ١٨٦٩ بعيدا عن مقام نيتشه فيها بحال • فلقد قرر فاجنر تلك السنة الاقامة في ملكية تسمى «تريبشن» تقع على أحدى البحيرات الجميلة بالقرب من لوسرن ، لينعم بالراحة والطمأنينة مع عشيقته ، ثم زوجته ، كوزيما فون بيلوف ، ابنة الموسيقار الكبير «ليست» • ولقد وجه فاجنر الدعوة الى نيتشه ليقضي عطلة عيد الميلاد من ذلك العالم في ذلك المكان الشاعري الجميل ••• هناك ، على ضفاف البحيرة ، وتحت ذرى الالب ، استمع الفيلسوف الشاب الى « موسيقى

المستقبل » التي كان يعزفها له فاجنر بنفسه • وهناك ايضا ، كان يستمع الى المفكر الموسيقار العظيم ، وهو يتحدث له ولبعض مريديه عن آرائه في العنصرية والطبقية والمسيحية واليهود •

ومن هناك ، وقد سيطرت على مشاعره موسيقى فاجنر وآراؤه في الفن والسياسة ، قرر تسلق جبال الالب ليجد له مكانا هادئا بين قممها العالية يستطيع منه الصدور عن نفس أثقلها الحزن والالم والشعور بالعجز ، الى حيث كان يحلق به خياله في الاجواء الفلسفية اليونانية القديمة ، وليضع أول كتبه الفلسفية الكاملة ، «مولد المأساة» •

وفي «مولد المأساة» حلل نيتشه الآداب والفنون اليونانية القديمة وتاريخها ، وقال ان اعظم الفنون اليونانية انما كانت مزيجا ، أو نتيجة لاختلاط ايحاءات الهين من الآلهة اليونانية هما «ديونيسوس » ــ باخوس ــ، وأبولو •

فباخوس ، أو ديونيسوس ، هو اله الخمرة والموسيقى والرقص والعربدة والمغامرة والنشوة والغريزة والدراما والجرأة والاقدام • أما أبولو ، فانه اله التعقل والمنطق والتأمل الفلسفي والرسم والنحت والشعر الملحمي •

لكن سيادة ديونيسوس تمثل سيادة القوة واخلاق الرجولة ؛ في الوقت الذي تمثل فيه سيادة أبولو سيادة الجمال الانثوي ونزعات النساء • فعصر ديونيسيوس اذن ، هو عصر القوة والمعاناة والمرح والمغامرة والحرب ، وفيه ترتقي الامم سلم أمجادها ، وفيه أيضا تمضي أيام شبابها ، بل أن عصر ديونيسوس هو نفسه أيام الشباب والحياة الصاعدة بالنسبة للامم • أما عصر أبولو فهو عصر الضعف والانحلال والانحطاط ، غير انه ليس عصر الموت الابدي بحال • فانتهاء عصر ديونيسوس يخلف وراءه جذورا حية كامنة تحت تربة عصر ابولو ، ومن هذه الجذور تتولد الحياة ثانية ، ممثلة بظهور النابغين الذين يكونون طلائع جديدة لعصر ديونيسوسي جديد • فالامم الاصيلة اذن ، تمضي في صعود وهبوط متواتر : حياة بطولية ، يتلوها انحطاط وموت موقت ، ثم بعث • وليس مثل التفاؤل ما يدفع الانسان الى الاستبسال في تحمل الاذى ومعاناة الالم ، وهي الحال التي تدفعه الى التعالي ، والتحليق في آفاق القوة وكتابة قصص النصر والظفر بحد الحسام ••• وذاك هو البعث ، بل ذاك هو عهد الشباب الذي تحياه الامم من جديد •

ان الطابع الذي تتميز به الدراما اليونانية ، هو خضوعها للتفاؤل الديونيسوسي الذي اجتاح جميع الفنون في اليونان • وان « التراجيدية » التي ولدت على صعيد اليونان ، تمثل برهانا ساطعا على ان اليونانيين لم يكونوا قوما متشائمين على الرغم من واقع حياتهم المؤلم • وان الايام التي انتجت لنا دراما أخيل ، والشعر الفلسفي الذي تقدم على سقراط ، لهي الايام

العظيمة دون سواها ، في تاريخ اليونان ٠

لقد آمن اليونانيون القدامى بأن « الوجود والعالم شيء حق » ٠ لذلك كان المجد الذي حققته الفنون اليونانية ، هو التغلب على الآلام التي يزخر بها هذا العالم الذي يدعو التأمل في حقيقة وجوده الى التشاؤم من علائم انحطاط الامم ، والتفاؤل بدواعي عليائها وسؤددها ؛ وعندما تكون الفنون ، وبخاصة الموسيقى من الوسائل التي يتغلب بها الانسان على هذا الالم وهذا التشاؤم ، فانها تصبح والحالة هذه ، الاساس الذي يشاد عليه كيان الامة الطالعة الطامحة الى فوق ٠ لذلك كان من واجب الفنان أن يمجد القوة المستعلية على الالم المنبعث من قرارة هذه الحياة البائسة ، ليخلق أجيالا جبارة تفرض سيادتها على العالم ٠ والسيطرة والسيادة كهدف ، انما هي الدينامية الواعية للكفاح المطرد الذي هو رمز حياة الامم ٠ وان امة في حالة السكون ، تعني انها في مرحلة شيخوختها ٠ اما الامة الدائبة على الحركة فانها تلك التي دخلت مرحلة الشباب ٠ وفاجنر في نظر نيتشه حتى ذلك التاريخ ، كان الموسيقار العبقري المبدع الذي يدفع الامة الالمانية الى استعادة ايام شبابها وقوتها بمـــا يستوحيه من دراما وأنغام من الاساطير الالمانية القديمة الشبيهة بالاساطير اليونانية التي كانت تمثـل مرحلة شباب اليونان في العصور التي تقدمت على سقراط ٠

ان الشعوب في شبابها تنتج للدنيا ، كما يرى نيتشه ، الاسطورة والشعر ٠ اما في عهد انحطاطها ، فانها تنتج الفلسفة والحكمة الفارغة : « اعرف نفسك ، ولا شيء في التطرف » ٠٠ ذاك هو اللغو الفلسفي ، والحكمة الزائفة المجردة من العاطفة والدينامية مما هو مكتوب في معبد أبولو في دلفي ٠٠ انها دعوة الى الركود والاستسلام للالم والموت ٠

وكان سقراط في رأي نيتشه ، مثالا لتسيب الروحية اليونانية التي لا تعود لا الى عصر ديونيسوس ، ولا الى عصر أبولو ٠ بل وربما كان سقراط بداية للعصر الاخير ؟ فمنذ سقراط بدأ النقد الفلسفي يحل محل الشعر الفلسفي ، والحوار محل الالعاب الرياضية ، والعقل محل الغريزة ٠ كذلك أصبح أفلاطون ، وهو الرياضي اللامع ، منطقيا يعادي العاطفة والشعر ، ومسيحيا تقدم على المسيحية بمدة طويلة ٠ وان ماينطبق على افلاطون ، ينطبق على أرسطو في هذا الميدان ، فان تأثير سقراط قد جاوز افلاطون الى أرسطو دونما شك ٠

وكانت المسيحية في عرف نيتشه أيـــام كتب «مولد المأساة» سبة بالنسبة لمعتنقها ، فقد كان يدعو الى نبذها والبحث عن عباقرة يبعثون في الامم حياة جديدة بتربيتها على اخلاق القوة ، ومقاومة رجال اللاهـــوت المسيحي الذين يبشرون باخلاق العبيد ٠

ان الامة الالمانية ، كما رأى نيتشة ، كانت مقبلة على بعث عظيم ٠

فمن الجذور الديونيسوسية للروحية الالمانية ، انبعثت هناك قوة عظيمة ليست لها علاقة بالثقافة السقراطية البدائية • وان هذه القوة تتمثل في الموسيقى الجرمانية التي رسم خط حركتها ومدارها الواسع ، بيتهوفن وباخ وفاجنر • ولقد ألقى شوبنهور درسه البليغ على الدنيا عندما علم الامة الالمانية معنى الغريزة ، ومعنى مأساة الفكر • وقبل شوبنهور ، كان «كانت» قد سحق بآرائه الصائبة الانسان النظري • وها هو ذا فاجنر ، الذي يمثل اخيلا جديدا بما راح يبعثه في حياة الجرمان من أساطير ، وبما راح يؤلف من دراما وموسيقى ذات نشوة ديونيسوسية رائعة ••• فاي بعث رائع هذا الذي أقبلت عليه الامة !؟

وكان نيتشه بعد أن فرغ من طبع «مولد المأساة» في مطلع عام ١٨٧٢ ، قد كتب على النسخة التي أهداها الى فاجنر يقول :

« سترى انني قد حاولت في كل صفحة أن أعبر لك عن شكري على ما أفدتني اياه • واني لاشعر والفخر يملأني ، بأن لي شأنا ، وان اسمي سيقترن دائما باسمك » •

وعندما كان نيتشه على وشك ان يجمع قراطيسه وكتبه وقد أوشك على الانتهاء من كتابة «مولد المأساة» عند قمم الألب ، وصلته أخبار نشوب الحرب السبعينية بين المانيا وفرنسا فطرب لذلك كل الطرب وسارع الى الانحدار نحو فرانكفورت وفي نيته ان يلتحق بالقطعات الالمانية المقاتلة ليسجل بنفسه أساطير النصر الجرماني بما يقوم به من صولات وجولات مشهودات في الميدان ! • لكن الطبيب العسكري المختص قد حال بينه وبين هذه الامنية ، اذ وجد ان بصره ضعيف للغاية ، وانه لا يصلح لغير الخدمات الخلفية في تضميد جراح الجنود في المستشفيات مع الاسف ! •

وفي فرانكفورت ، تلك الايام ، بدأت الخطوط العريضة للكيان الفلسفي الذي بناه نيتشه ، تبدو واضحة للعيان ، اذ قال بعد ان شهد مسيرة أحدى كتائب الخيالة المدججة بالسلاح نحو الجبهة : « لقد شعرت لاول مرة في حياتي بأن ارادة الحياة في أقوى وأسمى مظاهرها ، لا يمكن أن تعرب عن ذاتها في الكفاح العادي التافه ، انما في ارادة الحرب ، وفي ارادة القوة ، بل وفي ارادة ما فوق القوة » •

لكن هذا الفيلسوف الذي لم يكن قد تجاوز السابعة والعشرين بعد ، والذي قد يحسبه المرء أنه ممن يلينون الحديد ، كان في الواقع أضعف من كثير من البنات ، اذ ان طبيعته الرقيقة وحسه المرهف ، قد تركاه فريسة للالم والمرض أمام مشاهد الدماء النازفة من جراح المصابين الذين كان يؤتى بهم الى المستشفيات من الميدان • ولقد اضطر الاطباء الى تسريحه من الخدمة بعد ان كاد المرض يودي بحياته لازدياد معاناته بتوالي مشاهد الجرحى والقتلى • ومع ذلك ، فان نيتشه ، على ما يظهر ، لم يدرك واقع المأساة المرة

عندما تشتبك الجيوش مع بعضها خلال المعركة في ميدان القتال ، لذلك رأيناه يوغل في الدعوة الى القوة وتسعير نيران الحروب ما استطاع الى ذلك سبيلا ، وكأن ما انتابه من مرض بسبب تلك الحرب ، كان لا يمت بشيء الى واقع المأساة •

ولم يكن نيتشه قد دهش كثيرا عندما وصلته أخبار «كميونة باريس» أو شيوعية باريس ، عندما قام نفر من الصعاليك الخونة بضرب الجيش الفرنسي أيام محنته من الخلف لغرض اسقاط الحكومة الوطنية التي كانت تدافع عن فرنسا بكل ما استطاعت من قوة بعد معركة سيدان ، ولاقامة حكومة شيوعية من هذا الصعلوك وذاك • ذلك ان الاعمال الخيانية الوحشية التي أغرق بها الشيوعيون باريس في بركة من الدم بعد أن تركوها نهبا للرصاص والحريق ، قد جاءت مصداقا لآرائه في أخلاق العبيد ومدى خطرها على حياة الامم ، خاصة اذا كانت مستمدة من ينبوع ماركسي بائس لم يصدر الا عن فكرة العبيد في سحق القوميات المتطلعة الى الحياة الكريمة ، واخضاع الجنس البشري لعبودية وعبادة التافهين والعاجزين واعداء الابداع والنبوغ • لذلك لم يكن بالشيء الغريب ، أن نرى نيتشه يصفق طويلا للجيش الالماني الذي انقض جنوده ، بالتعاون مع الجيش الفرنسي ، كالصقور على عشوش البغاث ليطهر خنادق مونتمارتر منهم بالسلاح الابيض •

وفي عام ١٨٧٢ ، عاد نيتشه الى مزاولة التدريس في جامعة بازل رغم ما كان يشعر به من مرض • انه كان يشعر بأنه صاحب رسالة لها خطرها في حياة الامة الالمانية ، وان عليه ان يؤديها مهما كانت ظروفه الخاصة ؛ وفي ذلك كان يقول آنذاك : « ان امامي خمسين سنة من الجهد والكتابة ، وانه يجب علي أن اطبع روحية هذا العصر بهذا الجهد • » • وعندما أصدر « مولد المأساة » في ذلك العام ، بادرت الجامعات الالمانية الى دعوته لتدريس الفلسفة فيها ؛ غير ان جامعة بازل حالت دون ذلك بان رفعت راتبه الى درجة عالية ، كما خرج طلبة الجامعة في مظاهرة ضخمة ومواكب رائعة لم يشهد لها تاريخ الفلسفة مثيلا من قبل ، اكراما للفيلسوف النابغة ، واعتزازا به ، وتعبيرا عن مشاعر الجامعة في حرصها على الاحتفاظ به دون غيرها من الجامعات •

وكان رأي نيتشه في الجامعات الالمانية غير مريح بالنسبة للكثير من المفكرين والرسميين الالمان • ففي سلسلة البحوث التي كتبها في السنوات ١٨٧٣-١٨٧٦ ، شن في رسالته « شوبنهور كمرب » هجوما مركزا على تلك الجامعات التي كانت تحتضن التافهين من أدعياء الادب والفكر الذين راحوا يفرضون انتاجهم الفج برعونة على الاجيال الالمانية الطالعة مستغلين في ذلك مراكزهم في الجامعة ، ونفوذ الرسميين الذين يقفون وراءهم علنا في دعم ذلك الانتاج : هذا يطلب شهرة وذيوع صيت هو غير جدير بهما ، وذاك يظن

ان كراسي الحكم يمكن أن تسند باقلام التافهين • وكلا الجانبين كان في نظر نيتشه ، خطر ، أي خطر ، على الخط التربوي القومي الذي يجب ان تلتزمه الجامعات في تنمية مواكب من تتوسم فيهم النبوغ من طلبتها ، وغير طلبتها من بقية ابناء الشعب المتطلعين الى ما تطالعهم به الجامعات من بحوث فكرية وغير • بل وان هؤلاء الرسميين كانوا يخشون الاساتذة من الفلاسفة الكبار ، فهم يحاولون ابعادهم عن كراسي الاستاذية في الجامعات الرسمية جهد امكانهم ،وفي ذلك يقول نيتشه :

« لقد علمتنا التجارب بأنه ليس هناك من شيء يقف في طريق الفلاسفة العظام كمساندة الرسميين لادعياء الفكر في الجامعات الرسمية • بل هل توجد هناك جامعة رسمية واحدة تجرؤ على احتضان او عضد فيلسوف عظيم كشوبنهور أو افلاطون ؟ ان الدولة نفسها تخاف أمثال هؤلاء دائما وابدا » •

وهذا الخط التربوي القومي الذي يدعو نيتشه الى التزامه ، يظهر واضحا كل الوضوح عندما هاجم الجامعات الالمانية من جديد في رسالته « استخدام التاريخ واساءة استخدامه » ، و « مستقبل انظمتنا التربوية »، وهما رسالتان في الطليعة من بحوثه التي جعلته اماما من أئمة الفكر النازي ، اذ دعا فيهما الى تطبيق نظرية التطور على الاخلاق مادام بالامكان تطبيقها على الدين وغير • ورأى ان وظيفة الحياة الاساسية ، هي خلق النابغين وتنمية مواهبهم ونبوغهم ، وليس اضاعة الوقت عبثا في تطوير امكانيات « الاغلبية » ، التي تكون عديمة القيمة ، اذا نظرنا الى امكانيات الافراد الذين تتكون منهم ، اذ هي لا شك امكانيات تافهة • فوظيفة الحياة اذن ، هي خلق « طبقة ممتازة » من الافراد ذوي النبوغ الذين ينشأون على اخلاق القوة والسيادة •

وكان من بين بحوث نيتشه في تلك الفترة من حياته أيضا ، رسالته « ريتشارد فاجنر في باير ويت » • ولقد ارتفع نيتشه بفاجنر في هذه الرسالة الى الدرجة التي كادت أن تكون مدخله الى « الانسان الاعلى » لما امتاز به فنه من سمو واصالة • ومع ذلك ، فقد كان فاجنر مطعونا في نقاوة دمه عند نيتشه اذ قال : « [لقد «استشرق» العالم الى ما فيه الكفاية ، وان الناس قد بدأوا يتوقون الى أن «يتهلينوا»] – أي أن يصبحوا كما كان عليه اليونان القدامى •

ففاجنر ، رغم تعصبه الشديد للقومية الالمانية ، كان قلق النسب ، اذ كان يشاع عنه بأن اباه الحقيقي هو زوج امه الممثل اليهودي « جاير » الذي كان يرتبط مع أبيه بصداقة قوية قبل وفاته • وكان في أنف فاجنر الاقني الذي يشابه أنف زوج امه ، بعض ما يقيم الدليل على صحة تلك الشائعات •

أم هل أن فاجنر وحده بدأ يكون موضع نقمة نيتشه في تلك الايام ؟ •

ان قيام الامبراطورية الالمانية بعد اندحار فرنسا في حرب السبعين قد أدى الى غرق الفن الالماني في بحر من الغرور . وليس مثل الغرور كما كان يرى نيتشه ، من عدو للامم التي تنشد مكان الصدارة في الحياة . فالامبراطورية كما كانت عليه ، أصبحت في نظره الشر الاكبر الذي يحيق باخطاره بالروحية الجرمانية . ثم هل من عبقري آخر كان يمثل ذلك الغرور الالماني غير « دافيد شتراوس » ؟ ... ألابئس شتراوس اذن من فنان مغرور راح يجسد بفنه الاقدار المقدرة على الاجيال الالمانية الطالعة ، وويل لشتراوس من صواعق نيتشه .

لكن تلك الصواعق كانت في الواقع أشبه ما تكون بالالعاب النارية الصغيرة التي يلهو بها الاطفال في بعض الاعياد بالقياس الى دوي الثورة الهائلة التي تفجر عنها نيتشه ضد فاجنر بعد أن شهد الدراما الرباعية الكبرى ، « خاتم النيبلونجن » في آب عام ١٨٧٦ .

ففي ذلك الشهر ، كان نيتشه بين المدعوين لحضور افتتاح المسرح الجديد الذي أقامه فاجنر في «بايرويت» . ولقد حضر حفلة الافتتاح هذه ، الملك لودفيغ الثاني ، بالاضافة الى الف وخمسمائة آخرين من أمراء وأميرات وشخصيات رسمية كبيرة وعوائل ذات مركز ارستقراطي بارز ، كما استغرق العرض الاول لـ « خاتم النيبلونجن » هناك بمدة أربع ليال متوالية . على ان موسيقى فاجنر في تلك الدراما ، كانت قد أطارت صواب مريده الفيلسوف الطامح الى ارتياد القمم في عالم القوة ، اذ رأى فيها كل ما يدفع الرجال الى التخلق بأخلاق النساء ، ثم كل مايجرهم الى حضيض الضعف والوديان السحيقة البائسة ، كما اسف وتألم كثيرا لسقوط نسر جبار كفاجنر من عليائه الى مثل هذا الدرك البائس . وكانت ليالي الافتتاح بموسيقاها تلك ، شديدة الوطأة على أعصاب نيتشه واحساسه المرهف . لذلك لم يكن ليستطيع ان يواصل الاستماع اليها ويبقى في بايرويت ، فبادر الى الفرار ، وكأنه يهرب من جحيم ، دون ان يودع فاجنر بكلمة واحدة . ولقد وصف لنا نيتشه أحاسيسه وهو يستمع الى موسيقى فاجنر تلك الايام فقال :

« اشعر بأني سأصبح مجنونا اذا استمر بي البقاء هنا . وان الرعب ليتملكني قبل ابتداء كل ليلة من هذه الليالي الموسيقية الطويلة . واني لا أستطيع احتمال ما هو أكثر من هذا الرعب » .

واذ يقصد نيتشه مدينة « سورينتو » هربا من شرور الفن وشياطينه الذين يتزعمهم فاجنر ، فانه لن يلبث وان تجمعه ايطاليا بالفنان الكبير من جديد ، حيث قصدها ليضع اللمسات الاخيرة لاوبرا « بارسيفال » ، آخر أعماله الفنية في حياته . ولقد كتب فاجنر الى نيتشه يطلب منه وجهة نظره في موضوع هذه الاوبرا الجديدة ، فجن جنونه حين أطلع عليها ،

اذ وجدها تمجد المسيحية ، كما تمجد الشفقة والمحبة الصادرة عنها ، وتدعو الى خلاص العالم على يد المسيح ، وهي كما كان يـرى نيتشه ، اكاذيب مستوردة من مصدر سامي بائس ٠

هنالك بدأ نيتشه يكفر بالصنم الذي كاد أن يعبده من قبل : بفاجنر ٠ وهنالك بدأ يسحق شخصية الفنان الكبير بكل ما أوتي من بلاغة فلسفية ٠ وفي رسالته التي نشرها عام ١٨٨٨ تحت عنوان « مسألة فاجنر » ، قال عنه بكل صراحة بأنه كان مداجيا ومنافقا :

« لقد تملق جميع الغرائز النهلستية والبوذية ، كما دس تلك الغرائز سرا في موسيقاه ٠ وقد تملق بالاضافة الى ذلك ، جميع صور المسيحية ؛ وجميع أنواع الديانات الاخرى ، وكل ما يعبر عن السقوط والانحطاط ٠٠٠ وكان ريتشارد فاجنر ، هذا الرومانتيكي العاجز ، قد سقط فجأة على اقدام الصليب ٠ » لكن سقوطه هذا كما قال نيتشه ، كان أمام أعين جميع الجرمان الذين رثوا لحاله دونما شك ٠

فاذا طلق نيتشه الفن بعد يأسه من ان يكون وسيلة من وسائـل تصليب اخلاق الرجال ورفعهم الى مدارج القوة ، فانه لابد وان يحاول تحقيق هذا الغرض عن طريق تبنيه العلوم هذه المرة ، ثم تبني الفلسفة ٠ وهو ما يعني أيضا ـ لو درى نيتشه ـ تخليه عن الخط الديونيسوسي الذي وهبه جميع طاقاته الفكرية ، والتزامه الخط الابولوني بكل رحابة صدر ٠

هكذا ظهر لنا نيتشه حين عكف على وضع كتابه « البشر جميعـا انسانيون » في المدة بين ١٨٧٨ـ١٨٨٠ ٠ انه كان يريد ان يثبت وجوده ، بعد جميع ما جرى ، كطبيب ، وعالم من علماء النفس الكبار ٠ وانه كان دونما شك متأثرا الى حد كبير بفلسفة شوبنهور ، من هذا الجانب أو ذاك ٠ والكتاب عبارة عن تحليل نيتشوي للاحساسات الرقيقة والمعتقدات التي يؤمن بها الانسان ، وقد اهداه الى فولتير ، كما بعث بنسخة منه الى فاجنر ، فكان أن بعث اليه هذا ، على سبيل المقابلة بالمثل ، بنسخة من كتابـه الجديد «بارسيفال» ٠٠ بعد ذلك انفصمت عرى العلاقة بين الرجلين العظيمين الى الابد ٠

على ان الحس المرهف والشعور الرقيق ، وتركيز الفكر في خيبة الامل بالفن ، وفي تدهور الفكر والفلسفة على ايدي التافهين داخل الجامعات الالمانية، وعلى أيدي غيرهم من رجـال الدين المتزمتين خارجها ، قـد أورث نيتشه هموما ثقيلة باتت تعصف عصفا بقواه البدنية والعقلية تلك الايام ٠ وفي عام ١٨٧٩ ، سقط طريح الفراش ، كما اختلت قواه العقلية ، وكادت تطويه يد الموت ٠ وهو عندما كا نيشعر بأنه يقترب حثيثا من حتفه ، كان يتوجه بالرجاء الى شقيقته بصوت خافت ويقول : « عديني يا اختاه ، بأن لا يقف احد حول جثماني غير اصدقائي عندما أموت ٠٠٠ وان لا يتمتم أي قس ،

أو أي شخص آخر على قبري بالاكاذيب عندما لايكون باستطاعتي حماية نفسي ، فأني أريد أن أدلف الى داخل قبري كصنم شريف » •

وكانت جامعة بازل قد خصصت له راتبا تقاعديا محترما بعد هذا المرض • لكن نيتشه لم يمت ذلك العام اذ قدر له أن يعيش احدى وعشرين سنة أخرى •

وها هو يقوم من فراش مرضه عام ١٨٨٠ بروحية أقوى من الموت • انه استعاد قواه العقلية ، وراح يقبل على الحياة وكأنه خلق من جديد رغم الصداع المزمن الذي بقي يلازمه الى آخر أيامه ، فكان يبحث عن اسباب الصحة ، وأسباب اللهو والسعادة ، وعن الموسيقى المرحة ذات الانغام المبهجة و •• وعن الحب أيضا !!

الحب !•• وهل مثل نيتشه الذي خلق من القوة صنما يعبد ، من يركع متخاذلا عند أقدام امرأة ؟ لكنه الحب •• العاطفة الانسانية النبيلة التي حاول أن يسحقها نيتشه في داخلية ذاته مدة طويلة فلم يستطع الى ذلك سبيلا • غير ان نيتشه كان ساذجا للغاية عندما سقط في شراكه ، اذ فاته ، وهو الفيلسوف الاريب ، ان « بنات الجيل » يتعشقن أزيار النساء من ذوي اللسان الناعم الذين يجيدون فنون الكذب والغزل ؛ وهي شروط لم تكن متوفرة فيه مع الاسف ! لذلك لم تبادله « لاو سالومي » حبا بحب • انما صدت عنه لتنصرف الى غيره من فرسان الليل •

وكان نيتشه قد أصدر قبل هذا الفشل الذريع ، كتابيه ، « فجر النهار » في عام ١٨٨١ ، و « الحكمة المرحة » عام ١٨٨٢ • وهما من الكتب التي خف فيها تطرفه في آرائه بعض الشيء • لكن مباهج الحياة في ايطاليا لم تكن ذات فائدة في مداواة جراح قلبه على ما يظهر ، فقد أصبح ثورة لاهبة على المرأة بصورة عامة ، وعلى كل ماله صلة بالميوعة واخلاق النساء • هنالك قرر بكل حزم ، مغادرة ايطاليا ، والصعود الى ذرى الالب عند سيلز ماريا في انجادين العليا ليضع أشهر كتبه التي لم يبق فيها حقا في الحياة لضعيف على وجه الارض :

« هكذا تكلم زرادشت » •

و «هناك» ، على تلك الذرى ، قال نيتشه :
« جلست انتظر ــ انتظر لا شيء ،
متمتعا ، فيما وراء الخير والشر ، بالضياء حينا ،
وبالظلال أحيانا أخرى •
ولم يكن هناك غير النهار ، وغير البحيرة ،
وغير الظهيرة ، وغير الزمن اللامتناه ! •
بعد ذلك ، وعلى حين غرة يا صديقي ،
أصبح الواحد أثنين ،

فلقد مر بالقرب مني زرادشت ٠ » ٠

وزرادشت ، هو الحكيم الفارسي القديم ، وقد تخيله نيتشه في الثلاثين من عمره عندما انزله من عليائه في الجبال ليعظ جمهورا من الناس ٠ غير ان ذلك الجمهور يصد عنه ليشاهد بهلوانا كان يسير على حبل معلق ٠ وعندما يسقط البهلوان من الحبل ويموت ، يبادر زرادشت الى حمله على اكتافه ليدفنه ويقول :

« لانك عشت حياة الاخطار ، فسأدفنك بيدي أنا »

بعد ذلك نسمع زرادشت وهو يقول واعظا : « عيشوا حياة الاخطار ، واقيموا مدنكم الى جانب فيسوفيوس ٠ وابعثوا بسفنكم الى البحار المجهولة ٠ ثم عيشوا في حالة حرب » ٠

ثم يبشر زرادشت بموت الآلهة القديمة ويقول :

« لقد ماتت الإلهة القديمة منذ زمن بعيد ٠ ولقد كانت نهايتها حسنة ومفرحة ٠ ٠ »

واذ يضرب نيتشه الديانات القديمة بمثل هذا العنف ، يلتفت الى حكماء الجمهور الذين أجتمعوا في كهف زرادشت ليأخذوا عنه شريعته ، فيوجه انظارهم الى ضرورة تركيز افكارهم في مصيرهم على الارض دون السماء ، ويوحي لهم بأن التعاليم المسيحية تحمل في تضاعيفها السم للناس ، ثم يطلب منهم هدمها واقامة بنيان جديد ، ومحراب جديد ، على انقاضها لغرض عبادة جديدة ، يقدس فيها معبود منتظر ، هو « الانسان الاعلى » ٠ والواقع ان نيتشه عندما بشر بهذا الانسان الاعلى ، كان أشبه ما يكون بيوحنا المعمدان مع الفارق بين البشارتين ـ عندما كان يبشر بمجيء المسيح ٠

« ان على المبدع في الخير والشر ،
ان يكون هداما ، وان يسحق القيم ويحولها الى حطام ٠
فالشر في عنفوانه ، جزء من الخير الاعظم :
انه الخير الخلاق ٠
عليه دعونا ايها الحكماء نتكلم ، ولو ساء الكلام والمقال ٠
ذلك ان السكوت أسوأ ،
فليتحطم ما يتحطم على صخرة حقائقنا ،
ولان في السكوت عن الحقائق سموما ٠
فهناك المزيد مما سيبنى غيره من البيوت ٠
هكذا قال زرادشت » ٠٠٠
« اني ابشركم بالانسان الاعلى ،
فلقد ماتت جميع الآلهة ٠٠٠ »

و « الانسان الاعلى » في نظر نيتشه ، كما هو واضح ، لم يخلق بعد • ويرى نيتشه بأن نظرية التطور ، ذات الدوي الهائل في أيامه ، يمكن أن تطبق على الجنس البشري بحيث ينتهي سلم التطور فيه الى ظهور « انسان أعلى » ممتاز يتربع على القمة ويحتل محل الآلهة • فالانسان العادي بالنسبة لهذا الكائن الاعلى اذن ، لا أكثر من مرحلة انتقال :

[« اني ابشركم بالكائن الاعلى •
فالانسان الاعتيادي يجب اجتيازه •
ولكن ما الذي فعلتموه لاجتياز هذا الانسان ؟
ان الشيء العظيم في الانسان الاعتيادي ، هو كونه جسرا للعبور ،
وليس هدما او غاية •
وان الشيء المحبوب في الانسان العادي هو انه « انتقال » ،
و « هدم »] •

ولكن من عساه يشرف على هذه الداروينية الجديدة ؟ أم كيف سيجري هذا التطور ؟

لا شك ان المشرفين في نظر نيتشه ، هم طلائع المغامرين الاقوياء ، من المضحين الذين لايعرفون للضعف والشفقة معنى • وان العملية ذاتها ، لا تعني عنده غير « العمل » والتضحية ، لا من أجل سعادة هؤلاء المضحين ، انما من أجل سعادة « الانسان الاعلى » نفسه • فالكدح والمعاناة ، يجب أن تكون من نصيب عامة الناس • اما المتعة والسعادة ، فانها من نصيب انسان نيتشه الاعلى :

« أحب الذين لا يعرفون للحياة معنى بغير الابادة والتدمير • لان هؤلاء وحدهم ، هم الذين يمضون الى ما وراء القوة ••

« واحب الذين يزدرون الصعاب ويحتقرونها ، لانهم أعظم المحبين والعابدين • انهم سهام الشوق والحنين الى الشاطيء الآخر •

« وأحب الذين لا يبحثون فيما وراء النجوم عن مبرر سماوي للسحق والتدمير والتضحية ، انما هم يضحون في سبيل الارض كي تصبح هذه يوما ما ، ملك يمين الانسان الاعلى •••

« وكنت قد تخليت عن الكفاح في سبيل سعادتي أنا ، منذ زمن طويل • واني اكافح اليوم من أجل شغلي وعملي • »

وفكرة « الانسان الاعلى » هذه ، هي نفسها التي طورتها النازية الى فكرة « الزعيم » • فهتلر في الفكر النازي ، كان نفسه الانسان الاعلى الذي تصوره نيتشه • ولقد قالت « فراو فورستر » شقيقة نيتشه التي أدركت عهد الزعيم الالماني ، ان هتلر ، هو الصورة المجسدة للانسان الاعلى الذي بشر بظهوره أخوها •

وكانت نظرية « العود الابدي » من الافكار اللصيقة بفكرة الانسان الاعلى لدى نيتشه • فهذا العالم الذي يعيش فيه البشر في ظل هذا الصنم ، « سيفنى يوما ليعود » • فانت وأنا وجميع الوقائع التي نحياها اليوم ، كلها كانت قد مرت يوما من الايام في الماضي كما نشاهدها الان ؛ وكلها ستعود لتظهر على مسرح الحياة من جديد بعد فناء العالم في المستقبل • فاذا متنا وصرنا ترابا ، فاننا لا شك سنبعث من جديد لنحيا نفس الحياة التي عشناها ونعيشها الآن ، ونسكن نفس المساكن ، ونشهد نفس الظروف ، الى أن نموت ثانية لنبعث من جديد ، وهكذا على هذه الوتيرة الى الابد • فالحياة بالنسبة للجماعة والفرد ، محصورة بين واقعتين أبديتين : موت وبعث ، الى مالانهاية •

وكان الفيلسوف الالماني الكبير ، شبنجلر ، الذي هيأ كثيرا لقيام النظام الهتلري ، قد استعار هذه الفكرة من نيتشه ، لكنه لم يطبقها على الافراد ، انما على الحضارات •

وكتاب « زرادشت » قد اعتبر من قبل النقاد ردا عنيفا ايضا على فاجنر في اوبرا « بارسيفال » • لكن نيتشه عندما وضع القلم جانبا بعد ان انتهى وحي زرادشت في ذرى الألب ، وانهى الكتاب ، لم يستطع حبس دموعه وهو يتلقى خبر انتهاء سيرة موسيقار عصره الاكبر ، اذ وافته المنية في الثالث عشر من شباط عام ١٨٨٣ في البندقية بايطاليا • ولقد بقي نيتشه أمينا على ذكرى فاجنر ، اذ بقي يخلص لشخصه الحب رغم اختلافه معه اخيرا في التفكير ، الى آخر أيام حياته • وكان نيتشه في آخر سنيه قد فقد قواه العقلية • ومع ذلك ، فانه عندما وقع بصره على صورة كبيرة لفاجنر كانت معلقة على الجدار في بيته تلك الايام ، قال كمن عثر على شيء فقده منذ أمد طويل : « هو الذي احببته كثيرا ! » •

و « زرادشت » دونما شك ، واحد من اكبر الكتب الفكرية التي شهدها النصف الثاني من القرن التاسع عشر • اما قصة طبعه ونشره تلك الايام ، ففيها بعض العزاء لبعض مؤلفينا الفاشلين المعاصرين « امثال نيتشه !! » • ذلك ان الفيلسوف الكبير كان قد قدم كتابه هذا الى المطبعة على دفعتين ، تأخر طبع الدفعة الاولى منه بسبب انشغال المطبعة بطبع خمسمائة الف نسخة من التراتيل الدينية • وعندما أصبح القسم الثاني منه بين يدي الناشر ، رفض هذا طبعه على نفقته بدعوى انه كتاب فاشل لا يحقق شيئا من الربح • وكانت نبوءة الناشر صحيحة من ناحيتها التجارية حيث ان الكتاب عندما طبع على نفقة صاحبه وأصبح في السوق ، لم يبع منه أكثر من أربعين نسخة فقط • كما أهدى منه نيتشه سبع نسخ لبعض المعنيين بشؤون الفكر ، شكره واحد منهم فقط على هديته • ذلك أن الكتاب قد استقبل ببرود قاتل من قبل هؤلاء الذين اسماهم نيتشه بالتافهين ممن

يتولون كراسي الاستاذية في الجامعات الالمانية ، فلم يرحب به أحد ، ولم يعلق عليه ، أو ينوه يذكره وصدوره أحد • بل وحتى أصدقاءه المقربين من زملائه اساتذة جامعة بازل ، امثال «بوركهارت» ، و «أوفربيك» قد حزنوا كل الحزن يوم صدوره • لقد كان نيتشه يوم صدور «زرادشت» الى السوق من أكبر المؤلفين الفاشلين • أما يوم وقف «روزنبرغ» ، تلميذ نيتشه المخلص الامين ، وفيلسوف الحرب والعسكرية الالمانية ، أمام محكمة نورمبرغ بعد انهيار المانيا في الحرب الثانية ، فقد كان المؤلف ، والفيلسوف الاكبر الذي دفع العالم الى حربين عالميتين بسبب ماكتب وألف ، بكل نجاح !

وبعد «زرادشت» ، بدأت صحة نيتشه تسوء من جديد ، فكان يبدو دائم الشحوب والاصفرار ، واهن القوى ، كما راح بصره يزداد ضعفا على ضعف • ولقد امضى بضع سنوات في تلك الفترة من حياته في التطواف في المدن السويسرية ، وفي فينيسيا ، وتورين ، وجنوا ، ونيس ، في محاولات للترويح عن النفس والتخلص من الصداع المزمن ، فلم يستطع الى ذلك سبيلا • وفي ذلك يقول نيتشه :

« اني أعاني مئتي يوم من المرض في العام الواحد ! »

وكانت شقيقته «فورستر» قد تزوجت تلك الايام ، ورجته أن يرافقها وزوجها الى باراغواي في أمريكا الجنوبية عله ينعم بالراحة المنشودة ويستعيد صحته هناك • لكنه رفض مغادرة أوربا ، اذ كانت هذه في رأيه ملتقى فلسفات الدنيا التي لا يستطيع العيش بعيدا عنها بحال • وكان على ضعف بصره ، يجلس في الغرف التي يسكنها في هذه المدينة أو تلك ، ليكتب ما يتوارد على ذهنه من شوارد • بل وكثيرا ما استبدت به الالام النفسية الممضة عندما يرى نفسه مضطرا الى أن يكتب وسط العتمة بعد انسزال الستائر على نوافذ الغرفة ، لعدم احتمال بصره أمواج الضوء عند الكتابة •

ولقد جمع نيتشه بعض هذه الشوارد مما كتب ، وأصدرها بشكل كتابين ، كان اولهما « ما وراء الخير والشر » الذي نشره عام ١٨٨٦ ، والثاني « تاريخ انساب الاخلاق » ، عام ١٨٨٧ • وفي هذين الكتابين ، يحدثنا فيلسوف القوة ويقول بان المجتمعات منذ قيامها قد تميزت بنوعين من السلوك الانساني ، أو بالاحرى بنوعين من الاخلاق هما أخلاق السادة ، وأخلاق العبيد : اخلاق البطل ، وأخلاق القطيع • فاخلاق السادة ، هي التي ورثها الناس عن الرومان القدامى الذين تركزت مثلهم في العنف والقوة ، والرجولة الطامحة ، والاعتداد الشديد بالنفس ، وصدق العزيمة والجرأة والاقدام • فالمجد الحق ، صنم من قبيل الاصنام الارستقراطية المعبودة ، أما أخلاق العبيد ، فقد ورثتها الاجيال الحاضرة من آسيا ، فهي أخلاق اليهود ايام عبوديتهم ، وان ما نسميه اليوم بالضمير ، يكون بالتالي والحالة هذه ، ضميرا يهوديا مسيحيا وبورجوازيا ديموقراطيا • وعلى أساس من

اخلاق العبيد ، استطاعت الاستكانة والخنوع ان تحل محل القسوة والعنف، كما استطاعت نزعة الامن والهدوء أن تحل محل النزوع الى المخاطرة والقوة والتسلط . وأخيرا استطاع هذا الضمير الديموقراطي أن يحل محل امجاد الاقوياء . ويرى نيتشه أن عيسى ومن سبقه من الانبياء ، انما هم الذين جعلوا من الدنيا وما انطوت عليه من مباهج ، اسماء مرادفة ، أو ترجمة لكلمة الشر بفضل ما امتازوا به من حذلقة اللسان . وانهم انفسهم ايضا قد جعلوا من البؤس والفاقة والحرمان دليلا على «فضيلة» الانسان الذي يرسف في أغلالها . كل ذلك في الوقت الذي كانت تعني فيه كلمة «الفضيلة» عند الرومان ، الرجولة الحقة ، والشجاعة والاقدام .

وتزييف القيم ، كما يرى نيتشه ، قد بلغ منتهاه بظهور المسيح . فالمسيح ، هو الذي قال بتساوي القيم بين الناس ، وبتساوي الحقوق . وعن شريعته انبثقت المبادىء والفلسفات المختلفة في النفع العام ، والشيوعية، والاشتراكية والديموقراطية ، وهي فلسفات بائسة لا تؤدي بالجنس البشري كما يقول ، الى غير الانحلال والانحطاط .

لكن نيتشه في الواقع ، كان قد تجاهل ــ ولا نقول يجهل ــ تاريخ الديموقراطية والاشتراكية القديم ، اذ لا نحسبه انه يجهل تاريخ الحياة الديموقراطية التي ازدهرت على عهد بركليس قبل المسيح في اليونان ، ولا طابع الحياة الاشتراكية التي عاشتها سبارطة على عهد المشرع العظيم ليكركوس ، أو طابع الحرية الذي ساد حتى حياة روما العسكرية على عهد مؤسسها رومولوس . فروما نفسها كما لا يمكن ان يجهله نيتشه ، لم تكن قد بنيت بادىء ذي بدء ، الا كدار واسعة لتحرير العبيد .

ومهما كانت الحال مع نيتشه ، فانه يعتقد بان هناك وراء جميع أنواع السلوك ، ارادة قوية تتخفى وراء ستار أحيانا ، وتظهر واضحة للعيان أحيانا اخرى ، وتلك هي « ارادة القوة » . ففي كتابه « فجر النهار » الذي اصدره عام ١٨٨١ ، كان قد أشار الى هذه الحقيقة ، وذكر ان زيارة المريض من قبل الاصحاء يعني بالنسبة للمريض تفوق الصحيح عليه قوة . وكذلك يرى نيتشه ان سلوك الضعف المتمثل في حوادث الفسق والهيام ، ما هو الا ترجمة ، او اعرابا عن وجود ارادة قوية خفية تنزع الى سيطرة العاشق او المعشوق وامتلاكه والاستئثار به دون غيره من بني البشر ، بل وان هناك من تصل به حال العشق درجة لا يتورع عندها عن الاقدام على قتل محبوبه للحيلولة دون افلاته من يده ليقع تحت سيطرة محب جديد . فالحب كما يرى نيتشه ، هو الانانية واخلاق القوة المتسترة ببرقع من صنع العبيد . وان الضعة بالاحرى ، هي اللون المزيف الذي تختفي تحته ارادة القوة كما تختفي الحرباء .

ان الانسان الفاضل في رأي نيتشه ، هو الرجل القوي المتعالي الذي

ركب أجنحة الاساطير الرومانية القديمة • وان رجلا مثل هذا ، لا يحاول اخفاء رغباته أو قتلها بما يسمى العقل والعاطفة • وان كلامه الفاصل هو قوله : « اني أريد » وكفى • فالقوة التي يتملكها هذا الانسان . لغرض تحقيق مايريد ، هي القانون الحق ، وهي المبرر لكل ما يقوم به من أفعال في مجال السيادة والتسلط • لكن الذي يأسف له نيتشه ، هو ان سيادة وجهة النظر « الديمقراطية ـ المسيحية ـ اليهودية » على أوربا في القرن التاسع عشر ، قد جعلت حتى الاقوياء يخجلون من قوتهم ، وهو ما يعني موت الفضائل والارستقراطية الرومانية • فأوربا اذن ، كانت تعيش على أسس من أخلاق العبيد • واذ يؤكد نيتشه هذه الحقيقة ، فانه يلتفت الى صب جام غضبه على رأس علم الفلسفة الالمانية الكبير « كانت » واصفا اياه بأنه « فيلسوف كونينكزبرغ الصيني » الذي دعا الى عدم استغلال الناس كآلات ووسائط •••• وهو رأي يتعارض مع فلسفة نيتشه القائلة بأن الناس العاديين هم واسطة انتقال ، أو مرحلة انتقال الى « الانسان الاعلى » •

وحتى استاذه شوبنهور ، لم يسلم من نار افكاره وهو يدفع اوربا بأخلاق العبيد • وكان شوبنهور بفلسفته ، قد علم نيتشه بأن الغرائز الانسانية هي مبعث «القوة» المحركة للمجتمعات ، والسر الكامن الذي يقف خلف تصرفات كل بشر • لكن الحل الذي رآه شوبنهور جوابا على المأساة الانسانية بالتزام الزهد وقتل الشهوات والسير على خط مواز للنرفانا الهندية ، قد أسخط نيتشه كثيرا فاتهمه ، كما اتهم فاجنر ، بأنه كان بوذيا ، وانه استورد لاوربا «بوذية جديدة» لاتختلف في شيء عن المسيحية •

ان الطابع الرئيسي لانحطاط الامم ، هو عدوى قادتها بأخلاق العامة ـ اخلاق العبيد ـ التي تتركهم حطاما لايقدمون شيئا أو يؤخرون ، في بناء أمجاد الامم • فالنظام الاخلاقي في رأي نيتشه ، يجب ان يخضع لقانون « المرتبة » في المجتمع • ذلك لانه ليس من الاخلاق في شيء أن يكون « ما هو حق لهذا الانسان ، هو حق أيضا لذاك » • ففي المجتمعات القوية ذات المجد ، تتطلب الوظائف المختلفة التي يضطلع بها الافراد ، صفات مختلفة • وان هذه الصفات فطرية خلقت مع الانسان ، وان من واجب الجامعات والمشرفين على المناهج التربوية ، ثم من واجب المجتمع ، ان ينمي الصفات والمواهب القيادية لدى الافراد لخلق قادة أقوياء • وأخيرا فان ارسطو كان مصيبا ، في نظر نيتشه ، كل الصواب ، عندما قال بأن « من الناس من يخلق للعبودية ، ومنهم من يخلق ليسود » • فصفات الشر التي يتميز بها القادة ، هي ضرورية لهم كضرورة صفات الخير للضعفاء •

وان خير ما هو موجود في الانسان ، انما هو ارادة القوة ، وقوة الارادة ، ثم قوة المثابرة والمعاناة • فالحرب والمخاطر والقسوة والعنف ، كلها ذات قيم معادلة للشفقة والرحمة والرأفة والحنان والسلم • وعظماء

الرجال لا يظهرون على مسرح الحياة الا في الايام التي تستدعي العنف ، وعدم الرأفة ، وركوب الاخطار • والانسان دونما معاناة او كفاح يصبح كما مهملا • وعدم صراع القيم السائدة والتغلب عليها ، ثم عدم خرق النظام الذي يسود مجتمعات القرن التاسع عشر ، بالعنف والقوة ، يعني عدم وجود تطور وترق • فالشر بطبيعته هو الخير • وانه لو لم يكن خيرا بالنسبة للحياة بصورة عامة لما وجد اصلا • عليه لامفر للانسان من الصعود في سلم الترقي عن طريق هذا الشبه •

وما ينطبق على الانسان الفرد في موضوع القوة ، ينطبق من الناحية البايولوجية ايضا على الشعوب والامم والاجناس البشرية ، اذ ان قيمة هذه ، ومدى أهليتها للحياة والبقاء على ظهر هذا الكوكب ، يقاس بمدى قوتها وطاقاتها البدنية كمجموعات ، بالاضافة الى طاقاتها الفكرية المركزة في أبداع وخلق المصادر الضرورية للعظمة والتسلط والقوة • لكن فلسفة نيتشه في هذا الباب كثيرا ما تدعو الى الضحك عندما نراه يربط بين أنواع الطعام والشراب ، وبين المبادىء والنزعات الفكرية والدينية والسياسية • فنيتشه يرى مثلا ان البوذية كانت نتيجة لاتخاذ بعض شعوب الشرق طعاما أساسيا، وان الميتافيزيقيات الالمانية كانت نتيجة لاعتياد الالمان تناول البيرة • والفلسفة بلاحرى كما يرى ، رهينة بهذا الطعام أو ذاك الشراب • فهي فلسفة بائسة تميل بالانسان الى الانحطاط والانحلال اذا كانت بوذية مثلا ، ذات علاقة بمؤثرات الرز على الطاقات العقلية ، وهي فلسفة قوة وعظمة ومجد ، اذا كانت ذات أصول خمرية باخوسية أصيلة • لكننا لا نحسب ان نيتشه كان واقعا تحت تأثير الخمرة عندما كان يكتب ، اذ ان صحته في السنين الثمانينيات كما نعلم ، كانت أضعف من أن تصمد أمام كأس واحدة من الشراب •

واخيرا ، وليس آخرا ، فان باستطاعة رجل الفكر ان يشير بأصابعه العشر الى الدرك السادي الذي كان يتخبط فيه نيتشه رغم ضعفه ورقته وما يظهر عليه من طبع نسائي ، عندما يتصور ان جميع الناس أصبحوا يتلذذون مثله — وكان من قبل يغمى عليه لمرأى الدم — بمناظر الدماء والقسوة والوحشية • انه يقول « ان الانسان ليشعر بالسعادة اكثر من أي وقت اخر وهو يتأمل التراجيديات ، ويتابع صراع الثيران ، ويحدق في مناظر القتل » « وانه بعد أن اخترع جهنم في السماء ، اتخذها له فردوسا في الارض » • ونيتشه هو القائل ، كما قال زرادشت ، « ان الانسان أشد الحيوانات وحشية وقسوة » •

وتكاد تكون جميع الكتب التي أصدرها نيتشه بعد «زرادشت» ، شروحا له ، وايضاحات عن أفكاره في القوة والانسان الاعلى • فلقد صدر بعد « تاريخ الاخلاق » و «ماوراء الخير والشر» كتابه « مسألة فاجنر »

عام ١٨٨٨ ، و «ظلام الاوهام» في نفس العام ، و «ضد المسيح» في ١٨٨٩ ، و «الرجل النحيل» و «ارادة القوة» في ١٨٨٩ ايضا •

فاذا أوضح نيتشه شيئا عن افكاره في الانسان الاعلى ، فانك تستطيع أن تلمس اراءه واضحة ايضا في الديموقراطية ، والارستقراطية ، وسقوط الامم وانحطاطها ، بعد أن تربط – بشيء من وجع الرأس طبعا – بين كتاباته المتقدمة والاخيرة •

« الانسان الاعلى ، وليس الجنس البشري هو الغاية » من وجـود المجتمع على وجه الارض • والمجتمع البشري اشبه ما يكون بمصنع ضخم لاجراء التجارب لاختيار أحسن الاجناس ، ثم أحسن القوميات والشعوب ، وبالتالي أحسن الافراد واعلاهم من بين القومية الممتازة ، والشعب الممتاز ، وذاك هو الانسان الاعلى • فالغرض من هذه التجارب المعملية ، ليس سعادة الجماهير ، انما تطوير القومية الممتازة وتنميتها لاختيار الفرد الاقـوى والاحسن • فالطبيعة ، كما يرى نيتشه ، لا تعني بالمحافظة على أحسن الانواع ، أو أحسن الافراد ، انما تميل دائما وأبدا الى المحافظة على الناس وسط الذين يمثلون المعدل ، أو القاسم المشترك بين الضعف والقوة ، وذلك بسبب انها تترك لهم الحبل على الغارب في الاختلاط والامتزاج والتزاوج على هواهم ، وتيسر لهم جميع السبل المؤدية الى انتقال صفات هذا الجانب الى ذاك • عليه فان التوصل الى « الانسان الاعلى » لا يكون عن طريق الانتخاب الطبيعي ، انما عن طريق الانتخاب الانساني بفرض اساليب تربوية معينة يتمكن بها الناس من تهيئة الظروف المواتية لظهور هذا الانسان •

ومن هذه الاساليب تربية نخبة معينة من الاقوياء الممتازين ، ورعايتهم بدقة وحذر بالغين بما يعزز من نبالتهم وينميها • وان من اكبر ما ينمي هذه النبالة ويحافظ على قوتها ومكانتها ، هو منع هذه النخبة منعا باتاً من الانزلاق في مهاوي الحب ، والزواج المتأتي من الحب من نساء دون هؤلاء منعة وألمعية وطبقة : كيف لا وهو نفسه الذي نبذته امرأة عادية نبذ النواة لتنصرف الى رجل أكثر منه جاذبية وحيوية ••• أم هل لنيتشه أن يغطى فشله الذريع في الحب بفلسفة غير هذه ؟•• والواقع ، ان نيتشه كان يشعر بنقصه الشديد بالنسبة للرجال في عالم المرأة • اذ أي امرأة يمكن ان تقبل على رجل مريض ، شبه أعمى ، لا يجيد غير الكلام في البحوث المنطقيـة والفلسفية الجافة ، متجاهلة الاصحاء ، ذوي الوسامة والجاه والمال والمركز من الشباب الالماني ذوي الصولات المشهودات في عالم النساء ، في أيام نيتشه على وجه التخصيص ؟ ••• تلك كانت أيام « سيدان » • أيام الشباب القوي الذي كان كل شيء بالنسبة لالمانيـا ، وبالنسبة لفتيات المانيا ، وليست أيام أساتذة الجامعات مع الاسقف ! لذلك كان لابد من تغطية هذا النقص الذى عانى منه نيتشه ، بفلسفة •

وعليه أيضا ، لابد أن يكون « المربي » شوبنهور مخطئا في ماذهب اليه حول الحب : انه لايمكن ان يكون هناك من يمكن ان يعشق ويكون حكيما عاقلا في وقت واحد • وان الذي يحب ، يكون اعمى عن اتخاذ القرارات الصائبة التي ترسم خطوط مستقبله • وان حب الممتازين الاقوياء ونيتشه ممن يعتبر نفسه في الطليعة منهم طبعا لنساء دونهم فكرا وطبقة ، شيء تحرمه شرعة النبالة والقوة • اذ كيف يمكن ، في رأي نيتشه ، أن يتزوج النبيل « البطل » من فتاة خادم ، والنابغة الالمعي ، من بلهاء من بنات العامة ؟

ان الزواج ليس لغرض انجاب النسل وحسب ، انما لغرض تحسين النسل ايضا : « ••• الزواج ، كما اقول ، هو أرادة الزوجين في خلق ذلك الانسان الذي يتفوق عليهما ، هما اللذان خلقاه •• هكذا قال زرادشت » •

واذن ، فالنسل النبيل المحسن ، والمدرسة التي يربى فيها هذا النسل بعيدا عن اخلاق العامة ومفاهيمهم في « الحرية » وغير ، هو الذي سيؤدي بالمجتمع الى الحصول على « الانسان الاعلى » ••• البطل الذي يجب أن يكون فوق الخير والشر • لانه لو لم يكن كذلك ، لما استطاع أن يضحك وهو يجتاز الذرى والقمم ، من مآسي الضعفاء الذين سيسحقون تحت اقدامه سحقا •

فما هو جيد ، خير • وما هو سيء ، شر • والجيد الحسن ، هو الشجاع ، وكل ما يزيد في الانسان الشعور بالقوة ، وما ينمي ارادة القوة ، والقوة ذاتها • واذن فكل ما يتأتى من الضعف فهو شر • لذلك فان من صفات الانسان الاعلى ، انه يحب المغامرة ، ويقتحم الاخطار ، ولا يخلد الى الراحة والطمأنينة : الم يكن زرادشت من هواة المغامرات والاسفار في أقاصي البحار المجهولة ؟ كذلك فان شرعة الانسان الاعلى ، انما هي شرعة المخاطرة والحرب التي تتلاشى خلالها الكائنات الضعيفة غير الجديرة بالبقاء •

ونيتشه من خصوم « الثورة » الالداء ، كونها ترمي الى سيادة العامة وتسلطهم على الافراد الممتازين • لكنه من ناحية أخرى ، يرحب بها كفترة من فترات الكفاح التي يبرز من خلالها الافراد العظام أمثال نابليون بونابرت الذي كان وجوده في رأي نيتشه ، « الغاية » من قيام الثورة الفرنسية •

فالثورة من وجهة النظر هذه ، والحرب بطبيعتها الحقيقية التي تعني الابادة والتدمير والظفر ، انما هي الشرعة الحقيقية التي تخلص العالم للممتازين بفناء الضعفاء : « ان الحرب الظافرة هي التي تبرر كل قضية ، وليس العكس هو الصحيح » •

ان النبل والقوة والذكاء ، هي العناصر التي تكون شخصية الانسان الاعلى . لكن هذه جميعا لا يمكن أن تصبح قوة ذات فاعليــة أصيلة الا اذا نسقت واتحدت في اتجاهها نحو هدف سام ممتاز ، هو التسلط والتحكم بالارض ومن عليها . لذلك فان من واجب رجل الفكر ، ان يرسخ هذه الحقائق في نفوس الاجيال الالمانية الطالعة ، وباكبر ما في طاقته من حرص وتعصب : « ويل للمفكر الذي يبحث عن مجرد تربة خصبة لافكاره ، ولا يكون بستانيا أمينا لما يزرع من أفكار » . فاذا ما أصبحت هناك طبقة نبيلة ممتازة ، فأن من حقها استعمال أية وسيلة كانت للتوصل الى غرضها الاسمى في السيادة ، عدا خيانة الاصدقاء .

لكن هؤلاء « الاصدقاء » الذين يقصدهم نيتشه مع الاسف ، هم من نفس المعدن الذي صاغ منه شخصيات طبقته النبيلة ، فهو بعبارة أصح ، كان يحذر الوحوش من افتراس بعضها :

« ان علينا تحقيق الهدف الذي من أجله أصبحنا أصدقاء ، عزيز بعضنا على البعض الاخر » وان الحياة نفسها لا يمكن أن تحب وتطلب ، ما لم يكن غرضنا من ورائها الحصول على الانسان الممتاز من خلال أعمالنا التي تمهد لمجيئه وظهوره . فلنكن اذن ، الوسائل الكفيلة بخلق هذا الانسان ، وضمان سعادته : ما أروع منظر هؤلاء الملايين الذين ضحوا بأنفسهم من أجل سعادة نابليون ، عندما كانوا يتساقطون في ساحات الحرب وليس على شفاههم غير اسمه هو ، بونابرت !.. فالاحرى بنا اذن ، أن نعبد الطريق لمجيء الانسان الاعلى المنتظر . وعلينا أن نقوم بهذا الواجب أينما كنا : في هذه البقعة من الارض أو تلك ، في هذا العصر أو في الذي يليه . ونحن وان اختلفت بنا الاماكن والازمان ، لابد وان نجتمع يوما ، لنكون شعبا ممتازا ، يظهر من بينه الانسان الاعلى .

« انتم ايها المنعزلون بأنفسكم اليوم ... ستكونون شعبا يوما من الايام ... منكم انتم الذين جعلتم من أنفسكم مختارين ، سيظهر هنالك شعب مختار . ومن هذا الشعب ، سيظهر الانسان الاعلى ـ هكذا قال زرادشت » .

ولكن ما هي العراقيل والموانع التي تحول دون مجيء الانسان الاعلى ؟

يقول نيتشه بأنه ما دامت الارستقراطية هي السبيل الوحيد للانسان الاعلى ، فان الديموقراطية هي المانع الاكبر الذي يسد طريق مجيئه ، عليه يجب استئصالها من المجتمع قبل فوات الاوان .

ولاجل سحق الديموقراطية ، يجب سحق المسيحية اولا . فلقد ابتدأت الديموقراطية بانتصار المسيح على الارستقراطية القديمة . والمسيحي الاول الذي شهدته هذه الارض ، كان في الواقع ثورة مجسدة على كل ما هو ممتاز . انه كان ثورة عارمة مستمرة في سبيل « المساواة في الحقوق » :

« ان اعظمكم قدرا ، يجب أن يكون خادما لكم » ـ هكذا تقول المسيحية . وذلك هو تزييف للقيم السياسية ، بل وذلك هو الجنون .

ان الذي يقرأ الانجيل ، كما يقول نيتشه ، يشعر دونما شك ، بأن مؤلفه قد سرق شيئا من مؤلفات الكاتب الروسي « دوستويفسكي » أو أنه عاش ردحا من الزمن في اجـواء رواياته الخيالية . وان هـذه الاوهام الدوستويفسكية ـ الانجيلية الخيالية لا يمكن لها أن تعيش الا في ظل حكام منحطين ، كما لا يمكن لها أن تجد تربة خصبة الا بين طبقة دنيا منحطـة واطئة . لذلك كان قيصر روسيا قد أحسن صنعا عندما بدأ يرسـل مريدي دوستويفسكي ومروجي افكاره الكريهة الى مجـاهل سـيبريا . لكن هؤلاء الداعين الى المساواة لا يظهرون عادة الا في عصر يصبح فيه الحكام عاجزين عن ممارسة السلطة أو يسيئون التصرف بها : انظروا كيف سيطر الـوهم على كثير من الناس عندما تربع نيرون وكاراكلا على العرش ؟ فلقد ظـن المخدوعون الرومان بأن أوطأ الناس ، وأحطهم طبقة ، انما هو أفضل مـن هـؤلاء .

فاذا كان غزو المسيحية لاوربا قد سحق القيم الارستقراطية القديمة ، فان غزو البارونات التوتون الابطال لها ، قد جدد شبابها ، وأعاد لهـا فضائل القوة . وغرس فيها بذور الارستقراطية الحديثة التي باتت تؤرق المسيحية وربيبتها الديموقراطية .

ان تحلل هؤلاء البارونات من « الاخلاقية المسيحية » ، واندفاعهـم ببراءة الى اقتراف أعمال السلب والاغتصاب والقتل والحرق والتعـذيب والابادة ، قد خلق فيهم نوعا من الغرور والاستعلاء ، راحوا يشعرون معـه بأنهم بسحق هؤلاء المخانيث من المطالبين بسيادة « الاخلاقية » المسيحية ، و « المساواة » ، لم يرتكبوا شيئا أكثر مما يرقى بمستواه الحيـاتي الى الدرجة التي تبعث في الطفل القوي نشوة اللذة والطرب . وان هـؤلاء البارونات كما يجب أن نعلم ، هم الذين أمدوا ألمانيا وانكلترا وفرنسـا والبلدان الاسكندنافية وروسيا وايطاليا بالطبقات الارستقراطية الحاكمـة التي تسود اربا اليوم بفضل نبالتها الاصيلة ، وقوتها ذات الفعالية التوتونية الوحشية النبيلة ، دونما حاجة الى « عقد اجتماعي » أو غير ، مما يهلوس به بعض المفكرين المجانين .

واذ يصل نيتشه بفلسفته الى هذا النوع من الارستقراطية العنيفة ، فانه يفلسف ذلك . ويصوب نار افكاره الى نظريـة « العقد الاجتماعي » فيقول :

« ان هذا العرق التوتوني الفاتح ، من ذوي البشرة البيضاء والشعر الاشقر ، انما هو عرق مكون من أفراد سادة تخلقوا بأخلاق الوحـوش الكاسرة ، وقد نظموا أنفسهم تنظيما عسكريا بحيث استطاعوا تمزيـق

أجساد ضحاياهم من الشعوب التي تفوقهم عددا ، بمخالبهم المخيفة ، فأسسوا الدولة الحقيقية التي جلسوا على قمم السيادة فيها دون الاستعانة بعقد اجتماعي • وان خرافة قيام الدولة على أساس من هذا العقد قد تلاشت أمام هذه الحقيقة الواقعة ، اذ ما الذي سيستفيده من « عقود » مثل هذه ، من يستطيع أن يحكم ويسود بفضل القوة التي يتمتع بها ، أو من ظهر على مسرح السيادة واستلم مقاليد الحكم بما مارسه من عنف اتخذه شرعة له طوال حياته ؟ »

لكن هذا العرق التوتوني البربري الجليل ! قد دب اليه التفسخ بعد فرض سيادته على أوربا مع الاسف الشديد • وكانت جراثيم هذا التفسخ قد دبت اليه من ثلاث نواحي ، أو ثلاث بؤرات : الاولى ، هي هذه الاخلاق الكاثوليكية التي يمكن تسميتها باخلاق المخانيث • والثانية هي المثل المنحطة التي جاء بها دعاة الاصلاح والبيوريتان • أما الثالثة ، فانها هذا الوباء المخيف المتمثل بتزاوج التوتون مع الشعوب التي دونها درجة في القوة والرفعة والسيادة والنبل والعنف والشرف •

فمنذ أن ذابت الكاثوليكية في الثقافة الارستقراطية الغير الاخلاقية التي تميز بها عصر النهضة في مطلعه ، بدأ ما سميناه بـ « الاصلاح » يحطم هذه الارستقراطية ويسحقها باعادة الحياة وبعثها في نوع قاتل من الحمى والخشوع اليهوديين : ان النهضة الحقيقية هي التي تعني قطع الطريق على القيم المسيحية ، وتؤكد النصر لقيم النبالة والارستقراطية •

والبروتستانتية ، ومعها البيرة الالمانية ، ماذا فعلت ؟ انها بالاضافة الى هذه « الفاجنرية » قد أزرت بفطنة الجرمن وحصافتهم وبعد نظرهم :

« لقد أصبح بروسيو هذه الايام خطرا على الثقافة • وان مرأى الفرد الالماني أصبح مما يدفعني الى القيء ! » ••• ولكن لماذا ؟

ان ذلك ، اذا لم نخطيء في التدقيق في افكار نيتشه ، نوع من « الشطح » النيتشوي المدوي الذي عجز شبنجلر وروزنبرغ وهتلر عن هضمه ، أو تفسيره ، أغلب الظن •

فنيتشه في الواقع ، كان من أشد الناقمين على « الوطنية » الالمانية التي اتسمت بالغرور المفرط بعد انزال الهزيمة بنابليون على يد المانيا • ونابليون ، كما قد لمس القاريء في هذا البحث ، كان أحد الاصنام التي عبدها نيتشه في دعوته الى السيادة والانسان الاعلى • ولقد كان سقوط نابليون بالنسبة لنيتشه ، من النكبات العظيمة في تاريخ البشرية :

« ان نكبة الثقافة بسقوط نابليون ، على يد المانيا ، أشبه ما تكون بنكبة الكنيسة عند اندحارها امام لوثر » ••• هكذا كان ينظر نيتشه لمجريات التاريخ السياسي آنذاك • ثم هو بعد ذلك يعود باللائمة على رجال التربية الالمان الذين راحوا يروجون لعبادة غلاة الوطنيين المتعصبين

متناسين الخطوط الصحيحة التي رسمها غوته وشوبنهور وبيتهوفن ومريدوهم للارتفاع بالالمان الى مراتب العظمة • ولهذا السبب ، فان عبارة « المانيا فوق الجميع » ، كانت غير مريحة لنيتشه في تلك الايام ، بل وانه كان يرى فيها النهاية المؤلمة للفلسفة الالمانية •

ان الطريق السياسي الصحيح الذي يجب أن تسلكه المانيا في سبيل سيطرتها على العالم كما يرى نيتشه ، هو « ان تتحد دونما قيد أو شرط مع روسيا ! » • وهو اذ يفلسف هذا الرأي ويقف ضد شعار « المانيا فوق الجميع » ، فانه يرى بأن الالمان الذين أصبح لهم مثل هذا الجيش الذي تخشاه أوربا ، بالاضافة الى ما عرف عنهم من تفوقهم على الانكليز والفرنسيين بقوة الارادة والعزم والمثابرة والصبر والخبرة الفنية ، سيستطيعون ان يسيطروا على العالم بكل سهولة اذا ما اتحدوا مع روسيا ذات المصادر البشرية السلافية الهائلة ، ومصادر الثروة المعدنية التي تفوق الخيال • لذلك فهو يرى ضرورة تنمية قابليات الالمان والسلاف وتعزيز النزعة الارستقراطية لديهم كي يصبح هذا الاتحاد في الاوج من القوة • ومع ذلك ، فان نيتشه لا ينسى خبرة اليهود المالية ، فهو يرى ضرورة الاستفادة منها لترصين كيان هذا الاتحاد • على أنه مهما كانت عواطف نيتشه الحقيقية تجاه قيام مثل هذه الوحدة الالمانية ـ السلافية ، فان فلاسفة الالمان في النصف الاول من القرن العشرين ، قد أكدوا على أن نيتشه كان يرمي بها الى تحقيق أهداف آنية مرحلية يمكن ضربها عرض الحائط في المديات البعيدة • ولقد انعكس هذا التفسير بصورة واضحة على سياسة المانيا النازية ابتداء من عقدها ميثاق عدم الاعتداء الالماني ـ السوفييتي الذي وقعه ريبنتروب في موسكو عند ابتداء الحرب ، فصاعداً • لكن القادة النازيين كانوا سياسيين فاشلين كما يظهر ، أو ان القادة الشيوعيين كانوا قد فطنوا الى اللعبة السياسية النيتشوية فلم يسلموا شيئاً من طاقات روسيا وثرواتها للالمان لسحق بريطانيا العجوز بعد هذا الميثاق ، فقرر النازيون وضع اليد عليها بالقوة ، اذ ما هي الا فترة قصيرة من السلم بين الجانبين ، حتى شخصت ابصار الدنيا كلها الى الصراع الرهيب الذي صفق له تشرشل طويلا ، وهو يطل على المجازر المخيفة التي هيأ لها ماركس ونيتشه على السواء ، في أحياء ستالينوغراد البائسة ورباها •

وعلى الرغم من تفوق المانيا على غيرها من دول أوربا في ميادين القوة والتكنيك ، فان نيتشه كان يراها متخلفة عن فرنسا من الناحية الثقافية والحضارية • انه يرى ان المانيا قد فقدت تقاليدها الاصيلة منذ مدة طويلة • وانه ما لم تبعث هذه الثقافة بنفس الروحية القديمة التي كانت عليها ، فلا أمل للالمان بسيادة العالم كما ينبغي • ففرنسا خلال القرنين السادس عشر والسابع عشر ، وحتى قيام الثورة ، كانت تمثل الثقافة الاوربية الاصيلة ،

وليس هناك غير فرنسا من هو حري بالاعتبار في هذا الميدان • ونيتشه اذ يقرر ذلك ، فانه يشير الى كتابات « مونتين » و « روشوفوكو » وغيرهما من كبار الكتاب الفرنسيين القدامى الذين لم يعد هناك من يحتل محلهم في القرن التاسع عشر • وحتى فولتير ، علم الحرية التي يبغضها نيتشه كل البغض ، كان اماما من ائمة الفكر الذين يفخر العالم بهم ، فهو عنده جدير بكل احترام نظرا لميوله الارستقراطية ، ونظرا لضرباته القوية التي سددها الى الكنيسة والمسيحية مما لم يدع مجالا لها أن تفرض سيادتها على فرنسا بعده بحال ، بل والكتاب الجدد ، أمثال أناتول فرانس وفلوبير وغير ، فانهم جميعا في الطليعة من كتاب العالم ، وليس لدى ألمانيا من يتقدمهم • كل ذلك بفضل الارستقراطية القديمة التي ما زالت متغلغلة في عروقهم على الرغم من الديموقراطية التي جاءت بها الثورة • فاذا فقدت فرنسا قيمتها العسكرية بعد سقوط نابليون ، فان لها ان تفخر بقيمتها الحضارية والثقافية الاصيلة :

« اني لا أعتقد أو أؤمن بغير الثقافة الفرنسية • وأن كل شيء عداها مما قد يظن أنه حضارة أو ثقافة أصيلة في أوربا ، انما هو ضرب من ضروب اللغو » •

فاذا لم يقم هذا الاتحاد الالماني ــ السلافي ، فان على العالم أن لايدهش اذا استيقظ يوما ورأى روسيا وهي تقبض على رقاب الشعوب الاوربية بيد من حديد • فروسيا القيصرية في نظر نيتشه ، هي « الوحش الاوربي الاشقر » • وان ما عرف عن شعبها الجبار من استسلام وخضوع لحكامه ، قد هيأ لها مكان السيادة على أوربا في المستقبل • ففي روسيا ، كما رأى نيتشه ، حكومة استبدادية ارستقراطية قوية بعيدة عن السخف البرلماني ، وان هذه الحكومة لابد وأن توجه طاقات الوحش الاشقر الهاني، في أسار السلاسل الذهبية ، الى اجتياح القارة يوما ما ، وفرض سيطرتها وارستقراطيتها عليها بالحديد والنار •

وليست روسيا وحدها هي التي يجب أن يحسب لها الفيلسوف النابه هذا الحساب • بل واليهود أيضا ••• هؤلاء الديموقراطيون المتحصنون بقوة الفن والمال ، فانهم مع الروس ، سيلعبون في رأي نيتشه ، الدور الاكبر خلال الصراع الرهيب الذي سيقع بين دول أوربا من أجل السيطرة على العالم • فاذا كان هناك من مفكر الماني عاقل يهتم بمستقبل المانيا ، فان عليه أن يخطط للحيلولة دون انطلاق « الوحش الاشقر » من أساره ، ودون فسح المجال للديموقراطية المؤدية الى سيطرة اليهود •

والايطاليون ما هم ؟ انهم من أقوى وأنبل الشعوب الموجودة ، بفضل ما ورثوه من ارستقراطية رومانية رائعة • فالانسان في ايطاليا ، ما زال يربى على أخلاق القوة وينشأ على أساس من الفخر بالامجاد القديمة • ولك

أن تقول بأن أفقر الايطاليين من أصحاب الجندول في فينيسيا ، انما يرتفع بنبله واعتزازه بماضي آبائه واجداده على الكثير من سراة الالمان وبقيـــة الشعوب •

أما الانكليز ، فمن ذا الذي يشفي غليل نيتشه بتجريد انكلترا من ديموقراطيتها ؟ بل ومن ذا الذي سينقذ أوربا من خطـــر الديموقراطية الانكليزية ؟ ـ بطل من أمثال هتلر ، كما رأت فورستر نيتشه من بعد •

ان الانكليز وحدهم دون غيرهم ، هم المسؤولون عن هـــذا التفسخ الذي استشرى في الفكر الفرنسي بما زرعوه فيه من بذور الديموقراطية ـ هكذا كان يرى نيتشه • وان القنبلة المهلكة التي نســـفت الارستقراطية الفرنسية ظلما وعدوانا ، انما صنعها فولتير في مصانع الفكر الديموقراطي الانكليزي يوم كان منفيا في انكلترا ، فما الذي تنتظره أوربا بعد ثـــورة ١٧٨٩ الغوغائية ، ثورة العبيد ، من انكلترا ؟ وكان الانكليز يوم عـــزهم الارستقراطي ونبلهم ، قد فسحوا المجال للمسيحية وكهانتها خطأ ان تقتل النساء الساحرات حرقا بالنار أو تمزيقا على الخوازيق • وان الاجـــدر بالقومية الانكليزية ان هي أرادت البقاء والحياة ، أن تجلس هذه « الساحرة الديموقراطية ، بريطانيا » على الخازوق لتخلق بدلا عنها اسطورة بريطانية رومانية جبارة لا تعرف معنى الخوف من أخطار البحار •

ان المادية والنفعية اللتين ترسف في اغلالهما بريطانيا ، همـــا الدرك الاسفل الذي لا يوازيه ببؤسه حضيض آخر في تاريخ الثقافة والحضـــارة الاوربية • اذ ليس هناك من بلد ، كما يرى نيتشه ، تكاثر فيه تجـــار السلع ، وصناع السفن التجارية الى الحد الذي استطاعت الديموقراطية معه تسجيل نصرها على الارستقراطية ، كبريطانيا •

بقي شيء واحد نريد أن نسمعه من نيتشه ، وذاك هو « معنـــى الديموقراطية » عنده ، أو الديموقراطية كما فهمها هو ، بحيث راح يحاربها هذه الحرب الرهيبة •

الديموقراطية !!•• يا لها من كلمة مغيظة • انها تعني وقاحة العبيد • هي الانحطاط بكل معانيه • أن تسمح بالديموقراطية ، هو أن تسمح لكل فرد من هؤلاء الرعاع بأن يعمل ما يحلو له ، لا ما يحلو للسادة الممتازين • ثم أنها تعني تفتيت وحدة المجتمع ، وعبادة الاعتدال دون التطرف ، والحقد والكراهية الموجهة ضد كل ما هو ممتاز رفيع الشأن • انها المذهب الـــذي يعيق ظهور عظماء الرجال • بل وكيف يمكن للرجل العظيم أن يخضـــع للمبدأ الانتخابي الذي يعمل به العبيد ؟ بل وهل هناك من فرصة للقوي الممتاز تمكنه من احتلال مكان السيادة والسلطة عن طريق الانتخـــاب ؟ ان العبيد يخافون وهل يمكن والحالة هذه ظهور « الانسان الاعلى » في مجتمع هذا شأنه ؟ أم كيف ستحتل أمة من الامم مكان العظمة والسيادة على وجـــه

الارض في وقت يبقى فيه القوى الجبار كماً مهملا بين ظهرانيها ، لا ينتخبه لتولي مقاليد السلطة أحد بسبب هذه الديموقراطية المسمومة ؟

ان القوي الجبار الصريح ، ليس رجل الساعة الذي تعقد الامم عليه آمالها في ظل الحكم الديموقراطي . انه بالنسبة للديموقراطية ، « رجل الاكثرية » الذي لا شك سيسير بالامة التي فسخها وباء الديموقراطية ، الى الانهيار المحتم .

والديموقراطية مذهب يجعل من الرجل امرأة ، ومن الامرأة رجلا : فالرجال يصوتون للمرشحات في الانتخابات النيابية ، والنساء ينتخبن الرجال لمكان الصدارة .. فيا للسخرية . ألا بئس من يقر بعجزه ويفضل على نفسه امرأة . وبئس رجل يستجدي احتلال مركزه اللائق به ، من النساء ، دون أن يأخذه غصبا بحد الحسام . فهل يمكن أن تكون الديموقراطية ، ومعها المسيحية ، بعد الان غير شرعة المخانيث ؟

ان المساواة بين المرأة والرجل مما تدعو اليه الديموقراطية ، شيء مستحيل . فالمرأة لايمكن أن تتساوى مع الرجل لانها خلقت أضعف منه ، فهي لا تستطيع تحقيق المنجزات التي يحققها الاقوياء . اما المساواة الادبية بمنحها حقوقا مساوية لحقوق الرجل ، فهو ما يعني منحها الحرية الكافية للتفسخ الجنسي والزواج الاعتباطي ، وهو ما فيه خطر كبير على سلامة العرق ونقاوة دمه أيضا .

والمرأة في ظل الارستقراطية تكون أمنع جانبا وأعلى منزلة منها في ظل الديموقراطية ، والا أين تلك المنزلة الرفيعة التي كانت للمرأة الفرنسية في أيام الارستقراطية البوربونية ؟ انها كما يرى نيتشه ، قد سحقت بأقدام العبيد الديموقراطيين خلال الثورة الفرنسية وبعدها . فالمرأة تكون قوية عندما يكون سيدها الرجل قويا كما هي الحال مع السيد الارستقراطي ، وانها تكون ضعيفة حقيرة القدر في مجتمع ديموقراطي يمتهن كرامتها بتوجيهها الى أشغال لم تخلق لها ولا تلائم طبيعتها : ان الواجب الاصلي للمرأة ، وشغلها الشاغل ، يجب أن يكون انجاب المحاربين من الطراز الاول . وان ذلك لا يمكن أن يتحقق الا بمنع نساء الامة من الزواج من ابناء الشعوب الضعيفة المتخلقة بأخلاق العبيد . فمن بين هؤلاء المحاربين الابطال سيظهر الانسان الاعلى .

والمرأة بطبيعتها تميل الى الحصول على حماية الرجل القوي . لكنها من ناحية اخرى تحاول تغطية هذا النقص برفض سيادة الرجل عليها ، وذلك بأن تطالب بالمساواة والحرية كي تطلق لغرائزها حرية العمل فتستأثر بهذا الرجل أو ذاك ، على هواها دون أن تسمح لرجل واحد بالاستئثار بها هي كزوجه . واذن ، فان هناك حربا أبدية بين الجانبين ، وان السلم لا يمكن أن يستتب بينهما الا قسرا بانتصار هذا الجانب أو ذاك .

ومن الطبيعي أن يكون النصر الى جانب المرأة دائما في الديموقراطية ، وهو ما يعني أن تقف موقف الازدراء والقسوة منها الى أن تضعها في محلها اللائق بها عند قيام نظام ارستقراطي يمجد الابطال · فالمرأة في النظام الديموقراطي، لعبة خطرة بالنسبة للرجل · أما عندما يكرس الرجال أنفسهم للحرب في ظل الارستقراطية ، فانها تصبح لعبة مريحة تمد الطبقة الممتازة بما لا يحصى من المحاربين : ان عالم المرأة هو البيت ، وسرير الولادة ، لا أكثر ·

وبالنسبة للمفكرين ، فويل لهم من المرأة ، كل الويل !

ان الواحد منهم ليخسر العالم كله عندما يتزوج · ذلك ان لذة الفيلسوف التي لا تعد لها لذة في الحياة تتمثل في تفكيره بهذا العالم · اما اذا تزوج ، فانه سيكرس تفكيره لشؤون العائلة والاطفال بدلا من الدنيا وكل الوجود · والحق فان نيتشه كان مصيبا من ناحيته هو : او لم يملك العالم كله عندما هرب بجلده من المرأة الى جبال الالب ليجلس على الذروة التي فرض منها سيادته على الدنيا باسم زرادشت ؟

فالمفكر ينتهي كفيلسوف في نفس اليوم الذي يصبح فيه أبا لطفل :

[ان الريح تصفر في ثقب مفتاح الغرفة وتناديني قائلة « تعال » · وباب الغرفة ينفتح تلقائيا بخبث ويهتف بي أن « أذهب » غير اني أبقى ملازما غرفتي موثقا ، أرسف في أغلال حبي لاطفالي] ·

وبغض النظر عن زيجات المفكرين البائسة ، فان الديموقراطية قد حولت الناس من عبادة الفرد القوي الممتاز ، الى عبادة البرجوازي المسلح بالمال ، وذاك هو الطابع الذي تميزت به ثقافة القرن التاسع عشر كما يرى نيتشه · لكن هؤلاء البورجوازيين أنفسهم كما يرى ، عبيد يرسفون في أغلال المادة ، وهم يقطعون العمر ركضا وراء الثروة كغاية · انهم فقراء ما داموا يطلبون المزيد من المال ، رغم تكدسه في خزائنهم ، فهم من هذه الناحية أبعد الناس عن السعادة · وانهم كذلك أشقياء لانهم محرومون من مباهج التفكير ، اذ ليس لهم من مجال يصرفون فيه طاقاتهم الفكرية غير جحيم المتاجر والسلع · وهم أيضا مثل القردة ، يتسلق بعضهم على اكتاف البعض الآخر دون مراعاة مصلحته من أجل تحقيق سعادة موهومة في صفقة تجارية أو غير · بل وانهم يغدرون ببعضهم على الصعيدين الوطني والدولي مثل الاعداء الالداء الذين مهروا في اخفاء الكمائن وقطع الطرق · والبورجوازي في رأي نيتشه ، قاتل دنيء ، يقتل الناس تدريجيا باستغلالهم اقتصاديا ، فهو ليس كالقائد العسكري البطل الذي يسقط جنوده قتلى في المعارك الحربية وعلى شفاههم ابتسامة الرضى لاعتقادهم بأنهم يموتون ميتة الابطال · فنابليون كان رجلا من أعاظم رجال التاريخ ولم يكن جزارا كما يتهمه الديموقراطيون · ان الالوف المؤلفة من الجنود الذين قتلوا تحت راياته في ميادين القتال وهم ينشدون أناشيد النصر ، قد برهنوا على أن

المحارب خير من التاجر البورجوازي · والحرب ذاتها ، حتى اذا كانت قد أثيرت لاغراض دينية أو بسبب التنافس بين بعض الاسر الحاكمة ، هي أشرف بكثير من هذه الحروب الجديدة التي تقع بسبب اصطراع البورجوازيين على الاسواق التجارية · وكان نيتشه قد تنبأ في كتابه « انساب الاخلاق » عام ١٨٨٧ ، بنشوب حرب عالمية هائلة بسبب التنافس التجاري ، وقال انها ستقع خلال الخمسين سنة التي كانت ستلي ذلك التاريخ · وكان نيتشه مصيبا في نبوءته تلك اذ اشتبكت دول العالم مع بعضها لنفس هذه الاسباب في حربين مهلكتين بدلا من حرب واحدة خلال المدة التي حددها ·

والديموقراطية ، كما يرى نيتشه ، هي التي هيأت لظهور الشيوعية والفوضوية : ان العبيد الديموقراطيين الذين نادوا بالمساواة السياسية قد جرأوا زمرة منهم على المطالبة بالمساواة الاقتصادية أيضا بكل وقاحة · ان المساواة الاقتصادية ، بالاضافة الى المساواة السياسية تعني الحيلولة دون ظهور القادة الابطال · فالشيوعية شرعة الكسالى الجبناء وليست شرعة الاقوياء الصالحين ، والا فأي قوي مجنون يقبل أن يتنازل عن مركزه في السيادة ليتساوى مع رعديد جبان باسم هذه « المساواة » الاجرامية ؟ عليه : [فاني لا أريد أن أفقد عقلي بما يبشر به دعاة المساواة هؤلاء · ان هاتفا عادلا يصيح من أعماقي « ان الناس غير متساوين »] · ان المساواة في الملكية الخاصة على وجه الارض شيء مستحيل · لذلك « نحن لا نرغب في أن نملك شيئا على سبيل الشيوع » ·

ان الطبيعة ، كما يقول نيتشه ، تكره المساواة ، وتحب الفروق والتباين · وان سنة الطبيعة والتطور تقوم على أساس استغلال القوي للضعيف ، سواء كان هذا الضعيف فردا أو طبقة أو عرقا أو نوعا · بل وان حياة الاقوياء مستمدة من فناء حياة الضعفاء : انظروا كيف تأكل الاسماك الكبيرة صغار السمك وتعتاش عليه !··· أو ليست هذه خلاصة قصة الحياة على ظهر هذا الكوكب ؟

والشيوعية لؤم وحسد · والا كيف تعلل مطالبة الشيوعي اياك بما امتلكته بجهودك ؟·· وحتى النساء مشاعات في عرف هؤلاء العبيد ·· فيا للمصيبة · ان شيوعية الجنس ضربة قاصمة لكرامة الامة وجميع مثلها العظيمة في الحفاظ على خصائصها القومية · وبالاضافة الى ذلك ، فان هذا النوع من الشيوعية سيحول دون خلق طبقة ممتازة ، ودون مجيء الانسان الاعلى ·

وأخيرا فانه لا الديموقراطية ولا الشيوعية ولا أي نظام آخر ، عدا الارستقراطية ، يمكن أن يوافق الامة التي تريد ان تحتل مكانها السامي تحت الشمس ·

والمجتمع الارستقراطي الذي يريده نيتشه يتكون من ثلاث طبقات :

السفلى ، وهي طبقة البروليتاريا والفلاحين والتجار ، وتليها طبقة العسكريين وأصحاب المصانع ، ثم تأتي الطبقة العليا ذات السيادة التي يجب أن يكون أفرادها عسكريين وفلاسفة في نفس الوقت • والعسكري الفيلسوف في هذه الطبقة ، يجب أن يسود ولا يحكم • وان سيادته هذه تكون متمدة عادة من سيطرته على الجيش ومالية الدولة دون أن يباشر عملا من قبيل الاعمال الرتيبة •

وان طبقة القادة الفلاسفة يجب أن تكون طائفة خاضعة لتربية صارمة ، ولنوع من الاخلاقية المستمدة من مفاهيم النبل والقوة والسيادة ، على أن يتعامل أفرادها مع بعضهم بروحية الاصدقاء المتآخين ، وان لا يتزاجوا من طبقة غير طبقتهم ، كي تبقى دماؤهم نقية ، ولكي يسهل الحصول على الانسان الاعلى عبر أجيال من التزاوج بين الممتازين طبقا لسنن الانتخاب الطبيعي ، متذكرين انه لم يهلك مجلس الشيوخ الروماني الارستقراطي مثل زواج اعضائه من سائر النساء •

وفي عام ١٨٨٨ ، كان الغرور ومرض العظمة الكاذبة قد بلغ بنيتشه منتهاه ، في نفس الوقت الذي كان بدنه فيه يسحق سحقا تحت وطأة الحمى والصداع • فلقد صارع نيتشه نفسه بكل قواه عندما اندفع ليصارع بأفكاره جميع القوى التي اعترضت سبيل تفكيره في السيطرة على العالم ، وهو ما كان يسير بصحته من سيء الى أسوأ • وكان لابد لهذا الصراع من نهاية ، أو لابد لهذا الجبار الذي حقق أمجاده بمعاركه الفكرية الهائلة ، أن يرتاح وينام • ولقد قال نيتشه في آخر كتبه « الرجل النحيل » ، قبل ان يطرح زند الفكر جانبا : « ان لي غدا وبعد غد من أيامي الباقية ، لا أكثر » •

وفي كانون الثاني ، عام ١٨٨٩ ، تحققت نبوءة نيتشه اذ أصيب بهزة عصبية عنيفة أفقدته صوابه الى الابد ، عندما كان في مدينة تورين • وهو عندما كان يكافح لاستعادة شيء من توازنه العقلي في الساعات الاولى من الصدمة ، بادر الى كتابة بضع رسائل قصيرة مشوشة الى بعض أصدقائه ، منها رسالة ل « كوزيما » زوجة صديقه القديم « فاجنر » ، كان كل ما جاء فيها قوله لها : « أريادنه ، احبك » • ورسالة أخرى الى « ستريندبورغ » قال فيها : « لقد عينت يوما لاجتماع الملوك في روما ، وسأصدر أمري باعدام القيصر رميا بالرصاص » ـ التوقيع « نيتشه ـ قيصر » • ورسالة ثالثة الى « برانديز » من هذا النمط ، وقعها باسم « الصليب » • ورابعة الى « بوركهارت » ، وخامسة الى « أوفربيك » الذي شعر بعد أن قرأها بما آل اليه مصير نيتشه ، فهب من فوره تاركا دروسه في الجامعة ، لنجدة صديقه القديم • وعندما دخل « أوفربيك » على نيتشه في غرفته في تورين ، وجده يعزف على البيان بجنون ، ويصرخ مادحا نفسه بين لحظة وأخرى بصوت عال •

بعد ذلك أدخله أصدقاؤه أحد المصحات العقلية ٠ غير أن امه التي طعنت كثيرا في السن ، بادرت الى استلامه من المصح وقد احمرت عيناها لفرط البكاء ، وعادت به الى « فايمار » ٠ ولقد بقي نيتشه في رعاية امه الى أن توفيت عام ١٨٩٧ ، حيث كفلته اخته بعدها ٠

ونيتشه الذي لم يذق طعم الراحة والسعادة طوال عمره ، وجد سعادته فعلا في أيام جنونه ، اذ لم يعد هناك ما يشغل فكره مطلقا ، فقد فنيت ذاته فناءا ابديا على ما يظهر ٠ انه انغمر في لجة من البلادة والوجوم المطبق ، فلم يكن ليتكلم الا ما ندر ٠ ويذكر لنا مؤرخو سيرته انه قال يوما عندما وقعت عيناه على صورة فاجنر : « هو الذي احببته كثيرا » ٠ كما قال عندما رأى بعض كتبه امامه : « وأنا أيضا كنت مؤلفا ناجحا » ٠٠ لكن شعور نيتشه بالسعادة في ظل ذلك الجنون ، قد بدا واضحا عندما راح يطيل النظر الى شقيقته التي كانت تبكي لحاله في أحد أيامه الاخيرة ، اذ قال لهـا بسذاجة منقطعة النظير : « لم تبكين هكذا يا الزابيث ؟ أو لسنا سعداء ؟ » ٠

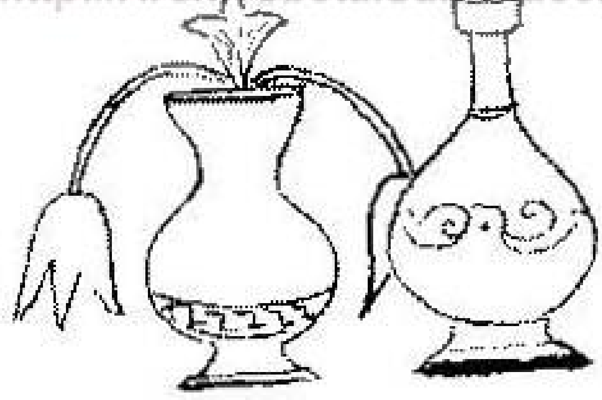
وعندما آذنت شمس القرن التاسع عشر بالتلاشي وراء آفاق ذلك القرن الحافل بالاحداث الفكرية المريعة ، كانت سيرة نيتشه قد انتهت أيضا ، اذ فنيت ذاته وتلاشى شخصه بصورة أبدية عندما داهمته منيته في « فايمار » في الخامس والعشرين من آب ، عام ١٩٠٠ :

« اني أحبه ، هو الذي يريد ، ويحاول خلق شيء في ما وراء أبعاد ذاته ، ووجوده ، ثم يتلاشى ويفنى ـ هكذا قال زرادشت » ٠

ـ مراجع البحث ـ

١ ـ نيتشه : ارادة القوة ٠
٢ ـ نيتشه : هكذا تكلم زرادشت ٠
٣ ـ نيتشه : مولد المأساة ٠
٤ ـ نيتشه : الرجل النحيل ٠
٥ ـ نيتشه : أفكار في غير محلها ٠
٦ ـ نيتشه : ما وراء الخير والشر ٠
٧ ـ نيتشه : ضد المسيح ٠
٨ ـ نيتشه : فجر النهار ٠
٩ ـ نيتشه : تاريخ انساب الاخلاق ٠
١٠ـ نيتشه : مسألة فاجنر ٠
١١ـ نيتشه : الحكمة المرحة ٠

١٢ـ نيتشـه : البشر جميعـا انسانيون ٠
١٣ـ نيتشـه : ظلام الاوهـام ٠
١٤ـ نـوردو : الانحطـاط ٠
١٥ـ فاكـو : عندما تقـرأ نيتشـه ٠
١٦ـ هوينـكر : الانانيـون ٠
١٧ـ هاليفيـه : حياة فريدريك نيتشه ٠
١٨ـ تـين : الثـورة الفرنسـية ٠
١٩ـ مينسكن : فلسفة فريدريك نيتشه ٠
٢٠ـ ليجيس : ارادة الحريـة ٠
٢١ـ سـولتر : نيتشـه المفكر ٠
٢٢ـ فراو فورستر ـ نيتشه : نيتشه الوحيد ٠
٢٣ـ مراسلات فاجنر ـ نيتشه ٠
٢٤ـ الدكتور فؤاد زكريا : ريتشارد فاجنر ٠



كتب الشهر

عثمان الموصلي
الموسيقار الشاعر المتصوف

تأليف الدكتور عادل البكري
١٧٢ صفحة من القطع الكبير
مطبعة العاني – بغداد

يقول المؤلف في مقدمة كتابه لو كان الملا عثمان رجل موسيقى وفن فحسب لترددت قبل ان اكتب عنه شيئا • ولكنه كان دائرة معارف كاملة وكان اعجوبة نادرة اخرجتها الموصل • اذ هي انبتته نباتا حسنا واحتضنته رضيعا وغلاما بين جدرانها الحجرية المائلة وقناطرها المعقودة فوق أزقتها الملتوية • حتى اذا اكتمل شبابه دفعت به الى بلاد المشرق لتقول هذا هو ابني النابغة •

في الحقيقة لقد جرني الملا عثمان الى الكتابة عنه جرا ، فقد وجدت اسمه على السنة الموسيقيين وهواة الموشحات ، ووجدته مترددا في كتب الشعر والادب ، وسمعت ذكره في المجالس والمقاهي ، وقرأت عنه في تواريخ الدولة العثمانية والتقيت به مرة في صفحة من صفحات مجلة انكليزية ، ونظرت اليه فوجدته أعمى يتلمس طريقه بعصاه • ثم وجدت أحد الادباء المشتغلين بتراجم الناس في دمشق يطلق عليه لقبا غريبا يستلفت النظر وهو (الضرير الجبار) •

ثم يقول :

لقد كان الملا عثمان اعجوبة حقا ، لذلك عزمت على الكتابة عنه وبحثت بين الكتب فلم أجد أحدا الف كتابا عنه • غير انني وجدت العشرات من الادباء الذين كتبوا عنه مقالات كثيرة ، غير ان أيا منهم لم يكتب سوى مقالة لا تكون الا شيئا زهيدا من كتاب » •

ولقد ساعد المجمع العلمي العراقي على نشر هذا المؤلف وقدم له اللواء الركن محمود شيت خطاب عضو المجمع • وقد ضم الكتاب بين دفتيه اضافة الى فصوله فهارس للمراجع والمصادر وللتراجم والتعليقات والنبذ الواردة في الهامش والمتن وأخرى للاعلام وللمدن والاماكن •

القوى البحرية في الخليج العربي في القرن الثامن عشر

تأليف الدكتور عبدالامير محمد أمين

١٠٣ صفحات من القطع الكبير
مطبعة أسعد – بغداد

يشتمل هذا الكتاب على مقدمة وثلاثة فصول تناولت على التوالي سياسة نادرشاه البحرية وأثرها في الخليج وازدياد قوة القبائل العربية في الخليج العربي والغزو الايراني للبصرة ودور الاساطيل البحرية فيه . بالاضافة الى خمسة ملاحق وثبت في المصادر العربية والاجنبية وخارطة للخليج العربي ومخطط لمدينة البصرة رسمه نيبور عام ١٧٦٥م .

ويقول الدكتور المؤلف في مقدمة الكتاب (لقد حاولت في هذه الصفحات ان ابرز الدور الذي لعبته القوى البحرية المتصارعة في الخليج العربي في القرن الثامن عشر وان أوضح أثر ذلك الصراع في العراق .... وان أظهر تخلف العراق من النواحي البحرية وكيف ان هذا التخلف لم يقتصر على حصر نفوذ حكام العراق – ولاة بغداد – داخل ولايتهم ومنع امتداده الى الخليج ، بل لقد هدد هـذا التخلف البحري مصالح الولاية بأجمعها وسلامتها . فقد تعرض العراق بصورة عامة وتعرضت البصرة بصورة خاصة لكثير من النكبات والمتاعب نتيجة لاهمال القوة البحرية ، تلك النكبات والمتاعب التي حاولت شرحها في هذا الكتاب .

مدارس بغداد في العصر العباسي

تأليف – عماد عبدالسلام رؤوف

٢٣١ صفحة من القطع الكبير
مطبعة دار البصري – بغداد

في مقدمة يضعها المؤلف بين يدي كتابه يقول فيها « لقد حاولت في هذا الكتاب ذكر معظم مدارس بغداد العلمية في أشد عصورها ازدهارا ، وهو العصر العباسي . كما حاولت ايضا ترجمة الكثيرين من مدرسي تلك المدارس ووعاظها ومحدثيها وخزانها وطلابها ، متوخيـا في ذلك التركيز والايجاز ، دون الاطالة والزيادة في التفصيل ، ولا ريب ان لتراجم هؤلاء علاقة كبرى بتاريخ المدارس البغدادية ، لانها تدلنا بوضـوح على قيمة المدرسة ومدى الاهتمام بها .

وقد جاء ترتيب المدارس في هذا الكتاب حسب المذاهب السنية الاربعة ابتداء بالاقدم فالاحدث حسب التسلسل الزمني وجعلت للمدارس الجامعة اي التي درس فيها أكثر من مذهب واحد ، فصلا خاصا مستثنيا من ذلك المدرسة النظامية والمدرسة المستنصرية ، فأما الاولى فلم اذكرها لكثرة أخبارها وطول تواريخها وتعدد مدرسيها وأما الثانية - المستنصرية - فلم اتطرق اليها للسبب المذكور أولا ، وثانيا لتعدد ماكتب فيها من بحوث مفصلة تغني عن تناولها ثانية ٠

ولقد تناولت في هذا الكتاب العصور العباسية حسب ٠ فلم أصل فيه الى تاريخ العصور التالية الا في بعض المدارس كالمجاهدية والبشيرية والثقتية وزمرد خاتون وغيرها التي رأيت في تركها بعد حادثة سقوط بغداد اخلالا بسير البحث فأتممتها الى آخر عصورها حفاظا على الفائدة وتلافيا للنقص » ٠

والكتاب مذيل بمخطط لمدارس بغداد في العصر العباسي وبمخطط لبغداد في آخر العهد العباسي ٠

معجم المطبوعات النجفية
منذ دخول الطباعة الى النجف حتى الان

تاليف - محمد هادي الاميني
٣٩٩ صفحة من القطع المتوسط
مطبعة النعمان - النجف

في مقدمة وضعها بين يدي المعجم الاستاذ عبدالحميد العلوجي مما جاء فيها : « حركة الفهرسة ، عندنا ، في العراق جامدة ٠٠ لا ينشطها تحريك ولا حفز ، بالرغم من وفرة الدواعي الى الانفساح والاتساع في رحابها ٠ وهي وان كانت الطريق الامثل الى احياء المخطوطات الانباذ في خزائن العراق العامة والخاصة فانها ما انفكت تشتهي الحث والاستهواء والتحريض والاستفزاز حيال الباحثين الذين استغوتهم الاثار المخطوطة ٠ وقال عن هذا المعجم (٠٠٠٠ لقد هتك المؤلف فيه جميع الاقنعة عن مطبوعات ثمينة دارت مع الفقه ، والتفسير ، والحديث ، والمواعظ ، والعقائد ، والمقاتل ، والانساب ، والرجال ، والتاريخ ، واللغة ، والادب ، والفلك ، والطب ، والادعية ، والفلسفة ، والاخلاق ، والكلام ، والنحو ، والشعر ، والبلاغة ، والرياضيات ٠ »

وقد اشتمل المعجم على مدخل وضعه المؤلف وفصول تناولت الطباعة

في التاريخ ، والطباعة العربية في أوربا ، والطباعة والمطابع في النجف الاشرف ثم معجم المطبوعات النجفية منذ دخول الطباعة الى النجف حتى الان مرتبة حسب حروف الهجاء ٠

في اقتصاد العمل الاجتماعي والعمل والضمان الاجتماعي في الاسلام

كتابان للدكتور صادق مهدي السعيد

في الكتاب الاول الذي يقع في ٢٢٥ صفحة من القطع الكبير تناول المؤلف البحث تحت عناوين رئيسية لفصول ثمانية هي :

تعريف بعض المصطلحات ، القواعد التنظيمية للعمل ، حق وواجب العمل ، التشغيل ، شروط ممارسة العمل ، التعليم والاعداد المهني ، مجال العمل وعرض طلب العمل ، حجم السكان والقوة العاملة مع عدد من الجداول الاحصائية ٠ وقد أشتمل كل فصل على العديد من المباحث والفروع ٠

وفي الكتاب الثاني الذي يقع في (٢٢٠) صفحة من القطع الكبير قسم الدكتور المؤلف بحثه بعد التمهيد له الى ثلاثة فصول هي :

واجب العمل والحكمة من تنظيم المعاملات في الاسلام ، وعقد العمل في الشريعة الاسلامية والضمان الاجتماعي في الاسلام ٠ متوسعا في مجال البحث تحت عناوين فرعية كثيرة ضمن كل فصل من فصول الكتاب ٠

* * *

ومن دواوين الشعر الجديدة التي صدرت هذا الشهر :

رمــاد الفجيعــة

ديوان الشاعر سامي مهدي

٧٨ صفحة من القطع المتوسط
مطبعة دار البصري ـ بغداد

وقد اشتمل الديوان على ثــلاث عشرة قصيدة عناوينها كما يلي : حكاية الجوع والخوف ، الصوت واليقين ، من سيرة ابي ذر الغفاري ،

البحر والارض ، الظمأ ، العبد والحجاب ، الحرف الزائر ، صيفية ، هوى قديم ، العودة الى الصحراء ، الى نادمة ، الكبرياء الميتة ، الى اصدقائي .

ظلال الغاب

ديوان شعر الشاعر عبدالصاحب ياسين

١٢٨ صفحة من القطع المتوسط
منشورات المؤسسة العلمية الحديثة
مطبعة دار التضامن ـ بغداد

وقد اشتمل الديوان على ثلاث واربعين قصيدة من عناوينها : (الجمال، حلم ، روح ، من غير ظل ، لست لذاتك ، ثغور وعيون ، في الروض ، في الصيف ، في الشتاء ، كيف يأس ، فراق ، نشوة ، أيان ؟! ، ليت اني ، غرفة ، سماء ، تعالي ، صحبتك ، فرحة ، موعد في ليلة العيد ، تضاحك الايام ... الخ .

تصويب

وقعت سهوا بعض الاخطاء المطبعية في كلمة فضيلة الشيخ علي كاشف الغطاء المنشورة في الجزء الماضي نلفت اليها عناية القارىء الكريم ، وهي :

السطر الثالث : تدمع لجلل المصاب ، وصوابها : لجلل الخطب
السطر السابع : وتصبيح ، وصوابها : وتعج
السطر العاشر : وعواصف ، وصوابها : وعواصف هوجاء
السطر الحادي عشر : الصلاخيد ، وصوابها الصياخيد
السطر الواحد والعشرون : تسلية عما سلف ، والصواب : عمن سلف
السطر الثاني والعشرون ، استغفر الله ، والصواب : استنجد لطف الله

النتاج الجديد

المسكوكات النحاسية (في عهد الاتابكة)

ـ جواب على نقد ـ

عباس العزاوي

قال ابو الطيب :

وهبني قلت هذا الصبح ليل ايعمى العالمون عن الضياء ؟

جاء في كتاب (العملة الاسلامية في عهد الاتابكة) تأليف الاستاذ محمد باقر الحسيني بعنوان (الفلوس النحاسية) ما نصه :

« يرى الاستاذ عباس العزاوي من ان العملات النحاسية الاتابكية في رأيه لا تعد نقودا . لانها كانت محلية ، ولم يكن لها اعتبار عند الفقهاء ، وان التصرف فيها كان غير مؤاخذ عليه ، ولا مخالف للمعهود »(١) انتهى .

وكرره في مقالة في مجلة الاقلام الغراء جزء ١٩٦٦/٩ رأيت فيه خلاف ما كنت اتوقع . الاستاذ لم يراع في نقده قواعد البحث والمناظرة مما يستدعي أن يكون النقل لما قلته صحيحا ، ويورده بلا تصرف يخل بالمعنى المطلوب على قاعدة (ان كنت ناقلا فالصحة) في الامور النقلية . وهو أمر ملتزم فمن المؤسف ان لا يراعي الاستاذ نقل النص سليما كما ورد بل نقله مبتورا ، وجعل ذلك من رأيي ليتخذه وسيلة للرد بنقده الجائر او هكذا فهمه فاقول :

انني في (كتاب تاريخ النقود العراقية) تناولت (النقود) جميعها . ولم اقل ان الفلوس ليست نقودا . وانما قلت : لا تعد في الحقيقة أي نفس الامر نقودا ، واني عللتها بانها محلية لا تتجاوز نطاق حكم المحل الذي ضربت فيه ، وليست لها صفة عامة كما هو المشهود في الدينار والدرهم في تداولهما في الممالك الاخرى باسعارهما وبصورة عامة والنصوص التي ذكرتها في الفلوس جاءت في صفحات من كتابي تاريخ النقود العراقية :

---

(١) العملة الاسلامية في عهد الاتابكة ص ٩٣ .

١ ــ في صفحة ٢٢ قلت :

« اما الفلوس فان الفقهاء لم يتعرضوا لها من جهة تحقيق قيمتها • لانها لا تدخل في النصاب الشرعي (وهو عشرون مثقالا من الذهب ، ومائتا درهم من الفضة في الزكاة) ولانها لا تعد ثروة » • أي لا تدخر ولا يتعامل بها في الخارج •

٢ ــ في صفحة ١٩٤ منه قلت :

« وعز الدين مسعود (٥٧٦هـ ــ ٥٨٩هـ) ومن نقوده المضروبة في الجزيرة ما يشبه نقود من سبقه • وهكذا كان حتى آخرهم ، ولم تكن مصورة الا في (نقودها النحاسية) وحدها • لانها كانت محلية • ولا يصح اطلاق لفظ (نقد) عليها (في الحقيقة) • وليس لها اعتبار نقود عند الفقهاء ، فيراعى فيها بعض الاوضاع • وان التصرف بها غير مؤاخذ عليه ولا مخالف للمعهود » • اهـ

وفي هذا ذكرت (النقود النحاسية) بصراحة وانها محلية ، ولا يصح اطلاق لفظ نقد عليها (في الحقيقة) • حذف لفظ (في الحقيقة) فأخل في المعنى المراد أي انني قلت ان النقود النحاسية لا تعتبر نقودا في الحقيقة ونفس الامر من جراء أنها ليست كالذهب والفضة عامة التداول • وانما هي محلية لا تتجاوز محل ضربها في التعامل بها فلا صفة لها دولية ولا تمثل نقود الدول في الاخذ والتداول بل نرى أمرها مقصورا على نطاق ضربها ومحل التعاطي بها •

٣ ــ وفي صفحة ١٩٥ قلت :

« النقود النحاسية ليس لها قدرة التعامل الخارجي فلا تتجاوز محل ضربها في التعامل بها فلم تمثل نقود الدول حقيقة بالنظر للمجاورين والخارج • » اهـ

هذا • ولم اذكر نقودا بعينها وللمملكة بخصوصها ، بل ان جميع النقود النحاسية هذا حكمها • ومن هذه النصوص ومقابلتها بما ذكر الاستاذ يتبين ان الصواب ما ذكرته من انها (نقود) في شكلها ، وتختلف عن الدينار والدرهم في تداولها ، والتساهل في الكتابة عليها • لانها لا تقبل التداول وليس لها الشمول في عموميتها •

٤ ــ كنت ذكرت ان النقود النحاسية ليست لها صفة رسمية يؤاخذ في الضرب عليها ، او يعارض الاهلون فيها كما هو الشأن في الدينار والدرهم فيما يكتب عليها أو يصور •

٥ ــ جاء في صفحة ٦٦ من كتاب النقود العربية للاستاذ الاب انستاس الكرملي نقلا عن كتاب النقود الاسلامية للمقريزي ما نصه •

« واما الفلوس فانه لم تزل سنة الله في خلقه ، وعادته المستمرة منذ

كان الملك الى ان حدثت الحوادث والمحن بمصر منذ سنة ٨٠٦هـ في جهات الارض كلها عند كل أمة من الامم كالفرس والروم ٠٠٠ واليونان ٠٠٠ ثم في الدول الاسلامية من حين ظهورها على اختلاف دولها ٠٠٠ كبني أمية بالشام والاندلس ، وبني العباس بالعراق ٠٠٠ ودولة بني بويه ، ودولة الترك بني سلجوق ٠٠٠ ودولة الاتراك بمصر ، والشام ٠٠٠ ودولة بني تيمور بسمرقند ، ودولة بني عثمان ٠٠٠ ان التي تكون اثمانا للمبيعات وقيم الاعمال ، انما هي (الذهب والفضة) فقط ٠

ولا يعلم في خبر ٠٠٠ عن امة من الامم ، ولا طائفة من طوائف البشر انهم اتخذوا ابدا في قديم الزمان ، ولا حديثه نقدا غيرهما الا انه لما كان في المبيعات (محقرات) ما يقل عن أن يباع بدرهم او بجزء منه احتاج الناس من أجل هذا في القديم والحديث من الزمان الى شيء سوى الذهب والفضة يكون بازاء تلك ، ولم يسم أبدا ذلك الشيء الذي جعل نقدا البتة فيما عرف من أخبار الخليفة ، ولا أقيم قط بمنزلة أحد النقدين ٠٠٠ ولم يزل بمصر ، والشام ، وعراق العرب والعجم ، وفارس ، والروم في أول الدهر وآخره يجعلون بازاء هذه نحاسا يضربون منه قطعا صغارا تسمى (فلوسا) لشراء ذلك ، ولا يكاد يوجد منها الا اليسير ٠ ومع ذلك انها لم تقم ابدا في شيء من هذه الاقاليم بمنزلة أحد النقدين قط ٠٠٠ » الى آخر ما قال في صفحة ٦٨ وما بعدها ٠

واعتقد ان في هذا كفاية ٠ فهو نقد أسمي ، ولا يعادل نقود الذهب والفضة ٠

٦ ـ ان الاستاذ المؤلف عد (النقود النحاسية) من النقود المساعدة في (صفحة ٩٨) وفي صفحات اخرى من كتابه ، فلم يعدها من النقود الاصلية كما ان الدكتور عبدالرحمن فهمي محمد في كتابه (النقود العربية ـ ماضيها وحاضرها) قال ان الاصل في ضرب هذا النـــوع من النقود النحاسية ان تكون عملة تساعد على أجراء العمليات التجارية البسيطة ولكنه فاته ان يقول أنها لا تستعمل في هذه الحالة الا ضمن نطاق الدولة او الامارة التي أصدرتها (ص ١١) ٠

٧ ـ في الدولة الايوبية قلت : والنقود النحاسية لا تعد نقودا بالمعنى المراد في التداول العام ٠ وقد شوهدت (نقود نحاسية) مصورة تبعا لما كان قد جرى عليه اتابكة الموصل (تاريخ النقود العراقية ـ ص ١٩٧) ٠

٨ ـ ان النقود النحاسية يتساهل فيما يكتب عليها من القاب الملوك لهذا السبب لا تعد عملة عامة تحاسب الدولة أو الامارة على ما تكتب عليها ٠

٩ ـ يتساهل في التصوير على النقود النحاسية لعين السبب وان المؤلف يعدها من الحقوق المقررة ٠ ولم يفرق بين (نقود الافراح والصلات) وما يكتب عليها وبين سائر النقود وكذا بين النقود النحاسية وما يكتب عليها من تصاوير ٠ وهذا أكبر خطأ في الكتاب ٠ فقد عد نقود الصلات

والافراح نقودا معتادة كما انه عد التصوير معتادا غير خاص بنقود الافراح والصلات وبالنقود النحاسية • وقد أوضحت عن خطأ هذه الفكرة في كتابي (تاريخ النقود العراقية) • وأوردت نص الذهبي في كتابـه (الكبائر) • وأوضحت عن نقود الصلات والافراح من صفحة ١٨٨ الى صفحة ١٩٨ الايضاح الوافي • وفي كتاب النقود العربية ماضيها وحاضرها للدكتور عبدالرحمن فهمي أورد (النقود التذكارية) في عصر الفواطم وبين انها لها اختصاص في موضوعها ويتساهل فيها ••• ص ٦٦ مع الاشارة الى انها قلدت الدولة العباسية في ذلك وهي ليست نقودا ••• وذكرت في صفحة ١٩٣ بطلان ما جاء في دائرة المعارف الاسلامية في قولها :

« وثمة أمثلة متفرقة لسكة تحمل صور خلفاء بني العباس ، المتوكل ، والمقتدر ، والمطيع • » ج ٥ ص٣١٢ وهذه لم تكن نقودا متعاملا عليها • وربما زادت على وزن النقود المألوفة ، أي انها مماثلة لها •• لا تدل على تعامل • وانما تعين وضعا • لا أنها تعتبر نقود دولة • وهكذا يقال عن الدرهم المصور في ايام الاتابكة •

اغلاط الكتاب :

لا يخلو كتاب من اغلاط بسبب الطبع أو غيره ، ولكن التنبيه عليها ضروري لئلا يتمادى الغلط والامل ان يتداركها المؤلف في طبعة ثانية • منهـــا :

١ ـ تعريب النقود او تعريب السكة وقد كررها مرارا • والنقود التي ضربها العرب عربية ولم تكن معربـــة والتعريب للاجنبي لا للنقد المضروب من جانبنا (ص ١٥) •

٢ ـ ضرب النقود كان سنة ٧٦هـ وقد ذكرت النصوص التي اعتمدتها• ولم يكن سنة ٧٧هـ وتكرر منه • ولعله يقصد غير العراق •!

٣ ـ كرر العبارة عينا في صفحة ١٥ سطر ١٠ و١١ و ١٢ جـاءت مكررة مع ما في صفحة ١٦ سطر ٢ و٣ و ٤ والعبرة بالضرب في العراق وفي عاصمة الدولة في الشام •

٤ ـ البويهين • صوابها البويهيين ص ٢٣ •

٥ ـ دخول طغرل بك بغداد سنة ٥٤٧ وداموا فيها الى سقوطها سنة ٦٥٦هـ ص ٤٣ • لم يكن صوابا ففي سنة ٥٤٧هـ انقطعوا عن بغداد •

٦ ـ ابناء من ابنائه اميرا ••• ص٢٨ مضطربة •

٧ ـ ثلاثين ميل ص٣٢ صوابها ثلاثين ميلا •

٨ ـ ضرب النقود والذهب والفضة ص ٣٣ صوابها ضرب النقود الذهب والفضة •

٩ ـ كتالوكاتها ص ٣٣ و ص١١٥ و ١٤٦ وصوابها مجموعات •

١٠ـ كاعترافا صريحا ص ٣٦ وصوابها كاعتراف صريح •

١١ـ متحف همايون باستنبول وموزه همسايون ص ١١٤ و١١٥ وص ١٤٢ صوابها متحف الاثار القديمة ويسمونها (آثار عتيقة موزه خانه‌سي) •

١٢ـ لمال الا التجار • مضطربة •

١٣ـ كيفا وردت ص ٨٢ وصوابها حصن كيفا •

١٤ـ وذم الاخطاء النحوية في عملة الاتابكة ص ١٤٥ وقد وقع فيها •

١٥ـ لوحة ص ١٤٦ صوابها (لوح) وكرزها في مواطن •

والحاصل كنت آمل أن يظهر بالمظهر اللائق الصحيح • والرغبة مصروفة للاصلاح ولعل تدارك ذلك أمر محتم لئلا يقع آخرون في اغلاطه • والله ولي الامر •

نصوص ضائعة من كتاب الوزراء والكتاب

لمحمد بن عبدوس الجهشياري
(المتوفي سنة ٣٣١للهجرة)

جمعها من مصادر مخطوطة ومطبوعة ، وعلق عليها ميخائيل عواد ـ بغداد
(مطبعة دار الكتاب اللبناني ـ بيروت ١٩٦٥)

بقلم : محمود الملاح

لما وصلتني نسخة من كتاب « نصوص ضائعة » من كتاب « الوزراء والكتاب » للجهشياري هدية مشكورة(١) من جامعها ومحققها وناشرهـا الاستاذ ميخائيل عواد ادنيتها من أذني لعلي أسمع منها نغمة العود ! لان بعض الفنون تشترك فيها الاذان والعيون ! مظهر أنيق ومقدمة مفصلة وتعليقات مفضلة وفهارس مدللة أشتهي أن تكون لكل كتاب ينشر لا سيما أن يكون الكتاب لي •

ان الجمع ليس بالامر الهين ، وتحقيق الالفاظ ليس بالعمل اللين ، ونظم الفهارس يحتاج الى فارس ! لا كل من هب ودب ••• لكن الايمان بالعمل المثمر هو الذي يمهد ويعبد بخلاف الكتب(٢) التي قد يسحرك منظرها وينحرك مخبرها ! •

ان تحقيق المخطوط أشد مؤونة من التأليف ، واذا قيل من ألف فقد

---

(١) هذه الهدية الثانية بعد « رسوم دار الخلافة » • وللمؤلف كتب اخرى •
(٢) بعض الكتب تشبه قصة البعير الذي عرض رقبته على الحداد !

استهدف أمكن ان يقال : من حقق فليستعد للقلق !

ان المؤلف حر في ما يأتي ويذر والمحقق مقيد بالامانة ، والمحافظة على الامانة تحتاج الى متانة • وقد يبدو للمطالعين مالا يبـــدو للطابعين ، ونقتصر في ايراد أمثلة على الكتاب نفسه •

في (ص ١٤ ، السطر الثاني من الاخير) : (ويوجده الطريق) أرى ان الملائم (ويوجه) •

وفي (ص ٢٧ ، س١١) : (أنزله) بهمزة مفتوحة ، والصــواب ضمها •

وفي (ص ٢٩ ، س٢) ، (ليبطئنوا) أراه (ليبطئوا) •

وفي (ص ٣٠ ، س ٩) : (تنكر) اظنه تحريف (تذكر) •

وفي (ص ٣١ ، ح٢) : (معرب جاكر) يجب التنبيه على ان الجيم فارسية لتلائم الشين •

وفي (ص ٣٤ ، السطر الاخير) : (خيله الذي) : التي •

وفي (ص ٣٩ح) : (ان أمضى اليه الامر) : أفضى •

وفي (ص ٤٢ ، ح١) : (ولعلها النائرة) : لا حاجة الى (لعل) •

وفي (ص ٤٦ ، س١) : (فيبره) بالرفع مع انه معطوف على منصوب •

وفي (ص ٤٦ ، س١) : (واشترى سيفاً) : أرى الاليق (شنفاً) •

وفي (ص ٤٧ ، س٩) : (بأخذه بيده) : الضمير الاول فضلة •

وفي (ص ٤٨ ، س ٥) : (صلوا) بالضم • صوابه بالفتح •

وفي (ص٦٢ ، س٥) : (يذكرها) : يذكر ما •

وفي (ص ٦٣) اضطراب لعله عن تقديم وتأخير •

وفي (ص ٦٧ ، س١٠) : فجدينا في السير) • أرى انها (فجد بنا) بالباء ولا حاجة الى (في) •

وفي (ص ٦٩ ، س١٠) : (ان يسلكوا) صوابه (أن) •

وفي (ص ٨١) :

قالوا اصطبارك للحجاب مذلة   عار عليك به الزمان وعـاب

لم أجد للجار والمجرور (به) وجها ، وأراه (يد) كما قالوا (يد الدهر) •

وفي (ص ٩٠ ، س١٢) : (علي) بالشد • صوابه (على) الجارة •

وفي (ص ٩١) : (وقلت) بالضم ، مقتضى المقام الفتح • ومن الغريب ان فات الاثنان المحقق !

ومثلها (سيخرج) (س ١٢) والظاهر (سيحوج) •

وهناك كلمات غمضت علي • ولعل (رجوت) : رحمت •

وفي (ص ٩٢ ، س ٢) : (وجمله) أراها (وحمله) أي أمر له بمركوب مبالغة في التكريم ، وما أظن القصة على وجهها ! ككثير من قصص تلك العصور للتهذيب والتدريب •

وقد يقع لي توقف في بعض الكلمات فأضع عليها اشارة استفهام ، مثل (المحرر) (ص ٤٥ ، س ٤) ، ومثل (يعشر) (ص ٧٩) الا اذا كان المراد الدرجة العاشرة ، ومثل (وهو متخلف آية من الآيات) (ص ٧٧) .

وفي (ص ٥٤) قصة مرتبكة وعليها حاشية مربوطة باسم الدكتور حسين علي محفوظ لم استطع أن أفهم لها معنى .

وفي (ص ٨٤) حاشية مثلها لم أجد لها وجها !

وفي (ص ٨٦ ، س ٢) : شربة سكبجية) دعا بها الخليفة في مجلسه .

والحاشية المربوطة باسم الدكتور حسين تفيد انها مرق الكباج ، ولو كانت كذلك لكتبت بالألف وأرى انها سكنجبينية وهي الملائمة للمجالس !

وما عجبت من شيء عجبي من ادخال (البرغل) في طبخة السكباج ، وما أظن للبرغل خبرا في العصر الرابع . وأول ما وجدته في تذكرة داود من أهل العصر التاسع . وراجعت كتاب الطبيخ طبع المرحوم الدكتور داود الچلبي وهو من تآليف القرن السابع فلم أجد له ذكرا لا منفصلا ولا متصلا ... على اني لا أستبعد قدمه في التاريخ لأنه قريب من الطبيعة وفيه صناعة ... وهو (ناموس الموصل) ولا فخر ! وهو كالغريب بالنسبة الى أهل بغداد ... وفي سورية تقوم (الفريكة) مقامه وصنعتها ساذجة . وعند الترك (بلغور) .

آراء وتعقيبات

حول موقفي من شعر الحر

نازك الملائكة

قرأت في الجزء التاسع من مجلة « الاقلام » سنة ١٩٦٦ مقالا عنوانه « الشعر بين عهديه الموزون وغير الموزون » للسيد سعيد زايد(*) ، وقد تحدث الكاتب عني خلل المقال وان كان لم يذكر اسمي نصا وانما سماني « أديبة عراقية مشهورة » حينا و « بعضهم » حينا اخر · وقد وقف عند قصيدتي المترجمة « مرثية في مقبرة ريفية » فاقتطع منها مقطعين نسخهما عن الطبعة الثانية من ديواني « عاشقة الليل » آخذا علي انني كتبت شعر الشطرين العربي الدارج كتابة الشعر الحر ، ظانا انني قصدت بذلك أن تبدو القصيدة وكأنها من الشعر الحر ·

والواقع ان هذه القصيدة قد كتبت في الطبعة الاولى من الديوان كتابة طبيعية ذات شطرين ، ومثلها في ذلك كل قصائد البحر الخفيف ، واضطررت في الطبعة الثانية ان اكتبها كتابة الشعر الحر لان حجم الطبعة كان من القطع الصغير ، وقد فعلت مثل ذلك بقصائد البحر الخفيف جميعا بسبب طول الشطرين في هذا البحر · وخير دليل على انني لم اقصد ايهام القارىء بان هذا شعر حر أنني لم أصنع مثل ذلك بقصائد الشطرين الاخرى و « عاشقة الليل » كله من شعر الشطرين ·

يضاف الى ذلك انني تحاشيت قسمة الشطرين بحسب وقفة التدوير في اخر الشطر الاول ، وانما قسمتهما قسمة تسلم فيها الكلمة المدورة من التمزيق الى كلمتين اثنتين ، وحاولت أن أحكم المعنى في هذه القسمة ، فكان الشكل الذي يشبه الشعر الحر · ولقد صنعت مثل هذا بكل قصيدة من البحر الخفيف في الطبعة الثانية من دواويني كلها ·

واحب ان أنتهز فرصة هذا البيان للتحدث في اشاعة عني شاعت

(*) حدث سهوا ، ان ذكر اسم السيد (سعيد زايد) في الجزء التاسع من هذه المجلة على انه كاتب المقال الذي تشير اليه الاستاذة نازك الملائكة ، والواقع ان المقال بقلم السيد « ابو طالب زيان » كما اوضحنا في الجزء العاشر ·

شيوعا عظيما في أوساط مختلفة ونشرتها صحف كثيرة في مختلف انحاء الوطن العربي • قالوا وأعادوا وكرروا أن نازك الملائكة قد تراجعت عن الشعر الحر وعادت الى شعر الشطرين • وقد ادت هذه الاشاعة الى أن يرضى عني المتطرفون من أعداء الشعر الحر ، ويسخط علي المتطرفون من أنصاره ، حتى أصبحت موضع حديث المتطرفين جميعا •

والواقع ان الذين يرددون هذه الاشاعة لا يستندون الى اية وثيقة رسمية لذلك احب أن أسألهم هذا السؤال : « أين اعلنت تراجعي عن الشعر الحر ومتى ؟ أكان ذلك في مجلة او جريدة ؟ ام كان في مجلس أدبي ؟ » وعند هذا السؤال سيذهل المسؤولون ويحارون • وسرعان ما سيتبين لهم انني لم أتراجع قط عن الشعر الحر لا في مجلة ولا جريدة ولا ندوة ولا مجلس أدبي • ولن يستطيع انسان ان يجادل في هذا او يأتيني بوثيقة رسمية من أي نوع •

وقد فكرت في السبب الذي يمكن ان تكون الاشاعة قد ارتكزت اليه في ذيوعها فخطر لي انني نشرت خلال العامين الماضيين قصيدتين من شعر الشطرين هما « أغنية الى الاطلال العربية » و « فجر الوحدة » وقد القيت الثانية في مهرجان الشعر ببغداد • والظاهر ان بعض الناس يحسبون انني تركت الاوزان الشطرية تركا كاملا ، ولذلك رأوا في مجرد عودتي اليها ايذانا بالتراجع • وهذا حسبان مغلوط واهم • فانا لم اترك شعر الشطرين قط منذ بدأت دعوتي الى الشعر الحر سنة ١٩٤٩ وهذه دواويني المطبوعة تثبت هذا ، فلم يكن في « شظايا ورماد » الا ست قصائد حرة ، ولم يكن في قرارة الموجة الصادر سنة ١٩٥٧ الا تسع قصائد حرة والبقية كلها منظومة بالاوزان العربية الدارجة ، وكذلك الامر في شعري المنشور بعد هذا جميعا • وانه ليؤلمني أشد الايلام ان يترك الشعراء أوزاننا العربية ليستعملوا الشعر الحر وحده ، وقد بينت في كتابي « قضايا الشعر المعاصر » ان الاوزان الحرة تنفع الشاعر في بعض أغراض الشعر ولذلك دعوت اليها في حماسة وحرارة ، ولم أقصد قط بدعوتي أن نترك الاوزان الدارجة ونقتصر على الاسلوب الجديد • وأنا لم أزل أكتب الشعر الحر كما كنت ، ورأيي فيه مبسوط في مائتين من الصفحات في كتابي المشار اليه ، فارجو الا تتناقل الاوساط الادبية اشاعة لا أساس لها قط ، ولا ينبغي لاديب أن يردد حديثا لاسند له •

اما المآخذ التي أخذتها على طائفة من شعراء الشعر الحر ، فارجو الا يخفى انها مآخذ على الشعراء لا على الشعر كله ، واذا كنت أنقد هذه القصائد الحرة ، بما فيها من خروج على التشكيلات وشذوذ عما تقبله الاذن العربية ، فان موقفي هذا ليس جديدا وانما كتبت فيه مقالا نشرته

مجلة « الاديب » عام ١٩٥٢ أي منذ أربع عشرة سنة ، فلا يصح ان يكون رأيي هذا مدعاة الى وصفي بالتراجع · ولقد التزمت بقيود التشكيلة الموحدة منذ أول عهدي بالشعر الحر ولم أزل ألتزم بها · وفي رأيي أن الشعراء كلهم سيلتزمون بها في مستقبل الامة العربية ·

وللقارىء الكريم تحياتي ··

